دراسات منهجيّة هادفة

حول الأصول الثلاثة:

الله، الرسول، الإسلام

الجزء الأوّل

تأليف

سعيد حوّى

راجعهُ الأستاذ

وهبي سليمان الغاوجي

نظر في هذا الفصل قبل طبعه أستاذنا وأخونا الشيخ وهبي سليمان الغاوجي وأبدى ملاحظاته التي انتفعنا بها فجزاه الله خيراً .
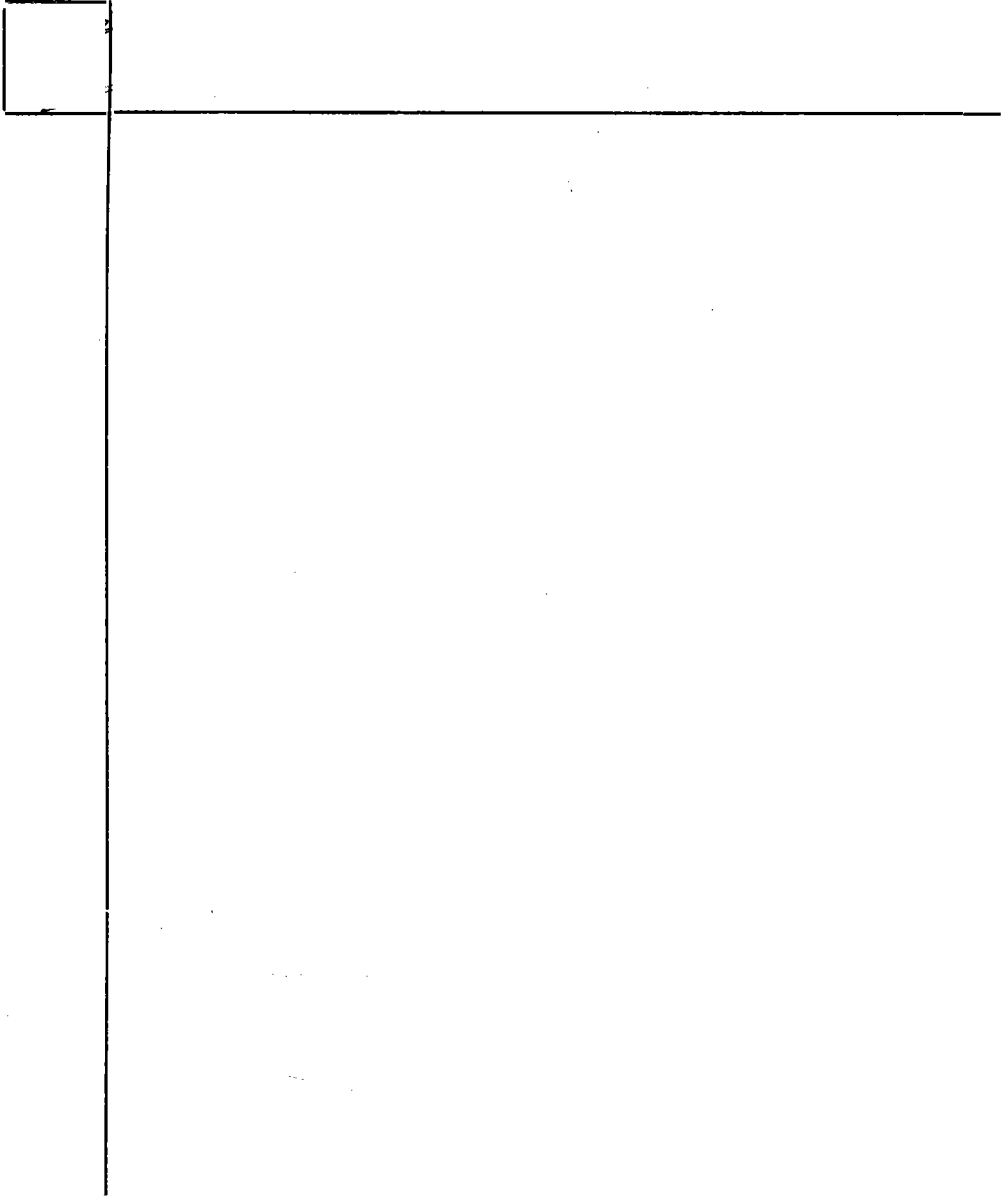
الأصل الثالث

الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

المقدمة

١ – الإسلام دين المرسلين والنبيين جميعا ، من لدن آدم حتى الرسالة المحمدية التي بها ختم الله الرسالات ، وقد أكد الله في القرآن هذا المعنى تأكيدا تاما . فذكر على لسان نوح قوله ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ وعلى لسان ابراهيم وإسماعيل ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك﴾ وفي وصية يعقوب لأولاده ﴿إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ وعن موسى عليه السلام ﴿فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾ وفي معرض الحديث عن التوراة ﴿يحكم بها النبيون الذين أسلموا﴾ وعن يوسف عليه السلام : ﴿توفني مسلما وألحقني بالصالحين﴾ وعن سحرة فرعون وقد آمنوا بموسى ﴿ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين﴾ وعن حواريي عيسى ﴿آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون﴾ وعن ملكة سبأ وقد آمنت ﴿وأسلمتُ مع سليمان لله رب العالمين﴾ وفي دعاء الرجل الصالح ﴿وأصلح لي في ذريتي اني تبت اليك واني من المسلمين﴾ وقد ورد في الحديث الصحيح ﴿والأنبياء اخوة أبناء علاّت أمهاتهم شتى ودينهم واحد﴾ أخرجه الشيخان وأبو داوود . قال تعالى ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ .

٢ – والإسلام في الأصل معناه الاستسلام لله في أمره ونهيه على لسان الوحي ، فمن

أسلم وجهه وقلبه لله في كل أمر فهو المسلم ؛ ولما كان النبيون والمرسلون أكثر الناس لله استسلاما ، فقد كانوا بذلك أول المسلمين ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ ﴿قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾ . وبدون تسليم واستسلام لله في حكمه فلا إسلام ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما﴾.

وحكم الله إنما يعرف بواسطة الوحي الثابت ، إذا بلّغنا إياه الرسول الصادق ، فإذا ما كان هذا فإن منطقية الإنسان أن يستسلم لأمر الله ذلك ، لأنه ما دام الإنسان من خلق الله ، وما دام علم الله محيطاً بكل شيء ، وما دام الله هو الحكيم ، فمقتضى عبودية الإنسان أن يستسلم له ، وتقتضي سنن الحياة أن يستسلم الإنسان لله ، لأن الله أعلم بها وبالإنسان .

٣ — ولما كان صلاح الإنسان باستسلامه لله ، فإن الله لم يترك أمة من الأمم إلا وقد أرسل لها رسولا ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾ وقال عليه السلام : ﴿أنتم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله﴾ ونفهم من هذا وَهْمَ الذين يتصورون أن الرسل لم يرسلوا إلا إلى بعض الأمم ، وبعض المناطق . فالحقيقة خلاف هذا ، وإن كنا لا نستطيع الجزم بمعرفة الرسول إلا إذا ورد الوحي الثابت بذكره .

فمثلا : الفرس يعتقدون أن لهم نبيا إسمه — زرادشت — ونحن نعتقد أن الفرس قد أرسل لهم رسول بالآية القرآنية وبأثر ابن عباس ﴿إن أهل فارس لما مات نبيهم كتب لهم إبليس المجوسية﴾ ولكننا لا نستطيع أن نجزم أن — زرادشت — هذا نبي وعلى هذا ما تذكره بقية الأمم عن انبيائها مما لم يذكره القرآن .

٤ — والاسلام يطلق على معنيين :

أ — على نفس النصوص التي يوحي بها الله مبينا دينه .

ب — وعلى عمل الإنسان في إيمانه بهذه النصوص واستسلامه لها .

والملاحظ أن الإسلام بالمعنى الأول يختلف سعة وشمولا من رسول إلى رسول ،

مع اتفاقه بالمبادىء والأصول . فالإسلام الذي أنزل على موسى أوسع مما أنزل على نوح ، لأن الله ذكر عن التوراة ﴿وكتبنا لهم فيها من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء﴾. وإسلام محمد ﷺ أوسع من إسلام أي رسول سابق ، لأن الرسل السابقين جميعا بعثوا لاقوامهم خاصة ، والرسول عليه السلام بعث للناس جميعا ، فاقتضى ذلك أن يكون إسلامه أشمل وأوسع من كل رسالة سابقة ، وقد وصف الله القرآن بقوله ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾.

٥ – وبذلك تم بناء النبوة والرسالة : فهدانا الله لسنن الأنبياء والمرسلين السابقين ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾﴿ويهديكم سنن الذين من قبلكم﴾ وأكمل لنا ما ينبغي أن يكمل﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ وقال عليه السلام﴿مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله الا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون لـه ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين﴾ أخرجه الشيخان . وبهذا الكمال والتمام أصبحت البشرية كلها مطالبة به ، فنسخ بذلك كل شرع سابق ولن يتنزل بعد ذلك شرع لاحق ، اذ بمحمد ﷺ ختمت الرسالة ﴿ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾.﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا﴾﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا﴾﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه﴾. ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾. فمن لم يتبع محمدا ﷺ فهو هالك ضال .

﴿والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار﴾ أخرجه مسلم .

﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولـه ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾ .

﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا﴾.

وفي الأصل فإن الإسلام الذي بعث به الرسل السابقون ، قد نسي ، أو حرف أو بدل وطمست معالم الحق فيه ، واستقر الباطل عند أهله ، في عقائدهم ، وعباداتهم وسلوكهم ، وإذا علمنا أنه لا يوجد الآن أي كتاب ديني في العالم غير القرآن وحديث

الرسول ﷺ الصحيح له سند متصل أدركنا أن الإنسانية إذا أرادت الإسلام لربها، ليس أمامها إلا اتباع محمد ﷺ وليست مختارة في ذلك، فإن الله لا يقبل غيره.

﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير﴾.

٦ ـ والإسلام الذي دعا اليه رسول الله ﷺ يعرف من الكتاب والسنة المعتمدة عند علماء نقد الروايات. وهذا الإسلام هداية كاملة للإنسان والناس، فإن الله عز وجل جعله كاملا وشاملا بحيث لا تبقى قضية من قضايا الوجود إلا وقد بُين حكمها فيه. إباحةً أو حرمةً أو كراهةً أو سنيةً أو وجوباً أو فريضة. سواء في ذلك شئون العقيدة، أو العبادة، أو السياسة، أو الاجتماع، أو الاقتصاد، أو الحرب، أو السلم. أو التشريع إلى آخر ما يتصوره الإنسان من شئون الإنسان. قال الله تعالى واصفاً كتابه ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء﴾ وقال عنه ﴿وتفصيل كل شيء﴾ وما لا يعرف من الكتاب والسنة صراحة يعرف استنباطا، يعرفه مجتهدوا الأمة الإسلامية.

فقد بينت في الكتاب والسنة قضايا العقيدة، وقضايا العبادة، وقضايا المال، وقضايا الاجتماع، وقضايا الحرب والسلم، وقضايا التشريع والقضاء، وقضايا العلم والتعليم والثقافة، وقضايا الحكم والسلطان. وقد عبر عن ذلك فقهاؤنا بقولهم: إعلم أن مدار أمور الدين على الإعتقادات والآداب والعبادات والمعاملات والعقوبات.

ويدخل في الاعتقادات قضايا الحكم، والسلطان، ويدخل في الآداب قضايا الأخلاق، والعبادات خمسة: الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد، والمعاملات خمسة: المعاوضات المالية والمناكحات والمخاصمات والأمانات والتركات، والعقوبات خمسة: القصاص وحد السرقة والزنا والقذف والردة.

٧ ـ وقد عرف الرسول ﷺ الإسلام تعريفات كثيرة، لم يفهم كثير من الناس مقصود رسول الله ﷺ منها إذ أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان أحيانا يعرف الكل بالجزء تبياناً لأهمية الجزء كقوله عليه الصلاة والسلام: ﴿الحج عرفة﴾ فالمعروف أن الوقوف بعرفة ليس كل الحج بل هو جزء منه ولكنه عبر عنه به لتبيان أهميته، فكما يخطيء خطأ عظيما إذا تصور الإنسان أن الحج كله هو الوقوف بعرفات كذلك يخطيء الذي يتصور الإسلام أنه بعض أجزائه إذا عرفه بها رسول الله ﷺ وسنذكر هذه التعاريف لنعرف مضمونها ومحلها:

التعريف الأول : — عن طلحة بن عبيد الله قال : جـاء رجل الى رسول الله ﷺ فإذا هو يسأل عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ خمس صلوات في اليوم والليلة : فقال : هل عليّ غيرهن ؟ قال : لا إلا أن تطوع وذكر له الزكاة فقـال علي غيرهـا ؟ قال : لا إلا أن تطوع فأدبر وهو يقول : لا أزيد على هذا ولا أنقص منه فقال عليه السلام : أفلح إن صدق أو دخل الجنة إن صدق﴾ أخرجه الستة إلا الترمذي وعند أبي داوود : أفلح وأبيه ان صدق﴾.

التعريف الثاني : — وقال معاوية بن حيدة : وإني سألتك بوجه الله تعالى بما بعثك الله إلينا ؟ قال بالاسلام قلت : وما آيات الإسلام ؟ قال : أن تقول أسلمت وجهي لله وتخليت وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة . كل مسلم على مسلم محرم أخوان نصيران لا يقبل من مشرك بعدما أسلم عمل أو يفارق المشركين إلى المسلمين﴾ أخرجه النسائي .

التعريف الثالث : — أخرج الخمسة الا البخارى عن رسول الله ﷺ قال : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا﴾.

هذه تعاريف أجمعها الأخير وهي كلها إنما عبرت بالجزء عن الكل ، لتبيـان أهمية هذا الجزء ، بدليل الحديث الصحيح الآخر الذي اعتبر هذه الخمسة أركانـاً للإسلام. قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه ابن عمر :﴿إن الإسلام بني على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله واقام الصلاة وايتـاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان .﴾

فقد ذكر هذا الحديث أن بناء الإسلام يقوم على هذه الأركان الخمسة فإذن هذه الخمسة هي ركائز الإسلام وليست كل الإسلام وإن كان الأساس عادة من جنس البناء .

عندما يقول القائل : إن هذا البيت بني على دعائم أربع يعني هذا أن هناك دعائم، وفوق الدعائم بناء ، وعندما يفهم إنسان من هذا الكلام أنه لا يوجد إلا الدعائم يكون مخطئا ، كذلك الذي يتصور أن الإسلام كله هو أركانه هذه الخمسة يكون مخطئا جدا، ويكفي لكي يعرف خطأه أن يفتح القرآن ليرى القرآن قد ذكر غير هذه الأشيـاء الخمسة فذكر أخلاقا ، وذكر اقتصادا ، وذكر اجتماعا، وذكر سياسة ، وذكر سلما وذكر حربا ، وذكر خيرا ، وذكر شرا .... ويكفي كذلك ليعرف خطأه أن يفتح كتاب فقه ليرى فيه عبادات ، ومعاملات ، وقضاءا ، وجهادا ، وإرثا ، وزواجا ، ويكفي

كذلك ليعرف خطأه أن يفتح كتاب حديث جامع كصحيح البخاري ليرى غير العقائد والعبادات أحكام بيع وشراء ، وأحكام عقود ، وأحكام سياسة ، واجتماع وأخلاق.

إذن هذه الخمسة . أركان الإسلام التي يقوم عليها بناؤه وليست كل الإسلام .

وإذن فالإسلام أساس وبناء : الأساس هو الأركان والبناء هو أحكام الإسلام في قضايا البشر . إنك تجد إذا درست الإسلام ، أن للإسلام منهاجه السياسي المستقل ، حيث ترى فيه نظرة الإسلام المنفردة إلى موضوع الأمة ، والوطن ، والرئاسة العليا ، وطريقة الشورى ، والقضاء ، والأجهزة التنفيذية . والتقسيمات الإدارية ... الخ .

وإذا درست الإسلام وجدت أن له منهاجه الإجتماعي المستقل ، حيث ترى فيه نظرة الإسلام المنفردة إلى الانسان وإلى الرجل ، وإلى المرأة وإلى تنظيم الأسرة ، والحياة الاجتماعية ومفاهيمها إلى آخر ذلك .

وإذا درست الإسلام وجدت أن له منهاجه الأخلاقي المستقل ، حيث تجد طريقا أخلاقيا واضحا كاملا شاملا راقيا واقعيا ، لم يبق فيه جانب من جوانب الحياة إلا وقد دلك فيه على أنظف سلوك وأطهره .

وإذا درست الإسلام وجدت أن منهاجه التعليمي المستقل الذي يعمر الدنيا ولا ينسى الآخرة ، ورأيت جوانب هذا المنهاج متكاملة لا نقص فيها ولا عوج ، ولا إفراط فيها ولا تفريط .

وإذا درست الإسلام وجدت أن له منهاجه العسكري المستقل في الأهداف والتطلعات والتعبئة والتنفيذ والتدريب والأسس والمفاهيم والقواعد .

وإذا درست الإسلام وجدت أن له منهاجه الإقتصادي المستقل ، سواء في ذلك تنظيمه المستقل لقضية الملكية أو لخزينة الدولة ، او لحل المشاكل الاقتصادية الاجتماعية أو للعلاقات الاقتصادية بين دولته وبقية الدول ..

وهكذا وهكذا لا نجد قضية من قضايا الوجود البشري إلا وللإسلام فيها حكم . مجموع هذه الأحكام هي بناء الإسلام الذي يقوم فوق أركانه .

إن هذا ما ينبغي أن تفهمه من حديث ابن عمر «ان الاسلام بني على خمس ..» وعلى ضوء هذا الحديث ينبغي أن نفهم الأحاديث الأخرى وهذا مقتضى قول الله تعالى : ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء﴾.

٨ – هذا الإسلام كلف الله به البشرية حتى يستقيم أمرها في دنياها لأخراها ، إلا أن النفس البشرية بطبيعتها لا ترغب في التكاليف والقيود التي تحد من أهوائها ، وشهواتها ونزواتها وحريتها ، وإن كان ذلك لصالحها . لذلك فقد فرض الله على أهل الحق الذين آمنوا به ، والتزموا به أن يحملوا الإنسانية على الخضوع لسلطانه ، وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد .

الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، حتى يقوم الإسلام في المجتمع الإسلامي . والجهاد من أجل فرض سلطان شريعة الله على العالم خارج حدود الوطن الإسلامي . قال تعالى ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة﴾ .

فهذه الثلاثة ، الجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر : هي المؤيدات البشرية لقيام الإسلام ، وهي غير المؤيدات الربانية التي مظهرها عقوبات الفطرة في الإنحراف عن الإسلام ، أو العقوبات الربانية في الدنيا والآخرة . لذلك فقد دخلت هذه الثلاثة في بعض تعريفات السيد الرسول ﷺ للإسلام مع الاركان لأهميتها .

روى البزار عن رسول الله ﷺ قال : ﴿الإسلام ثمانية أسهم . الإسلام سهم ، والصلاة سهم ، والزكاة سهم ، والصوم سهم ، وحج البيت سهم ، والأمر بالمعروف سهم ، والنهي عن المنكر سهم ، والجهاد سهم ، وقد خاب من لا سهم له﴾ .

وروى الحاكم عن رسول الله ﷺ أنه قال ﴿الإسلام ان تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتسليمك على أهلك فمن انتقص شيئاً منهن فهو سهم من الإسلام يدعه ومن تركهن فقد ولى الإسلام ظهره﴾ .

إن المعروف كلمة عامة تشمل كل شيء طلب في الشريعة أو أبيح . سواء كان فريضة ، أو واجبا ، أو سنة ، أو مباحا والمنكر كلمة تشمل كل ما لم تجزه الشريعة ، أو أمرت الناس بالاحتراس منه ، أو الإنتهاء عنه ، ويدخل في ذلك الحرام والمكروه فالمعروف يشمل أركان الإسلام والإسلام .

والمنكر يشمل الإنحراف عن الإسلام أركانا وبناءا .

ومهمة المسلمين إبقاء الإسلام قائما ، ولذلك كان عنوان كون السلطة إسلامية هو هذا :

﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾.

إقام الصلاة رمز على أن دولتهم دولة عبادة لله.

وإيتاء الزكاة رمز على أن دولتهم دولة عدالة ربانية.

والأمر بالمعروف رمز على أن الخير كله في دولتهم موجود.

والنهي عن المنكر رمز على أن الشر كله في دولتهم مقهور.

وهذا كله رمز على أن بناء الإسلام قائم في أسسه وبنيانه.

وعلى ضوء ما تقدم فإن التعريفين الأخيرين اللذين مرا معنا آنفا، إنما عرفا الإسلام كذلك بأجزاء مهمة فيه، ولم يذكرا الإسلام كله. لأن الإسلام كما رأينا أشمل من هذا كله، وإنما ذكر أحدهما الأركان، وزاد عليها المؤيدات البشرية لقيام الإسلام، لتبيان أهمية الأركان والمؤيدات بالنسبة للمسلم، وذكر الآخر الأركان ومؤيدين من مؤيدات الإسلام، وأدبا من آداب المسلم داخل بيته لتبيان أهمية هذه المعاني، وعظم مكانتها في الإسلام، وليست كل الإسلام كما رأينا.

ومن هذا القبيل حديث عمر رضي الله عنه الذي يقول فيه: ﴿بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد: أخبرني عن الإسلام فقال: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا. قال: صدقت فعجبنا له يسأله ويصدقه قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال: صدقت فأخبرني عن الإحسان قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال: فأخبرني عن الساعة قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل قال: فأخبرني عن أماراتها قال: أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة — وليس عند مسلم العالة — رعاء الشاء يتطاولون في البنيان قال ثم انطلق فلبثت مليا — هذا لفظ مسلم — وعندهم فلبثت ثلاثا ثم قال: يا عمر أتدري من السائل؟ قلت الله ورسوله أعلم قال فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم﴾ أخرجه مسلم والترمذي والنسائي.

إن كلمة فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم في الحديث جعلت بعضهم يفهم أن الدين الإسلامي كله هو هذه القضايا وهذا خطأ في الفهم ، فإن القاعدة الأصولية أن النكرة في سياق النفي تعم ، أما المعرفة في سياق الإثبات فلا تعم فكون السيد الرسول قال يعلمكم دينكم لا يعني هذا أنه يعلمكم الدين كله كلياته وجزئياته ، وإنما تصدق الكلمة ولو علمنا بعض ديننا ، فلو كان إنسان يقرأ كتاب فقه ، فسألناه ماذا تفعل فقال أدرس الإسلام لكان صادقا مع أن الإسلام أوسع من كتاب فقه أو لو كأن يقرأ باب فقه ، فسألناه ماذا تقرأ فقال أقرأ الفقه ، لكان صادقا مع أنه يقرأ بابا من الفقه ، وكذلك الحديث . ولو تأمل الإنسان الحديث بشكل آخر ، يرى أن الإحسان إيمـان وإن كان أعلى درجاته كما ورد في الحديث «أفضل الإيمان أن تعلم أن الله شاهدك حيثما كنت» وأركان الإيمان الستة داخلة في الشهادتين كما سنرى . فالحديث إذن فصّل الركن الأول من أركان الإسلام بشكل واسع ، والأركان كما رأينا هي جزء الإسلام وليست كل الإسلام .

واذن نفهم من كل ما ذكرنا :

١ ــ أن الإسلام عقيدة تتمثل بالشهادتين وأركان الإيمان .

٢ ــ وأن الإسلام عبادة تتمثل بالصلاة والزكاة والصوم والحج .

وأن هذه وهذهأركان إسلام .

٣ ــ وأن الإسلام بناء يقوم فوق هذه الأركان ، يتمثل بمناهج الحياة في الإسلام : المنهاج السياسي ، والاقتصادي ، والعسكري ، والاخلاقي ، والاجتماعي ، والتعليمي و..

٤ ــ وإن للإسلام مؤيدات هي طريق قيامه . تتمثل بالجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وهذه المؤيدات هي غير المؤيدات الربانية المتمثلة بعقوبة الفطرة ، وعقوبة القهر الإلهي في الدنيا ، والمتمثلة في الجنة والنار في الآخرة .

فالإسلام إذن ــ عقيدة وعبادة ومناهج حياة ومؤيدات .

الاسلام	**مؤيدات** :	الجهاد ــ الأمر بالمعروف ــ النهي عن المنكر ــ حكم وعقوبات.
	بنـــاء	مناهج حياة : ــ منهاج سياسي ــ منهاج اقتصادي ــ منهاج عسكري ــ منهاج تعليمي ــ منهاج أخلاقي ــ منهاج إجتماعي
	أركان	عبادات : ــ صلاة ــ زكاة ــ صوم ــ حج .
		عقيدة : ــ الشهادتان : الإيمان بالله والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر .

٩ - ويقابل الإسلام الجاهلية ، فما من جزء من الإسلام إلا ويقابله جاهلية ، يؤيد هذا قول رسول الله ﷺ لأبي ذر عندما تصرف في قضية تصرفا غير إسلامي : ﴿إنك امرؤ فيك جاهلية﴾ وقوله تعالى ﴿ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾ فالستر إسلام وما قابله جاهلية . وقول عمر ﴿إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية﴾ .

وإنما كان الإسلام بفروعه كلها يقابل الجاهلية ، لأن كل جزء من الإسلام إنما هو أثر عن علم الله المحيط ، وكل ما يقابله من فكر وسلوك إنما هو جاهلية ، لأنه أثر عن محدودية علم الإنسان ، وتغلب أهوائه وشهواته عليه . بحيث يرى الجمال قبحا والقبح جمالا .

فالإسلام هو الكمال المحض ، والجاهلية هي النقص المحض ، والإنسان مخير أن يسلك أحد الطريقين والجزاء أمامه قال تعالى ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا﴾.

وقد يلتبس على بعض الناس أنهم يرون عند من يسيرون على طريقة الجاهلية بعض كمال يظهر في سلوكهم ، أو طريقة حياتهم ، أو في بعض أنظمتهم وتعليل ذلك : انه قد يختلط ما هو من الإسلام بنظام الجاهلية فيظهر حسن ما هو من الإسلام فيه ، فيتعلق الجاهل بهذا النظام كله لجهله بحقيقة الإسلام ، ولو أنه عرف الحق لأدرك أن الإسلام محاسن هذا النظام دون مساوئه ، مع ضم كل حسن إلى هذه المحاسن ، ليتمحض الخير كله في أجمل ما يمكن أن يكون .

ووجود شيء من الإسلام في نظام الجاهلية شيء طبيعي كأثر من آثار العقل الذي أعطاه الله للإنسان ، وأثر عن النفخة الروحية التي جعلت الإنسان خليفة على أرض الله ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ بحيث يستطيع معرفة ما هو طيب وجميل في التمدن الإنساني والحياة الإنسانية ، ولكن كما قلنا سابقا إن القوى الأخرى الموجودة في الإنسان ، وعدم إحاطة العقل بكل شيء تمنع الإنسان من الوصول الكامل إلى كل كمال في الحياة الإنسانية . فالهوى ، والشهوة ، والضعف البشري أمراض لا يسلم منها حتى القليل إلا من استنار بنور الوحي .

ونؤكد مرة ثانية أننا عندما قلنا : إن العقل يرى حسن بعض الأشياء لم نعن أن العقل وحده يستطيع أن يبصر الحسن والخير بحيث لا يشك في ذلك ، قد يبصر ولكنه يبقى محدودا ، والذي يؤكد لنا حقيقة الإبصار أو عدمه هو الوحي . إن الذي يعلم

الخير كله ، والشر كله هو الله وحده . لقد نفخ الله في هذا الإنسان من روحه ، فأصبح الإنسان عنده إمكانية المعرفة ، ولكنها المعرفة الفرعية والمحدودة القابلة للوهم والخطأ ، أما الله فغير محدود ولا يتوهم ولا يخطىء .

وليس كلامنا هذا فيما يقع تحت التجربة ، ويتوصل اليه بالبرهان اذ كلما يقع تحت التجربة ويتوصل إليه بالبرهان يقره الإسلام سلفا وهو إسلام ، وإنما كلامنا في السلوك الإنساني بحيث تنتظم قوانينه وسننه كانتظام سنن الكون .

إن كل عضو من أعضاء الإنسان يستنزف جهود دارس مختص فترة من الزمن ، وانواع الخلايا في كل عضو تستنزف جهود كثيرين ، والنفس البشرية ، والعواطف ، والحياة ، والإحساسات ، والعلاقات ، كل ذلك يحتاج إلى فترة طويلة من الزمان ليصبح الإنسان مختصاً في جزء منها .

وعوامل الوراثة ما يقدم الأب للأبناء ، وعوامل الأرض ، والمناخ ، والمجتمع ، ثم الحياة الاجتماعية في تعقيدها ثم ... ثم .. إن من يدرس فرعا من هذه الفروع لا يستطيع أن يرسم طريقاً كاملا للإنسان كإنسان ، وللبشر كبشر ، ويستحيل أن يحيط إنسان بكل شيء .

ومجموعة المختصين يبقى كل إنسان منهم جاهلا بما عند الآخرين ، فيصدرون حكمهم ويبقى ناقصا ؛ فالله هو الهادي للإنسان ، ومظهر هدايته على الأرض دينه الإسلام الذي تبقى البشرية في ضلال إن لم تعتصم به .

وبعد هذا نقول :

في العقائد إذن إسلام وجاهلية...... وفي العبادات إسلام وجاهلية ......

وفي الأخلاق والآداب إسلام وجاهلية....وفي السياسة إسلام وجاهلية ....

وفي التعليم إسلام وجاهلية ...... وفي الحرب والسلم والاجتماع إسلام وجاهلية ......

وفي كل القوانين إسلام وجاهلية ......

وحيثما كان الحق فهو إسلام ، وحيثما كان الباطل فهو جاهلية ، وحيثما كانت المصلحة فثم شرع الله . وحيثما كان العكس فتلك جاهلية ، والمصلحة الحقيقية للإنسان لا تعرف إلا بشرع الله وجاهلية العقائد والعبادات أخطر أنواع الجاهلية ، لذلك فإن

الله عز وجل قد يغفر لمن تخلق ببعض الجاهلية مع الإعتقاد الصحيح ، ولكنه لا يغفر أبدا حتى لمن تخلق بكل أخلاق الإسلام ما دامت عقائده وعباداته عقائد الجاهلية وعباداتها . « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

والله عز وجل قد أنزل هذا الإسلام كاملا فمن اخذه كله فهو المسلم ، ومن أخذ قسماً وقصر في جزء فقد خلط بين إسلام وجاهلية « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا » فما دام معتقدا بكل الإسلام فهو مسلم إن أتبع السيئة توبة ، فهو إلى خير وإن أصر على السيئة فهو فاسق ولكنه مسلم . والمفروض أن يكون كل مسلم قد تخلى عن أخلاق الجاهلية كلها ، وتحلى بالإسلام كله ، وأن تكون الأمة الإسلامية مظهرا كاملا للنظام الإسلامي ، وأن تحاول إبادة نظام الجاهلية في العالم ، ولكن الإنحراف الخطير الذي حدث في نظام الحكم الإسلامي فأخرجه عن كونه حكما وخلافة على منهاج النبوة ، إلى ملك عضوض قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الخلافة بعدي ثلاثون ثم تكون[1] ملكا عضوضا) . جعل نظام الجاهلية يتسلل إلى الأمة الإسلامية مبتدئا بنظام الحكم (تنقض عرى الإسلام عروة عروة فأولها نقضا الحكم وآخرها الصلاة) .

وبدلا من أن يكون الإسلام هو المهاجِم ليجتث نظام الجاهلية ، فإنه أصبح المهاجَم يحاول نظام الجاهلية اجتثاثه ، وما أكثر الدعوات الجاهلية في أرض الإسلام اليوم وما أكثر ما استجاب لها المسلمون : التبشير والشيوعية ، وفلسفة الإباحة والحزبيات السياسية غير ذات الإتجاه الإسلامي ، والعمالة للكافرين باسم التقدمية ، ومحاربة الرجعية وشعارات من هذا القبيل ، ولم يوجد كل هذا فجأة بل أوجد بحنكة ودهاء . واستطاعت هذه الدعوات الجاهلية أن توجد – كل منها – لنفسها قواعد في كل مكان في العالم الإسلامي وأن يكون لكل منها أتباع من المسلمين أنفسهم .

وساعد على التمكين لهذا كله : ١ – جهل المسلمين بالإسلام ٢ – إنتقال السلطة السياسية إلى المستعمرين أولا ، ثم إلى من يدين بالولاء الفكري أو السياسي أو هما معاً لهم . فكان غزواً جاهلياً منظما ، أدواته كل ما عرف العالم من وسائل الدعاية ، حتى أصبح الإسلام غريبا ، فكان لا بد من كتابة شاملة عنه .

---

١ – وفي رواية : « الخلافة بعدي في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك » رواه أحمد والترمذي وأبو يعلى وابن حبان عن سفينة وهو صحيح .

ولهذا فسنكتب في هذا البحث أربعة فصول :

١ – الفصل الأول – أركان الإسلام .

٢ – الفصل الثاني – المنهاجان الإجتماعي والأخلاقي في الإسلام .

٣ – الفصل الثالث – المناهج العامة .

٤ – الفصل الرابع – مؤيدات الإسلام .

من أجل أن يتضح الإسلام كله ، وتصبح صورة المسلم عنه كاملة ، بحيث يعيه وعيا صحيحا ، فيعلم أن هذا الإسلام لا يقبل شركة ، ويعلم من هو المسلم كل المسلم ، ويعلم كيف يجعل سلوكه في الحياة جميعا إسلاميا ، ويعلم ما يترتب على هذا السلوك ، وماذا يترتب على انحرافه عنه ، ويعلم بعد هذا كله ماهية التكليف الذي كلف الله به عباده بعد أن عرف في البحثين السابقين المكلف وهو الله ومبلغ التكليف رسول الله ﷺ .

وإنما جعلنا المنهاج الإجتماعي ، والمنهاج الأخلاقي في فصل واحد لارتباطهما ببعضهما ، وجعلنا المنهاج السياسي والعسكري والتعليمي والمالي وغيرها في فصل واحد لعدم انفكاك قضايا الحرب والثقافة والمال عن المنهاج السياسي . أما فصل المؤيدات فقد تحدثنا به عن المؤيدات الغيبية المتمثلة بالعقوبات الربانية في الدنيا والآخرة وعن المؤيدات الفطرية ، ونرجو ألا تنتهي من دراسة هذا البحث إلا وقد استكملت جوانب من المعرفة بدين الله وشريعته وجمعت إلى ذلك سلوكا مستقيما وعملا صالحا .

الفصل الأول

الأركان

إن الأركان الخمسة هي الأسس العملية والنظرية للإسلام كله ، فالشهادتان هي الأساس العملي والنظري لكل ما عداها من الإسلام فما لم يشهد الإنسان أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسوله لا يلتزم بالاسلام ولذلك كانت الشهادتان الركن الأول لأنها اساس لأركان الإسلام من ناحية واساس للاسلام كله من ناحية أخرى ، أما الأركان الأربعة الأخرى فكل منها أساس لجانب من جوانب الإسلام . فالصلاة هي الأساس العملي والنظري للجانب العبادي كله ، فالله عز وجل اهل العبادة وحده وقد شرع لنا أن نعبده بالذكر والدعاء وقراءة القرآن ، والذكر منه التسبيح ، والتمجيد ، والاستغفار وكل هذه المعاني تجدها في الصلاة المفروضة فلا تستقيم عبادة الإنسان لله إلا إذا كان يقيم الصلاة، إذ هي الركن الذي تدور حوله شئون العبادة . والزكاة هي الأساس العملي والنظري للجانب المالي في الإسلام . فالمال في الإسلام مال الله والإنسان مستخلف فيه ، فعليه أن يأخذه بالطريق الذي حده الله ، وينفقه في الطريق الذي حده الله . والزكاة هي الأساس العملي والنظري لهذه الجوانب كلها في شئون المال ، فما لم يستسلم الإنسان لله بالزكاة لن يسلم لله في بقية جوانب جمع المال وإنفاقه . والصوم هو الأساس العملي والنظري لجانب ضبط النفس على أمر الله في الإسلام . فالله عز وجل جعل مدار دخول الجنة على موضوع ضبط النفس فقال﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾ وقال ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾ وضبط النفس يشمل ضبطها عن شهواتها المحرمة ، وعن نزواتها الباطلة ، ويشمل ضبطها على

الأخلاق العظيمة الطيبة ، ويشمل ضبطها على أمر الله كله . والصوم هو الأساس العملي والنظري لهذا كله ، إذ هو فطم للنفس عن أهم شهواتها التي هي مباحة في الأصل ، لتتدرب النفس بعد ذلك على الإنضباط في بقية الشئون . والحج هو الأساس العملي والنظري لجانب بذل الجهد والمال في سبيل الله خالصا ، إذ جعل الله عز وجل الجهاد بالنفس والمال من فرائضه ، والحج مران عملي ، على هذا وقد أشار الرسول عليه الصلاة والسلام إلى هذا بقوله : (لكن أفضل الجهاد حج مبرور) كما أن الحج هو الأساس العملي والنظري للمنهاج السياسي الإسلامي الذي مظهره أن المسلمين أمة واحدة كما أن الحج هو الأساس النظري والعملي لاستسلام الإنسان لله ، ولو لم يعرف حكمة الأمر والنهي ، فالحج رمز على هذا الاستسلام العملي لله فيما أمر ونهى بصرف النظر عن معرفة الحكمة من الأمر والنهي .

وكل ركن من هذه الأركان يخدم بقية الأركان في تحقيق جوانب الإسلام . فالحج عبادة من أعلى العبادات ، والصوم كذلك ، والزكاة كذلك ، وكلها تخدم قضية شعور المسلم بأخوته لبقية المسلمين ، وكلها تخدم قضية ضبط النفس ، وكلها تخدم قضية الاستسلام لله ، دون نقاش ، أو تذمر ، أو معرفة للحكمة .

وهي كلها تربط الإنسان بالجوانب الكاملة لبناء الإسلام ، لذلك لا يستطيع المسلم أن يتصور قيام بناء الإسلام دون قيام أركانه ، فالبناء يستمد قوته من قوة أساسه ، فكلما كان الأساس أقوى كان البناء أشد إحكاماً ، وكلما كان الأساس منهاراً كلما ساعد هذا على إنهيار البناء . لذلك كانت القاعدة في التربية الإسلامية ، إحكام أمر الأركان ليبنى عليها بناء الإسلام كله بعد ذلك ، وإنها لظاهرة غير منطقية محاولة إحكام أمر البناء بلا أركان ، أو إحكام أمر الأساس ثم لا يبنى عليه بناؤه الذي كان الأساس أساساً من أجله .

لذلك جعلنا الفصل الأول في هذه الدراسة دراسة الأركان ، ثم أتبعناها بدراسة بقية جوانب الإسلام ، وها نحن نبدأ بدراسة الأركان ركناً ركناً :

الركن الأول : الشهادتان

(أ) نظرة تحليليـة :

١ ــ قال عليه الصلاة والسلام : (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان عليه من العمل) .

وفي رواية (من شهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله تعالى جسده على النار) وقال : (أتاني جبريل فبشرني أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة قلت : وان زنى وإن سرق ؟ قال وإن زنى وإن سرق قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال وإن زنى وإن سرق ثم قال في الرابعة : على رغم أنف أبي ذر) .

وقال : (ثنتان موجبتان فقال رجل : يا رسول الله ما الموجبتان ؟ قال : من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار ومن مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة) .

٢ ــ مما سلف نعلم أهمية هذا الركن بالنسبة للإسلام كله ، فإذا كان الإسلام لا يقوم بلا أركان ، فإن الإسلام وأركانه الأربعة لا يقوم بلا شهادتين ، بل لا يكون موجوداً أصلاً ، فالشهادتان بالنسبة للإسلام كله ، كالروح بالنسبة للجسد ، فكما أن كل ذرة من ذرات الجسد لا تكون بها حياة إلا بالروح ، فكذلك لا إله إلا الله محمد رسول الله هي حياة كل جزء من أجزاء الإسلام ، فأي عمل يعمله الإنسان من الإسلام لا يكون نابعاً من هذا الأصل يعتبر ميتاً ، وهو في ميزان الله معـــدوم . ولذلك فإن الكافرين لا قيمة لأعمالهم عند الله ولو كانت صالحة ، لأنها ميتة . يقول الله تعالى :

« وقدِمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءاً منثورا » وحتى المسلم إذا عمل عملاً مهما كان صالحاً ، ولم يكن عمله فيه روح الشهادتين ، فإنه يكون غير مقبول (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله،ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه). (من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة) .

٣ – قال تعالى مادحاً صحابة رسول الله ﷺ « وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها » وكلمة التقوى هي الشهادتان ، وبدونها فلا تقوى ولا قبول عمل « إنما يتقبل الله من المتقين » لذلك كان أعظم ما نحرص عليه ، وأعلى ما نحاول الإتصاف به ، وأهم ما نتعب في سبيل تحصيله ، وأجمل ما نعلم ، هو أن نحقق أمر الله في هذه الكلمة « فاعلم أنه لا إله إلا الله » فإذا ما تحققنا بها ، واستقرت عليها قلوبنا ، كان من آثار ذلك كل ثمر طيب «كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها » .

٤ – وهاتان الشهادتان لا تنفصل إحداهما عن الأخرى ،إن شهادة أن لا إله إلا الله تتممها شهادة أن محمداً رسول الله ، إذ شهادة لا إله إلا الله كما سنرى تقتضي سلوكاً معيناً ، ومعاني معينة ، ولها حقوق ، وعلى صاحبها واجبات ، ولصاحبها جزاؤه ، وعلى تاركها عقابه ، وهذا كله لا يعرف إلا بواسطة الرسول الذي قامت كل الأدلة الصحيحة المعقولة والمنقولة على أنه رسول الله حقاً ، لذلك كان التلازم كاملاً بين شهودي لا إله إلا الله وشهودي أن محمداً رسول الله ، ويتضح هذا أكثر إذا عرفنا معنى (أشهد ألا إله إلا الله) .

٥ – مادة كلمة الإله في اللغة (الألف واللام والهاء) وقد جاء في معاجم اللغة من هذه المادة ما يلي :

ألهت إلى فلان	: إذا سكنت إليه واطمأننت
أله الرجل يأله	: إذا استجار
أله الرجل إلى الرجل	: إتجه إليه لشدة شوقه
أله الفصيل بأمه	: إذا ولع بها

أله إلاهة وألوهة : عبـــد

لاه يليه ليها : إذا احتجب

والقاعدة في اللغة العربية أن الكلمات ذات المادة الواحدة ، يكون فيما بينهـــا ترابط ، ولو أننا تأملنا مدلولات المادة السابقة ، فإننا نجد الترابط واضحاً فيما بينها ، فأنا لا أستجير إلا بمن أسكن إليه وأحبه وأعتبره أقوى مني ، بحيث يقدر على إجارتي ؛ وعلى هذا فالإله يُسكن إليه ويطمأن ، ويستجار به ، ويستعاذ به ويحب ويشتاق إليه ويعبد ، وهو محتجب ، فإذن فنحن عندما قلنا : لا إله إلا الله دخل في ذلك ضمناً معان معينة : فكأنني قلت : لا مطمأن إليه ، ولا مستجار به ، ولا محبوب ، ولا معبود ، إلا الله . وفعلاً فإن القرآن علمنا أن هذه المعاني كلها من خصائص الذات الالهية فقال :

١ ــ « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » .

٢ ــ « وإنه كان فريق من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً » « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » .

٣ ــ « والذين آمنوا أشد حباً لله » « يحبهم ويحبونه » وحب رسول الله يأتي تبعاً لحب الله بإذنه (أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه وأحبوني لحب الله إياي وأحبوا آل بيتي لحبي) .

٤ ــ « أفغير الله تأمروني أعبد أيُّها الجاهلون ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » .

* * *

وإذا كانت من معاني كلمة الإله /المعبود / وهو المعنى الأساسي فيها ، فماذا تعني هذه الكلمة : إن مادة عبد في اللغة هي (العين والباء والدال) ويأتي منها :

١ ــ العبد هو المملوك وهو خلاف الحر ، وقد ورد في القرآن « وتلك نعمة تمنها علي أن عبّدت بني إسرائيل » أي إتخذتهم عبيدا .

٢ ــ العبادة هي الطاعة مع الخضوع وقد ورد في القرآن « ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان » أي الا تطيعوه « وقومهما لنا عابدون » أي خاضعون مطيعون .

٣ ــ المعبد هو المكرم المعظم قال الشاعر (أرى المال عند الباخلين معبدا) .

٤ ــ عبد به : لزمه فلم يفارقه .

٥ — ما عبدك عني : ما حبسك عني .

ولو أنك تأملت هذه المعاني المختلفة لهذه المادة ، فإنك تجد الترابط التام بينها ، فلا يحبس إلا من يستعبد نوع عبودية ، ومن استعبدت له لزمته وعظمته وأطعته ، وخضعت له وتنازلت له عن كثير من حريتي ؛ فصارت كلمة المعبود تتضمن معاني : المالك المطاع المعظم المستمسك به . فعندما قلت : لا معبود إلا الله أي لا مالك لي ولغيري ، ولا مطاع ولا معظم ومستمسك به إلا الله ، وإذا تأملنا القرآن وجدنا فعلاً أن من خصائص الذات الإلهية هذه المعاني :

١ — « قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس » « ولله ملك السموات والأرض ».

٢ — « قل أطيعوا الله والرسول » وطاعة الرسول طاعة لله على الحقيقة « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

٣ — « وهو العلي العظيم » .

٤ — « اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » .

* * *

والعبودية تقابلها الربوبية ، والمعبود هو الرب الاله « قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس » فماذا تعني كلمة الرب : إن مادة كلمة الرب في اللغة الراء والباء المضعفة ويأتي منها هذه الاستعمالات :

١ — رب الولد ورب الضيعة : إذا رباه ، وأصلح شأنه ، أو تعاهدها وأصلح أمرها ورعاها .

٢ — رب فلان قومهم ، وربيت القوم : إذا حكمتهم وسستهم فانقادوا لك واجتمعوا عليك ومنه (فلان يرب الناس) أي يجمعهم ويسمى مكان الاجتماع (المرب). يقول النابغة :

(تخب إلى النعمان حتى تناله فدى لك من رب تليدي وطارفي)

٣ — (رب الدار ورب الإبل : أي صاحبها ومالكها ومنه الحديث : أرب غنم أم رب إبل ؟ أي أمالك ..؟ ويلاحظ الترابط بين هذه المعاني ، فالمالك يسوس ، ويتعهد ويصلح ويربي ، والمربي له سلطان وسيطرة ونوع ملك .

وبالنسبة للذات الإلهية ، فالله على الحقيقة هو مالك كل شيء ، وهو السيد ، والحاكم ، وليس لغيره من سيادة ولا حاكمية ، وهو خلق وربى ، وأصلح شأن الكون ويرعاه .

وإذا تأملنا القرآن نجد أن القرآن ذكر أن هذه كلها خصائص الذات الالهية : « ألا له الخلق والأمر »« إن الحكم إلا لله » « الحمد لله رب العالمين » « قال فرعون وما رب العالمين قال : رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم توقنون » .

* * *

من هذا التحليل يتبين أن المسلم عندما قال (لا إله إلا الله) فكأنه قال : لا مطمأن إليه ، ولا مستجار به ، ولا محبوب ولا معبود ، ولا مالك ولا مطاع ، ولا معظم ولا معتصم به ، ولا سيد ولا حاكم إلا الله . فالتوكل عليه واجب ، والاستجارة بغيره باطلة ، ومحبته فريضة ومحبة غيره لا تكون إلا بإذنه ؛ ومعاني العبادة والعبودية لا تقدم إلا له ، وهو مالكي وحده ، فلا أطيع غيره إلا باذنه ، وهو المستحق للتعظيم ، فيه أعتصم ، وهو الذي له حق السيادة المطلقة على البشر ، والحاكمية المطلقة عليهم ، فهو مصدر الأمر والنهي ، وهو مصدر التحليل والتحريم ، وهو مصدر التشريع فلا سلطة تشريعية إلا له ، فهو ذو الجلال والكمال جل جلاله وسبحانه ولا إله غيره .

وأي إخلال بواحدة من هذه ، بحيث يعطيها الإنسان لغير الله بدون إذنه جهل بما لله من حق . « قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » .

* * *

وبعد أن عرفنا معنى لا إله إلا الله يبقى أن نعرف معنى كلمة : أشهد .

أشهد في اللغة تأتي على ثلاثة معان وقد استعملها القرآن بكلٍ من المعاني الثلاثة فهي تأتي :

١ – من المشاهدة وقد استعملها القرآن بهذا المعنى فقال : « يشهده المقربون » .

٢ – من الشهادة وقد استعملها القرآن بهذا المعنى فقال « وأشْهِدُوا ذَوَيْ عدلٍ منكم » .

٣ – من الحلف وقد استعملها القرآن بهذا المعنى فقال : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنلك لرسول الله والله يعلم إنلك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون اتخذوا أيمانهم جنة » فاعتبر كلمتهم نشهد يميناً وقال فقهاء الحنفية من قال : أشهد فقد حلف . وفيما بين هذه المعاني ترابط تام : فالإنسان يحلف إذا شهد ويشهد إذا شاهد وفي الحديث (على مثل الشمس فاشهد أو دع) .

وعلى هذا فشهادة الإنسان أنه لا إله إلا الله لا تعتبر إلا باستجماع هذه المعاني :

١ ـ مشاهدة أنه لا إله إلا الله بالعقل والقلب .

٢ ـ الشهادة على هذا باللسان .

٣ ـ أن تكون الشهادة جازمة لا تردد فيها . فيها جزم على ما يحلف عليه فمن لم يشهد بلسانه أنه لا إله إلا الله عناداً وكبراً فهو كافر . ومن لم يشاهد عقله وقلبه أنه لا إله إلا الله أو كان متردداً في ذلك فهو منافق إن نطق بالشهادتين بلسانه ، وكافر إن لم ينطق .

٦ ـ ولا يقوم الإنسان بلوازم لا إله إلا الله إلا إذا عرف رسوله ، وتعرف بواسطة رسوله على الطريق الذي ينبغي أن يسلكه لتحقيق لوازم هذه الوحدانية ، وبدون ذلك يبقى الإنسان في متاهات الضلال الكبير البعيد الذي لا يعرف معه سيراً ينسجم مع وضعه ، ويصل به إلى الغاية مبتدئاً من بداياتها الصحيحة . لذلك كانت معرفة الرسول تعدل معرفة الله ، إذ لا يقوم أحد بحق الله ، إلا إذا عرف رسوله ، ولذلك حكم الله بكفر من لم يؤمن بالرسول الذي يرسله للناس بعد ان أقام الحجة على الناس برسالته « إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقاً » .

ولذلك كان شعار الإسلام : أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . ولا غني واحدة منهما عن الأخرى .

وقد رأينا في البحثين السابقين (الله) و (الرسول) الأدلة الكثيرة التي دلتنا على الله وصفاته العليا وعلى الرسول ﷺ وعلى كونه رسول الله حقاً ، وكتبنا الفصول الكثيرة لهذا من أجل أن يطمئن عقل الإنسان وقلبه بمشاهدة أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فيقولها لسانه بعد اقتناع قلبه ، ويقوم بلوازم ذلك عن ارتياح .

* * *

هاتان الشهادتان يستتبع الإيمان بهما ، والنطق بهما ، الإيمان بالغيب الذي أخبرنا عنه اللهُ بواسطة رسوله . والذي أمهاته :

الإيمان : بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر ، وهذه الستة يطلق عليها أركان الإيمان وهي كلها داخلة ضمناً بالشهادتين ، فمن التزم بالشهادتين كان التزامه بها في الحقيقة التزاماً بكل أركان الإيمان الأخرى ، ولذلك يكتفى من الإنسان

إذا أراد الدخول بالإسلام أن يقول أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ويعتبر بذلك من المؤمنين إن كان صادقاً ، مع أنه لم يتلفظ بكل أركان الإيمان وما ذلك إلا لأن أركان الايمان كلها داخلة في الشهادتين وتفصيل ذلك :

أن : أشهد ألا إله إلا الله ، ذكرت صراحة الركن الأول من أركان الإيمان وهو الإيمان بالله .

أن : أشهد أن محمداً رسول الله ذكرت صراحة الإيمان بالرسول ، والإيمان بالرسول يقتضي أن نؤمن بكل رسول لله أخبرنا عنه هذا الرسول الصادق ، فدخل الركن الثاني من أركان الإيمان بذلك وهو الإيمان بالرسل .

ومن آمن بالله والرسل آمن بالملائكة الذين أخبر عنهم الرسل ومنهم الواسطة بين الله والرسل في تبليغ أمر الله ووحيه .

ومن آمن بالله والرسل والملائكة آمن بالوحي ، ومن آمن بالوحي آمن بالكتب .

ومن آمن بالله والرسل والملائكة والكتب آمن باليوم الآخر ، لأن وجود اليوم الآخر فرع عن الإيمان بقدرة الله وعدله وفضله ، وقد أخبرنا عنه الرسل ، وذكر بالكتب ، والايمان بالقدر فرع الإيمان بالله فمن آمن بعلم الله الأزلي وإرادتـــه التي خصصت الأشياء بالوقوع ، وقدرته التي أبرز بها الأشياء ، وكون ذلك قد كتب في كتاب فقد آمن بالقدر .

ولما كان الإخلال بركن من أركان الإيمان إخلالاً بالشهادتين أصلاً ، ولما كان جودة الفهم لمضامين هذه الأركان يؤثر على جودة الفهم للشهادتين كان لا بد أن نتحدث عن هذه الأركان حديثاً يوضح بعض نواح فيها فنقول :

١ — إن بعض المفسرين ذهب إلى أن المقصود بقوله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب » هو الإيمان بأركان الإيمان الستة ، على اعتبار أن مرجع أمر الغيب كله إليها . فلو قال قائل : إن الله والملائكة واليوم الآخر والقدر غيب ، أما الكتب والرسل فليسا كذلك ، فكيف اعتبرنا الإيمان بهما إيماناً بغيب ؟ فالجواب : إننا اعتبرنا الإيمان بالرسل من الإيمان بالغيب من حيث إتصال الوحي بهم ، وهو غيب ، وصفة الرسالة لا تقوم إلا به ، فإيماننا بهذه الصفة إيمان بغيب ، واعتبرنا الإيمان بالكتب من الإيمان بالغيب من حيث الإعتقاد بأنها منزلة عليهم من الله وذلك أمر غيبي .

ولو قال قائل : إن الغيوب أكثر من ذلك فالجواب: مرجع كل الغيوب إلى هذه الأمهات ، فالإيمان بمعجزات الرسل السابقين، فرع الإيمان بالقرآن والإيمان بالجن فرع الإيمان بالقرآن ، والإيمان بالسموات السبع التي فيها الملائكة والجنة والبيت المعمور وسقفها العرش ، وإليها تصعد ارواح المؤمنين ، وإليها عرج برسول الله ﷺ فرع الإيمان بالقرآن كذلك ، والإيمان بعالم البرزخ بعد الموت ، فرع الإيمان باليوم الآخر وهكذا فما من غيب إلا وهو راجع الى هذه الأركان الستة .

٢ ـ هذه الأركان الستة ذكرها الحديث الصحيح حديث جبريل عن الإيمان والإسلام والإحسان والذي مر معنا في المقدمة .

وقد ذكرها القرآن كذلك ، ذكر خمسة منها مجتمعة في أكثر من مكان ، وذكر السادس منفرداً في اكثر من مكان قال تعالى : « ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين » « ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيدا » « إنا كل شيء خلقناه بقدر » « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير » « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » « وكل شيء أحصيناه في إمام مبين » . ولعل السبب في ذكر الأركان الخمسة وحدها في الآيتين دون ذكر القدر لأن القدر داخل في الإيمان بالله ، إذ معنى القدر على الحقيقة : علم الله القديم بما هو كائن ، وتخصيص الإرادة الإلهية لهذه الكائنات بالوقوع ، وإبراز القدرة ما تعلقت به الإرادة ، وكتابة هذا كله في اللوح المحفوظ الذي هو كذلك من عالم الغيب ، الله أعلم بنوعيته ؛ وإذن فمرجع الإيمان بالقدر إلى الإيمان بالله ، ومع أنه داخل في الإيمان بالله ، فقد ذكر وحده في آيات كما رأينا .

٣ ـ والإيمان هذا لا يقبل التجزئة ، فمن كفر بركن منه فقد كفر بالكل ، ومن كفر بمضمون قطعي في ركن فقد كفر بالكل : فلا بد من إيمان بالله : « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى » « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب » .

ولا بد من الإيمان بالرسل « إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا » . (والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة

يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار) ولا بد من إيمان بالملائكة قال تعالى « والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته ».« قل من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين » .

ولا بد من الإيمان بالكتاب « ومن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها » وقال « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء » .

ولا بد من إيمان باليوم الآخر « وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ولو ترى إذ وُقِفُوا على ربهم قال : أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » .

ولا بد من إيمان بالقدر قال عليه السلام : (لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتّى يؤمن بالقدر) وقال (لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره) وإذاً فلا بد من ايمان بمجموع الأركان الستة فمن جزّأ كفر .

٤ — وكما أن أركان الإيمان لا تقبل التجزئة فإن لكل ركن شمولاً ، وله تفصيلات لا يعتبر الإيمان إيماناً إلا إذا صدق بها كلها : فالإيمان بالله يشمل الإيمان بوجوده ، وصفاته ، وأسمائه ، وأفعاله ، على الوجه المراد له ، من تنزيه وكمال قال تعالى « فاعلم أنه لا إله إلا الله » . « ألم يعلم بأن الله يرى » « إعلموا أن الله بكل شيء عليم » « إعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم » « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه » « الله خالق كل شيء » « كل يوم هو في شأن » « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » .

والإيمان بالملائكة : يشمل الإيمان بصفاتهم : من حيث انهم لا ذكور ولا إناث ، وقد خلقوا من نور ، فهم أجسام . نورانية ، لا يأكلون ولا يشربون ، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون . وبمن ذكر منهم تفصيلاً ، كجبريل ، وميكال ، وملك الموت ، ونافخ الصور ، وحملة العرش ، وخازن النار ، والحفظة والزبانية .. وبالباقي إجمالا .

وبوظائفهم من تبليغ للرسل ، أو كتابة لأعمال الإنسان ، أو كتابة رزقه وأجله ، وشقاوته وسعادته ، وسؤال الميت في قبره ، وقبض الأرواح ، والنفخ في الصور ، وحراسة ابن آدم ، وعبادة وحضور المساجد وأماكن العبادة ، ومجالس الخير والذكر ، إلى غير ذلك من وظائف الموكلة لبعضهم ، مما هو مفصل في الكتاب والسنة .

والإيمان بالكتب : يشمل الإيمان بأفرادها والصحف : صحف إبراهيم ، وتوراة موسى ، وزبور داوود ، وإنجيل عيسى ، وقرآن محمد ﷺ ثم يكون القرآن ناسخاً لها ، ثم يكون كله حقاً لا باطل فيه ، ثم بكونه لم يغير منه حرف ، ولم يبدل ، فهو هو الذي أنزل على محمد ﷺ الموجود الآن بين أيدينا ، فلا تبديل ، ولا تغيير ، ولا زيادة ، ولا نقصان ، مع الإعجاز ، ثم تحريم ما حرم ، وتحليل ما أحل ، ثم اعتقاد الهدى فيه ، والضلال في غيره إن كان مخالفاً لمضمونه ، فأنظمته هي الحق الذي لا حق غيره ؛ سواء في ذلك العقائد ، أو العبادات ، أو مناهج الحياة ، أخلاقاً وتشريعاً ، وآداباً ، ثم إن الغيوب التي أخبرنا عنها حق . من جن ، إلى ملائكة ، إلى سموات إلى جنة إلى نار إلى رسل ، إلى معجزات ، إلى يوم آخر ، إلى ساعة إلى ... ثم الإيمان بالسنة إذ أنها موضحة القرآن ومبينته ، ولا يفهم القرآن تفصيلاً إلا بها ، ويستتبع ذلك أن نفهم الكتاب والسنة ضمن الحدود التي حدتها نصوص الكتاب والسنة ، وأجود فهم للكتاب والسنة فهم المجتهدين في الأمة الإسلامية لسعة علمهم ، ثم الإيمان بأن القرآن هو كتاب الهداية الربانية إلى قيام الساعة ، وأي طلب للهدى أو الحق أو الخير أو العدل في غيره ومن غيره ضلال وردة وكفر .

والإيمان بالرسل : يشمل الإيمان بهم تفصيلاً إذا فصل القرآن ، وإجمالاً إذا أجمل ، ثم الإيمان بصدقهم وعصمتهم وفطانتهم وتبليغهم : وكونهم صادقين يعني أن كلامهم هو الأساس الذي يقاس عليه غيره ، وغيرهم إذا خالفهم كاذب ، وكونهم فطناء يعني أنهم المثل الأعلى في العقل ، وكل خروج عن الاقتداء بهم إنحطاط عقلي .

والإيمان باليوم الآخر : يشمل الإيمان بأشراط الساعة ومقدماتها من تغير بعض الظواهر الكونية ، أو ظهور خوارق للعادات على يد الدجال الذي يدعي الألوهية ، أو مجيء يأجوج ومأجوج إلى الأرض المقدسة ، كما يشمل الإيمان بالبرزخ بعد الحياة الدنيا ، كما يشمل الإيمان بالساعة ، ونفخة الصور ، الأولى والثانية ، والجنة والنار ، إلى آخر ما ذكر في الكتاب والسنة في هذا الموضوع .

ثم لهذا الإيمان حد أدنى هو التصديق الذي لا شك فيه ولا شبهة ، بل هو جزم ، وما لم يكن كذلك فلا إيمان ، إذ أن الله وصف المؤمنين فقال « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا » فإذا كان ريب فذلك النفاق قال تعالى « في قلوبهم مرض » عن المنافقين ، وقد فسر المرض بالشك ، وهذا الجزم يجب أن يكون في جميع أفراد المؤمن بهم كما مر في الفقرة السابقة .

ونحب أن نذكر هنا أن المقصود بالشك غير الوسوسة ، فالشك نفاق وكفر ، والوسوسة إذا ألقاها الشيطان ورفضها قلبنا ، فلا قيمة لها . ومثال ذلك رجل قال لمؤمن ياكافر أو دعاه إلى كفر فإن مجرد هذا لا يؤثر على إيمان المؤمن إلا إذا استجاب للدعوة ، وكذلك إلقاء الشيطان ، فإنه لا قيمة له ما دام القلب مطمئناً بالإيمان ، وعلى هذا نفهم حديث أبي هريرة (إن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوه : إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال : أوقد وجدتموه ؟ قال : نعم قال : ذلك صريح الإيمان وفي رواية الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة) وكذلك نفهم حديث ابن مسعود : قالوا يا رسول الله إن احدنا ليجد في نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة أو يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به قال ذلك محض الإيمان ، ولعله كان صريح الإيمان ومحض الإيمان لأن القلب كرهه واشمأز منه ومثل هذه الحالة دليل على حياة القلب ، إذ إحساس القلب بالوسوسة وكراهيته لها علامة على صحة هذا القلب « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » . وإذن حالة الوسوسة تختلف عن حالة الشك التي تتنافى مع الإيمان ، والتصديق الذي هو الحد الأدنى الذي لا يقبل الله الانسان بدونه .

٥ — وفوق الحد الادنى الذي لا يقبل الله الإنسان بدونه درجات يتفاوت الناس فيها ، وبقدر ارتفاع الانسان في هذه الدرجات تكون تقواه أكثر كمالاً . وهذه أمثلة توضح تفاوت الناس في درجات الإيمان في كل ركن من أركانه :

أ — أدنى درجات الإيمان بالله التصديق ، ثم الأعلى من هذا ، الشعور بالذات الإلهية وصفاتها والاقبال عليها (أفضل الإيمان أن تعلم أن الله شاهدك حيثما كنت) (اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنك يراك) وأوضح ما يكون الإيمان بأسماء الله عندما يكون الإنسان متحققاً بهذه الأسماء ؛ فمن كان في قلبه رحمة عرف اسم الله الرحيم أكثر ، هذا مع ملاحظة أن رحمة الله ليس كمثلها شيء ، وعندما يكون الإنسان كريماً يكون أقرب إلى معرفة اسم الله الكريم ، هذا مع ملاحظة الفارق بين المقامين ، وفارق كبير بين اثنين أحدهما يذكّره كل شيء في الله « فانظر إلى آثار رحمة الله » « ألم ترَ أن الله أنزل من السماء ماءاً » والآخر لا يتذكر الله إلا لماما .

ب — والإيمان بالملائكة حده الأدنى التصديق ، وقد تصفو قلوب بعض الناس فيرون ما آمن به الآخرون غيباً « إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك

واصطفاك على نساء العالمين » عن أسيد بن حضير قال : (بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده إذ جالت الفرس فسكت فسكنت فقرأ فجالت فسكت فسكنت ثم قرأ فجالت وكان ابنه يحي قريباً منها فانصرف فأخره ثم رفع رأسه إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال وتدري ما ذاك؟ قال : لا قال : تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت ينظر إليها الناس لا تتوارى منهم) أخرجه البخاري . وعن البراء (كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوطة بشطنين فتغشته سحابة فجعلت تدنو وجعل فرسه ينفر منها فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر له ذلك فقال : تلك السكينة تنزلت للقرآن) أخرجه الشيخان .

وعن حنظلة بن الربيع الأسيدي كاتب رسول الله ﷺ قال (لقيني أبو بكر فقال : كيف أنت ؟ فقلت : نافق حنظلة فقال : سبحان الله ما تقول ؟ فقلت : نكون عند النبي ﷺ يذكرنا بالنار والجنة كأنا رأي عين فإذا خرجنا من عنده عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيراً قال : والله إني لأجد مثل هذا فانطلقا إلى رسول الله ﷺ وذكرا له ذلك فقال : والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات) أخرجه مسلم والترمذي (المعافسة : المعالجة والممارسة والملاعبة) .

فهذه حالات يصفو بها الإيمان ويرتفع إلى درجة الشهود ، ويأتي بعد ذلك شعور واستحياء ، ومعرفة ومراعاة لطبيعة الملائكة .

جـ ــ والايمان بالكتب أدناه ما رأينا من تصديق وشمول ، ويأتي بعد ذلك مقامات قال تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به » « وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً » « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأُخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » «إن الذين أوتوا العلم من قبلهم إذا يتلى عليهم يخرون سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا » . فالناس مع كتاب الله يتفاوتون ، فبعضهم يقرأ ويتأثر وكأنه يتلقاه عن الله وحياً ، ويعمل وكأنه مخاطب به وحده ؛ وآخرون ليسوا كذلك ولكل مقام .

د – وأدنى الإيمان بالرسل ما رأيناه ، وبعد ذلك يتفاوت الناس ، فمن إيمان يملأ القلب مع الحب والإعجاب والتعظيم والتأسي لدرجة تذوب معها الشخصية لتفنى بشخصية السيد الرسول ﷺ إلى أقل من ذلك (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين) وفي رواية (أحب إليه من ماله وأهله) .

هـ – والإيمان باليوم الآخر كذلك فمن المؤمنين من يعيش في اليوم الآخر دائماً ، ذكرى ، وتحسساً ، ومحاسبة لنفسه ، وصوغاً لحياته كلها بما يتفق مع مواقفه التي أخبرنا عنها الرسول الصادق الأمين ، فيزهد في الدنيا ، ويقبل على الآخرة إقبال من لا يرى غيرها ، وفي حياة الرسول ﷺ والصحابة مثل كامل لمن أراد أن يعرف أهل الآخرة المؤمنين بها ، ثم الناس بعد ذلك درجات .

و – ويتفاوت الناس كذلك في الإيمان بالقدر ، فمنهم من يحقق الحكمة فيه « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » فيرضى عن الله في كل حال ، ويتوكل على الله في كل أمر شعاره « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا » مطمئن على رزقه ، مطمئن على أجله ، لا يخشى في الله شيئاً : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .

ز – والحقيقة أن هذه الدرجات العالية من الإيمان أو الأقل منها ، كلها ترجع إلى مقدار جزم الإنسان بالشهادتين ، وعمق الإيمان بها في قلبه ويقينه ، فكلما كانت الشهادتان أكثر تمكناً في القلب ، كلما ارتفعت درجات الإيمان بأركانه كلها .

والحقيقة كذلك أن كل أعمال الإيمان والإسلام إنما هي لتحقيق الشهادتين في قلب المسلم ، شعوراً وإحساساً لذلك كانت الشهادتان بداية الإسلام ونهايته، ولذلك ورد في الحديث : (من شهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله جسده على النار)

* * *

(ب) من مضامين و آثار (لا إله إلا الله محمد رسول الله) .

١ – إن لا إله إلا الله محمد رسول الله ينبع عنها منهج للحياة . يقول صاحب معالم في الطريق تحت عنوان : لا إله إلا الله منهج حياة ما يلي :

العبودية لله وحده هي شطر الركن الأول في العقيدة الإسلامية المتمثل في شهادة أن لا إله إلا الله . والتلقي عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في كيفية هذه العبودية

ـ هو شطرها الثاني ، المتمثل في شهادة أن محمداً رسول الله .

والقلب المؤمن المسلم هو الذي تتمثل فيه هذه القاعدة بشطريها ، لأن كل ما بعدهما من مقومات الإيمان وأركان الإسلام إنما هو مقتضى لهما . فالإيمان بملائكة الله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وكذلك الصلاة والزكاة والصيام والحج . ثم الحدود والتعازير والحل والحرمة والمعاملات .. والتشريعات والتوجيهات الإسلامية .. إنما تقوم كلها على قاعدة العبودية لله وحده ، كما أن المرجع فيها كلها هو ما بلغه لنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ربه .

والمجتمع المسلم هو الذي تتمثل فيه تلك القاعدة ومقتضياتها جميعاً ، لأنه بغير تمثّل تلك القاعدة ومقتضياتها فيه لا يكون مسلماً . ومن ثم تصبح شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيرها ، فلا تقوم هذه الحياة قبل أن تقوم هذه القاعدة كما انها لا تكون حياة إسلامية إذا قامت على غير هذه القاعدة أو قامت على قاعدة أخرى معها أو عدة قواعد أجنبية عنها : « إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم) ... ـ (يوسف : ٤٠) ـ « من يطع الرسول فقد اطاع الله » .. ـ (النساء : ٨٠) ـ . هذا التقرير الموجز المطلق الحاسم يفيدنا في تحديد كلمة الفصل في قضايا أساسية في حقيقة هذا الدين وفي حركته الواقعية كذلك :

إنه يفيدنا أولاً في تحديد (طبيعة المجتمع المسلم) .
ويفيدنا ثانياً في تحديد (منهج نشأة المجتمع المسلم) .
ويفيدنا ثالثاً في تحديد (منهج الإسلام في مواجهة المجتمعات الجاهلية) .
ويفيدنا رابعاً في تحديد (منهج الإسلام في مواجهة واقع الحياة البشرية) .
وهي قضايا أساسية بالغة الخطورة في منهج الحركة الإسلامية قديماً وحديثاً .

إن السمة الأولى المميزة لطبيعة (المجتمع المسلم) هي أن هذا المجتمع يقوم على قاعدة العبودية لله وحده في أمره كله ... هذه العبودية التي تمثلها وتكيفها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . وتتمثل هذه العبودية في التصور الإعتقادي ، كما تتمثل في الشعائر التعبدية كما تتمثل في الشرائع القانونية سواء . فليس عبداً لله وحده من لا يعتقد بوحدانية الله سبحانه : « وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ، إنما هو إله

واحد فإياي فارهبون . وله ما في السموات والأرض ولـــه الدين واصبا . أفغير الله تتقون ؟ » ... — (النحل : ٥١ — ٥٣) — .

وليس عبداً لله وحده من يتقدم بالشعائر التعبدية لأحد غير الله — معه أو من دونه — : « قل : إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » . — (الانعام : ١٦٢ — ١٦٣) — . وليس عبداً لله وحده من يتلقى الشرائع القانونية من أحد سوى الله ، عن الطريق الذي بلغنا الله به ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يـــأذن به الله » . (الشورى : ٢١) — . « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » . — (الحشر : ٧) — .

هذا هو المجتمع المسلم . المجتمع الذي تتمثل العبودية لله وحده في معتقدات أفراده وتصوراتهم كما تتمثل في شعائرهم وعباداتهم ، كما تتمثل في نظامهـــم الاجتماعي وتشريعاتهم .. وأيما جانب من هذه الجوانب تخلف عن الوجود فقد تخلف الإسلام نفسه عن الوجود ، لتخلف ركنه الأول وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

ولقد قلنا ان العبودية لله تتمثل في (التصور الاعتقادي) .. فيحسن أن نقول ما هو التصور الاعتقادي الإسلامي .. إنه التصور الذي ينشأ في الإدراك البشري من تلقيه لحقائق العقيدة من مصدرها الرباني والذي يتكيف به الإنسان في إدراكه لحقيقة ربه ولحقيقة الكون الذي يعيش فيه — غيبه وشهوده — ولحقيقة الحياة التي ينتسب إليها — غيبها وشهودها — ولحقيقة نفسه .. أي لحقيقة الإنسان ذاته .. ثم يكيف على أساسه تعامله مع هذه الحقائق جميعاً . تعامله مع ربه تعاملاً تتمثل فيه عبوديته لله وحده . وتعامله مع الكون ونواميسه ، ومع الأحياء وعواملها ، ومع أفراد النوع البشري وتشكيلاته تعاملاً يستمد أصوله من دين الله — كما بلغها رسول الله صلى الله عليه وسلم — تحقيقاً لعبوديته لله وحده في هذا التعامل .. وهو بهذه الصورة يشمل نشاط الحياة كله .

فإذا تقرر أن هذا هو (المجتمع المسلم) . فكيف ينشأ هذا المجتمع ؟ ما منهج هذه النشأة ؟. إن هـــذا المجتمع لا يقوم حـــتى تنشأ جماعة من الناس تقرر أن عبوديتها الكاملة لله وحده وأنها لا تدين بالعبودية لغير الله .. لا تدين بالعبودية لغير الله في الاعتقاد والتصور . ولا تدين بالعبودية لغير الله في العبادات والشعائر .. ولا تدين بالعبودية

لغير الله في النظام والشرائع .. ثم تأخذ بالفعل في تنظيم حياتها كلها على أساس هـذه العبودية الخالصة .. تنقي ضمائرها من الاعتقاد في الوهية أحد غير الله — معه أو من دونه — وتنقي شعائرها من التلقي عن أحد غير الله — معه أو دونه — وتنقي شرائعها من التلقي عن أحد غير الله — معه أو من دونه .

عندئذ — وعندئذ فقط — تكون هذه الجماعة مسلمة ، ويكون هذا المجتمع الذي أقامته مسلماً كذلك .. فأما قبل أن يقرر ناس من الناس إخلاص عبوديتهم لله — على النحو الذي تقدم — فإنهم لا يكونون مسلمين .. وأما قبل أن ينظموا حياتهم على هذا الأساس فلا يكون مجتمعهم مسلماً .. وذلك أن القاعدة الاولى التي يقوم عليها الإسلام والتي يقوم عليها المجتمع المسلم — وهي شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله — لم تقم بشطريها ...

وإذن فإنه قبل التفكير في إقامة نظام إجتماعي إسلامي ، وإقامة مجتمع مسلم على أساس هذا النظام .. ينبغي أن يتجه الإهتمام أولاً إلى تخليص ضمائر الأفراد من العبودية لغير الله — في أية صورة من صورها التي أسلفنا — وأن يتجمع الأفراد الذين تخلص ضمائرهم من العبودية لغير الله في جماعة مسلمة .. وهذه الجماعة التي خلصت ضمائر أفرادها من العبودية لغير الله ، إعتقاداً وعبادة وشريعة هي التي ينشأ منها المجتمع المسلم ، وينضم إليها من يريد أن يعيش في هذا المجتمع بعقيدته وعبادته وشريعته التي تتمثل فيها العبودية لله وحده .. أو بتعبير آخر تتمثل فيها شهادة أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً رسول الله .

وهكذا كانت نشأة الجماعة المسلمة الأولى التي أقامت المجتمع المسلم الأول .. وهكذا تكون نشأة كل جماعة مسلمة وهكذا يقوم كل مجتمع مسلم .

إن المجتمع المسلم إنما ينشأ من انتقال أفراد ومجموعات من الناس من العبودية لغير الله — معه أو من دونه — إلى العبودية لله وحده بلا شريك ثم من تقرير هـذه المجموعات أن تقيم نظام حياتها على أساس هذه العبودية .. وعندئذ يتم ميلاد جديد لمجتمع جديد مشتق من المجتمع الجاهلي القديم ومواجه له بعقيدة جديدة ونظام للحياة جديد يقوم على أساس هذه العقيدة وتتمثل فيه قاعدة الإسلام الأولى بشطريها .. شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ..

وقد ينضم المجتمع الجاهلي القديم بكامله إلى المجتمع الإسلامي الجديد وقد لا

ينضم . كما أنه قد يهادن المجتمع المسلم الجديدأو يحاربه وإن كانت السنة جرت بأن يشن المجتمع الجاهلي حرباً لا هوادة فيها على طلائع هذا المجتمع في مرحلة نشوئه – وهو أفراد أو مجموعات – أو على هذا المجتمع نفسه بعد قيامه فعلاً – وهو ما حدث في تاريخ الدعوة الإسلامية منذ نوح عليه السلام إلى محمد عليه الصلاة والسلام بغير استثناء .

وطبيعي أن المجتمع المسلم الجديد لا ينشأ ولا يتقرر وجوده إلا إذا بلغ درجة من القوة يواجه بها ضغط المجتمع الجاهلي القديم : قوة الإعتقاد والتصور . وقوة الخلق والبناء النفسي . وقوة التنظيم والبناء الجماعي . وسائر أنواع القوة التي يواجه بها ضغط المجتمع الجاهلي ويتغلب عليه . أو على الأقل يصمد له .

ولكن ما هو (المجتمع الجاهلي) وما هو منهج الإسلام في مواجهته ؟.

إن المجتمع الجاهلي هو كل مجتمع غير المجتمع المسلم ، وإذا أردنا التحديد الموضوعي قلنا : إنه هو كل مجتمع لا يخلص عبوديته لله وحده .. متمثلة هذه العبودية في التصور الاعتقادي وفي الشعائر التعبدية وفي الشرائع القانونية .

وبهذا التعريف الموضوعي تدخل في إطار (المجتمع الجاهلي) جميع المجتمعات القائمة اليوم في الأرض فعلاً .

تدخل فيه المجتمعات الشيوعية ... أولاً : بإلحادها في الله – سبحانه – وبإنكار وجوده أصلاً ورجع الفاعلية في هذا الوجود إلى (المادة) أو (الطبيعة) . ورجع الفاعلية في حياة الإنسان وتاريخه إلى (الاقتصاد) أو (أدوات الإنتاج) . وثانياً : بإقامة نظام العبودية فيه للحزب – على فرض أن القيادة الجماعية في هذا النظام حقيقة واقعة ، – لا لله سبحانه ، ثم ما يترتب على ذلك التصور وهذا النظام من إهـــدار لخصائص (الإنسان) وذلك باعتبار (أن المطالب الأساسية) له هي فقط مطالب الحيوان . وهي : الطعام والشراب والملبس والمسكن والجنس ، وحرمانه من حاجات روحه (الإنساني) المتميز عن الحيوان وفي أولها : العقيدة في الله وحرية اختيارها وحرية التعبير عنها . وكذلك حرية التعبير عن (فرديته) وهي من أخص خصائص (إنسانيته) هذه الفردية التي تتجلى في الملكية الفردية وفي اختيار نوع العمل والتخصص وفي التعبـــير الفني عن (الذات) .. إلى آخر ما يميز (الإنسان) عن (الحيوان) أو عن (الآلة)، إذ أن التصور الشيوعي والنظام الشيوعي سواء كثيراً ما يهبط بالإنسان عن مرتبة الحيوان إلى مرتبة الآلة .

وتدخل فيه المجتمعات الوثنية — وهي ما تزال قائمة في الهند واليابان والفلبين وإفريقية — تدخل فيه .. أولاً : بتصورها الإعتقادي القائم على تأليه غير الله — معه أو من دونه — وتدخل فيه ثانياً : بتقديم الشعائر التعبدية لشتى الآلهة والمعبودات التي تعتقد بألوهيتها كذلك تدخل فيه بإقامة أنظمة وشرائع ، المرجع فيها لغير الله وشريعته. سواء استمدت هذه الأنظمة والشرائع من المعابد والكهنة والسدنة والسحرة والشيوخ أو استمدتها من هيئات مدنية (علمانية) تملك سلطة التشريع دون الرجوع إلى شريعة الله .. أي أن لها الحاكمية العليا باسم (الشعب) أو باسم (الحزب) أو باسم كائن من كان .. ذلك أن الحاكمية العليا لا تكون إلا لله سبحانه ولا تزاول إلا بالطريقة التي بلغها عنه رسله .

وتدخل فيه المجتمعات اليهودية والنصرانية في أرجاء الأرض جميعاً .. تدخل فيه هذه المجتمعات أولاً : بتصورها الإعتقادي المحرف الذي لا يفرد الله — سبحانه — بالألوهية بل يجعل له شركاء في صورة من صور الشرك . سواء بالنبوة أو بالتثليث ، أو بتصور الله سبحانه على غير حقيقته وتصور علاقة خلقه به على غير حقيقتها .

« وقالت اليهود: عزير ابن الله وقالت النصارى : المسيح ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل . قاتلهم الله أنّى يؤفكون ؟ » — (التوبة : ٣٠) .

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة . وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون لَيَمَسَّنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم » .. — (المائدة : ٧٣) — .
« وقالت اليهود : يد الله مغلولة غُلَّتْ أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » — (المائدة ٦٤) — .

« وقالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه . قل : فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق » .. — (المائدة : ١٥) — .

وتدخل فيه كذلك بشعائرها التعبدية ومراسمها وطقوسها المنبثقة من التصورات الاعتقادية المنحرفة الضالة . ثم تدخل فيه بأنظمتها وشرائعها ؛ وهي كلها لا تقوم على العبودية لله وحده بالإقرار له وحده بحق الحاكمية واستمداد السلطان من شرعه . بل تقيم هيئات من البشر لها حق الحاكمية العليا التي لا تكون إلا لله سبحانه .. وقديماً وصمهم الله بالشرك والكفر لأنهم جعلوا هذا الحق للأحبار والرهبان يشرعون لهم من عند أنفسهم فيقبلون منهم ما يشرعونه : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله — والمسيح ابن مريم — وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً . لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » ..

وهم لم يكونوا يعتقدون في ألوهية الأحبار والرهبان ولم يكونوا يتقدمون لهم بالشعائر التعبدية . إنما كانوا فقط يعترفون لهم بحق الحاكمية ، فيقبلون منهم ما يشرعونه لهم بما لم يأذن به الله . فأولى أن يوصموا اليوم بالشرك والكفر وقد جعلوا ذلك لناس منهم ليسوا أحباراً ولا رهباناً .. وكلهم سواء .. وأخيراً يدخل في إطار المجتمع الجاهلي تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنهـــا مسلمة . وهذه المجتمعات لا تدخل في هذا الإطار لانها تعتقد بألوهية أحد غير الله . ولا لأنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله أيضاً . ولكنها تدخل في هذا الإطار لأنها لا تدين بالعبودية لله وحده في نظام حياتها — فهي — وإن لم تعتقد بالوهية أحد إلا الله — تعطي أخص خصائص الألوهية لغير الله . فتدين بحاكمية غير الله . فتتلقى من هذه الحاكمية نظامها وشرائعها وقيمها وموازينها وعاداتها وتقاليدها .. وكل مقومات حياتها تقريباً .

والله سبحانه يقول عن الحاكمين : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » — (المائدة : ٤٤) — . ويقول عن المحكومين : « ألم ترَ إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أُنزل من قبلك يريدون ان يتحاكموا إلى الطاغوت . وقد أُمروا أن يكفروا به » إلى أن يقول : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما » .. — (النساء : ٦٠ — ٦٥) — .

كما انه — سبحانه قد وصف اليهود والنصارى من قبل بالشرك والكفر والحيدة عن عبادة الله وحده واتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دونه لمجرد أن جعلوا للأحبار والرهبان ما يجعله الذين يقولون عن انفسهم أنهم (مسلمون) لناس منهم واعتبر الله سبحانه ذلك من اليهود والنصارى شركا كاتخاذهم عيسى ابن مريم رباً يؤلهونه ويعبدونه سواء ، فهذه كتلك خروج من العبوديّة لله وحده . فهي خروج من دين الله .. ومن شهادة أن لا إله إلاّ الله .

وهذه المجتمعات بعضها يعلن صراحة « علمانيته » وعدم علاقته بالدين أصلاً . وبعضها يعلن أنه « يحترم الدين » ولكنه يخرج الدين من نظامه الاجتماعي أصلاً ، ويقول : إنه ينكر « الغيبية » ويقيم نظامه على « العلمية » باعتبار أن العلمية تناقض الغيبية وهو زعم جاهل لا يقول به إلا الجهال[1] . وبعضها يجعل الحاكمية الفعلية لغير الله

---

(١) يراجع ما جاء في تفسير قوله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » في الجزء السابع من الظلال .

ويشرع ما يشاء ثم يقول عما يشرعه من عند نفسه : هذه شريعة الله . وكلها سواء في أنها لا تقوم على العبودية لله وحده ..

وإذا تعين هذا فإن موقف الإسلام من هذه المجتمعات الجاهلية كلها يتحدد في عبارة واحدة : إنه يرفض الإعتراف بإسلامية هذه المجتمعات كلها وشرعيتها في اعتباره .

إن الإسلام لا ينظر إلى العنوانات واللافتات والشارات التي تحملها هذه المجتمعات على اختلافها .. إنها كلها تلتقي في حقيقة واحدة .. وهي أن الحياة فيها لا تقوم على العبودية الكاملة لله وحده . وهي من ثم تلتقي – مع سائر المجتمعات الأخرى – في صفة واحدة .. صفة (الجاهلية) .

وهذا يقودنا إلى القضية الأخيرة وهي منهج الإسلام في مواجهة الواقع البشري كله . اليوم وغدا وإلى آخر الزمان . وهنا ينفعنا ما قررناه في الفقرة الأولى عن « طبيعة المجتمع المسلم » . وقيامه على العبودية لله وحده في أمره كله .

إن تحديد هذه الطبيعة يجيب إجابة حاسمة عن هذا السؤال : – ما الأصل الذي ترجع إليه الحياة البشرية وتقوم عليه ؟ أهو دين الله ومنهجه للحياة ؟ أم هو الواقع البشري أياً كان ؟

إن الإسلام يجيب على هذا السؤال إجابة حاسمة لا يتلعثم فيها ولا يتردد لحظة .. إن الأصل الذي يجب أن ترجع إليه الحياة البشرية بجملتها هو دين الله ومنهجه للحياة .. إن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله التي هي ركن الإسلام الأول لا تقوم ولا تؤدى إلا أن يكون هذا هو الأصل .. وأن العبودية لله وحده مع التلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لا تتحقق إلا أن يعترف بهذا الأصل ثم يتبع إتباعاً كاملاً بلا تلعثم ولا تردد : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » – (الحشر : ٧) – . ثم إن الإسلام يسأل : « أأنتم أعلم أم الله ؟ » .. ويجيب : « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .. « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

والذي يعلم – والذي يخلق ويرزق كذلك – هو الذي يحكم .. ودينه الذي هو منهجه للحياة هو الأصل الذي ترجع إليه الحياة ..

أما واقع البشر ونظرياتهم ومذاهبهم فهي تفسد وتنحرف وتقوم على علم البشر

الذين لا يعلمون والذين لم يؤتوا من العلم إلا قليلا .

ودين الله ليس غامضاً ومنهجه للحياة ليس مائعاً .. فهو محدد بشطر الشهادة الثاني : محمد رسول الله . فهو محصور فيما بلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم من النصوص في الأصول .. فإن كان هناك نص فالنص هو الحكم ولا اجتهاد مع النص . وإن لم يكن هناك نص فهنا يجيء دور الاجتهاد – وفق أصوله المقررة في منهج الله ذاته لاوفق الأهواء والرغبات . « فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول » – (النساء : ٥٩).

والأصول المقررة للاجتهاد والاستنباط مقررة كذلك ومعروفة وليست غامضة ولا مائعة .. فليس لأحد أن يقول لشرع يشرعه : هـذا شرع الله .. إلا أن تكون الحاكمية العليا معلنة وأن يكون مصدر السلطات هو الله سبحـانه لا (الشعب) ولا (الحزب) ولا أي من البشر . وأن يرجع إلى كتاب الله وسنة رسوله لمعرفة ما يريد الله ولا يكون هذا لكل من يريد أن يدعي سلطاناً باسم الله . كالذي عرفته أوربا ذات يوم باسم « الثيوقراطية » أو « الحكم المقدس » فليس شيء من هذا في الإسلام . وما يملك أحد أن ينطق باسم الله إلا رسوله – صلى الله عليه وسلم – وإنما هنالك نصوص معينة هي التي تحدد ما شرع الله .

إن كلمة (الدين للواقع) يساء فهمها ويساء استخدامها كذلك. نعم إن هذا الدين للواقع ولكن اي واقع .. إنه الواقع الذي ينشئه هذا الدين نفسه وفق منهجه منطبقاً على الفطرة البشرية في سوائها ومحققاً للحاجات الإنسانية الحقيقية في شمولها . هذه الحاجات التي يقررها الذي خلق والذي يعلم من خلق : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » – (الملك : ١٤) – .

والدين لا يواجه الواقع أياً كان ليقره ويبحث له عن سند منه وعن حكم شرعي يعلقه عليه كاللافته المستعارة إنما يواجه الواقع ليزنه بميزانه فيقر منه ما يقر ويلغي منه ما يلغي وينشيء واقعاً غيره إن كان لا يرتضيه . وواقعه الذي ينشئه هو الواقع . وهذا هو المعنى بأن الإسلام : « دين للواقع » .. أو ما يجب أن تعنيه في مفهومها الصحيح ، ولعله يثار هنا سؤال . أليست مصلحة البشر هي التي يجب أن تصوغ واقعهـم ؟ . ومرة أخرى نرجع إلى السؤال الذي يطرحه الإسلام ويجيب عليه :

– « أأنتم أعلم أم الله » ؟

— « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

إن مصلحة البشر متضمنة في شرع الله كما أنزله الله وكما بلغه عنه رسول الله .. فإذا بدا للبشر ذات يوم أن مصلحتهم في مخالفة ما شرع الله لهم فهم .. أولاً : « واهمون » فيما بدا لهم ، « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى . أم للإنسان ما تمنى ؟ فلله الآخرة والأولى » ... (النجم : ٢٣ — ٢٥) .

وهم .. ثانياً « كافرون » .. فما يدعي أحد أن المصلحة فيما يراه هو مخالفاً لما شرع الله ، ثم يبقى لحظة على هذا الدين ومن أهل هذا الدين.

٢ — وإن لا إله إلا الله تجعل أهلها على انسجام مع نواميس الكون كله . يقول صاحب معالم في الطريق تحت عنوان : شريعة كونية ما يلي :

إن الإسلام حين يقيم بناءه الإعتقادي في الضمير والواقع على أساس العبودية الكاملة لله وحده : ويجعل هذه العبودية متمثلة في الاعتقاد والعبادة والشريعة على السواء باعتبار أن هذه العبودية الكاملة لله وحده — في صورتها هذه — هي المدلول العملي لشهادة أن لا إله إلا الله .. وأن التلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم — وحده هو المدلول العملي كذلك لشهادة أن محمداً رسول الله ..

إن الإسلام حين يقيم بناءه كله على هذا الأساس بحيث تمثل شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله منهج الحياة في الإسلام وتصور ملامح هذا المنهج وتقرر خصائصه .. إن الإسلام حين يقيم بناءه على هذا النحو الفريد الذي يفرقه عن جميع الأنظمة الأخرى التي عرفتها البشرية ... إنما يرجع إلى أصل أشمل في تقريره عن الوجود لا عن الوجود الانساني وحده وإلى منهج للوجود كله لا منهج للحياة الإنسانية وحدها .

إن التصور الإسلامي يقوم على أساس أن هذا الوجود كله من خلق الله ، اتجهت إرادة الله إلى كونه فكان : وأودعه الله — سبحانه — قوانينه التي يتحرك بها والتي تتناسق بها حركة أجزائه فيما بينها كما تتسق بها حركته الكلية سواء : « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له : كن فيكون » — (النمل : ٤٠) . « وخلق كل شيء فقدره تقديرا » . (الفرقان : ٢) . إن وراء هذا الوجود الكوني مشيئة تدبره وقدراً يحركه وناموساً ينسقه . هذا الناموس ينسق بين مفردات هذا الوجود كلها وينظم حركاتها جميعاً فلا

تصطدم ولا تختل ولا تتعارض ولا تتوقف عن الحركة المنتظمة المستمرة ـ إلى ما شاء الله ـ كما أن هذا الوجود خاضع مستسلم للمشيئة التي تدبره والقدر الذي يحركه والناموس الذي ينسقه بحيث لا يخطر له في لحظة واحدة أن يتمرد على المشيئة أو أن يتنكر للقدر أو أن يخالف الناموس .. وهو لهذا كله صالح لا يدركه العطب والفساد إلا أن يشاء الله : « إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » .. ـ (الاعراف : ٥٤) .

والإنسان من هذا الوجود الكوني والقوانين التي تحكم فطرته ليست بمعزل عن ذلك الناموس الذي يحكم الوجود كله .. لقد خلقه الله ـ كما خلق هذا الوجود ـ وهو في تكوينه المادي من طين هذه الأرض وما وهبه الله من خصائص زائدة على مادة الطين جعلت منه إنساناً إنما رزقه الله إياه مقدراً تقديراً وهو خاضع من ناحية كيانه الجسمي للناموس الطبيعي الذي سنه الله له ـ رضي أم أبى ـ يعطى وجوده وخلقه ابتداءً بمشيئة الله لا بمشيئته هو ولا بمشيئة أبيه وأمه ـ فهما يلتقيان ولكنهما لا يملكان أن يعطيا جنيناً وجوده ـ وهو يولد وفق الناموس الذي وضعه الله لمدة الحمل وظروف الولادة . وهو يتنفس هذا الهواء الذي أوجده الله بمقاديره هذه ويتنفسه بالقدر وبالكيفية التي أرادها الله له . وهو يحس ويتألم ويجوع ويعطش ويأكل ويشرب ويمثل الطعام والشراب . وبالجملة يعيش .. وفق ناموس الله عن غير إرادة منه ولا اختيار شأنه في هذا شأن هذا الوجود الكوني وكل ما فيه في الخضوع المطلق لمشيئة الله وقدره وناموسه ...

والله الذي خلق هذا الوجود الكوني وخلق الإنسان . والذي أخضع الإنسان لنواميسه التي أخضع لها الوجود الكوني .. هو سبحانه ـ الذي سن للإنسان (شريعة) لتنظيم حياته الإرادية تنظيماً متناسقاً مع حياته الطبيعية . فالشريعة ـ على هذا الأساس ـ إن هي إلا قطاع من الناموس الإلهي العام الذي يحكم فطرة الإنسان وفطرة الوجود العام وينسقها كلها جملة واحدة .

وما من كلمة من كلمات الله ولا أمر ولا نهي ولا وعد ولا وعيد ولا تشريع ولا توجيه .. إلا وهي شطر من الناموس العام وصادقة في ذاتها صدق القوانين التي نسميها القوانين الطبيعية ـ أي القوانين الإلهية الكونية ـ التي نراها تتحقق في كل لحظة بحكم ما في طبيعتها من حق أزلي أودعه الله فيها وهي تتحقق بقدر الله .

و « الشريعة» التي سنها الله لتنظيم حياة البشر هي ــ من ثم ــ شريعة كونية بمعنى أنها متصلة بناموس الكون العام ومتناسقة معه .. ومن ثم فإن الإلتزام بها ناشيء من ضرورة تحقيق التناسق بين القوانين التي تحكم فطرة البشر المضمرة والقوانين التي تحكم حياتهم الظاهرة . وضرورة الالتئام بين الشخصية المضمرة والشخصية الظاهرة للإنسان ..

ولما كان البشر لا يملكون أن يدركوا جميع السنن الكونية ولا أن يحيطوا بأطراف الناموس العام ــ ولا حتى بهذا الذي يحكم فطرتهم ذاتها ويخضعهم له ــ رضوا أم أبوا ــ فإنهم ــ من ثم ــ لا يملكون أن يشترعوا لحياة البشر نظاماً يتحقق به التناسق المطلق بين حياة الناس وحركة الكون ولا حتى التناسق بين فطرتهم المضمرة وحياتهم الظاهرة إنما يملك هذا خالق الكون وخالق البشر ومدبر أمره وأمرهم وفق الناموس الواحد الذي اختاره وارتضاه .

وكذلك يصبح العمل بشريعة الله واجباً لتحقيق ذلك التناسق .. وذلك فوق وجوبه لتحقق الإسلام اعتقاداً . فلا وجود للإسلام في حياة فرد أو حياة جماعة إلا بإخلاص العبودية لله وحده وبالتلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله وحده . تحقيقاً لمدلول ركن الإسلام الأول : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

وفي تحقيق التناسق المطلق بين حياة البشر وناموس الكون كل الخير للبشر . كما أن فيه الصيانة للحياة من الفساد .. إنهم ــ في هذه الحالة وحدها ــ يعيشون في سلام مع الكون وفي سلام مع أنفسهم .. فأما السلام مع الكون فينشأ من تطابق حركتهم مع حركة الكون ، وتطابق اتجاههم مع اتجاهه .. وأما السلام مع أنفسهم فينشأ من توافق حركتهم مع دوافع فطرتهم الصحيحة فلا تقوم المعركة بين المرء وفطرته لأن شريعة الله تنسق بين الحركة الظاهرة والفطرة المضمرة في يسر وهدوء .. وينشأ عن هذا التنسيق تنسيق آخر في ارتباط الناس ونشاطهم العام لأنهم جميعاً يسلكون حينئذ وفق منهج موحد هو طرف من الناموس الكوني العام .

كذلك يتحقق الخير للبشرية عن طريق اهتدائها وتعرفها في يسر إلى أسرار هذا الكون والطاقات المكنونة فيه والكنوز المذخورة في أطوائه . واستخدام هذا كله وفق شريعة الله لتحقيق الخير البشري العام بلا تعارض ولا اصطدام . ومقابل شريعة الله هو أهواء البشر :

«ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن» .. — (المؤمنون : ٧١).

ومن ثم توحد النظرة الإسلامية بين الحق الذي يقوم عليه هذا الدين والحق الذي تقوم عليه السماوات والأرض ويصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ويحاسب الله به ويجازي من يتعدونه .. فهو حق واحد لا يتعدد وهو الناموس الكوني العام الذي أراده الله لهذا الوجود في جميع الأحوال والذي يخضع له ويؤخذ به كل ما في الوجود من عوالم وأشياء وأحياء ..

«لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون، وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين . فلما أحسوا بأسنا إذا هم منهــا يركضون . لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكِنكم لعلكم تُسألون . قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين . وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين .. بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون . وله من في السماوات والأرض ومن عندَه لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون» ... (الانبياء : ١٠ — ٢٠).

وفطرة الإنسان تدرك هذا الحق في أعماقها ، فطبيعة تكوينه ، وطبيعة هذا الكون كله من حوله توحي إلى فطرته بأن هذا الوجود قائم على الحق ، وأن الحق أصيل فيه ، وأنه ثابت على الناموس لا يضطرب ولا تتفرق به السبل ولا تختلف دورته ، ولا يصطدم بعضه ببعض ولا يسير وفق المصادفة العابرة والفلتة الشاردة ، ولا وفق الهوى المتقلب والرغبة الجامحة إنما يمضي في نظامه الدقيق المحكم المقدر تقديراً .. ومن ثم يقع الشقاق — أول ما يقع — بين الإنسان وفطرته عندما يحيد عن الحق الكامن في أعماقها تحت تأثير هواه وذلك عندما يتخذ شريعة لحياته مستمدة من هذا الهوى لا من شريعة الله . وعندما لا يستسلم لله إستسلام هذا الوجود الكوني الخاضع لمولاه .

ومثل هذا الشقاق يقع بين الأفراد والجماعات والأمم والأجيال . كما يقع بين البشر والكون من حولهم . فتنقلب قواه وذخائره وسائل تدمير وأسباب شقاء بدلاً من أن تكون وسائل عمران وأسباب سعادة لبني الإنسان . وإذن فإن الهدف الظاهر من قيام شريعة الله في الأرض ليس مجرد العمل للآخرة . فالدنيا والآخرة معاً مرحلتان

متكاملتان . وشريعة الله هي التي تنسق بين المرحلتين في حياة هذا الإنسان وتنسيق الحياة كلها مع الناموس الإلهي العام . والتناسق مع الناموس لا يؤجل سعادة الناس إلى الآخرة بل يجعلها واقعة ومتحققة في المرحلة الأولى كذلك . ثم تتم تمامها وتبلغ كمالها في الدار الآخرة .

هذا هو أساس التصور الإسلامي للوجود كله وللوجود الإنساني في ظل ذلك الوجود العام . وهو تصور يختلف في طبيعته اختلافاً جوهرياً عن كل تصور آخر عرفته البشرية . ومن ثم تقوم عليه التزامات لا تقوم على أي تصور آخر في جميع الأنظمة والنظريات ..

إن الالتزام بشريعة الله – في هذا التصور – هو مقتضى الارتباط التام بين حياة البشر وحياة الكون . وبين الناموس الذي يحكم فطرة البشر ويحكم هذا الكون . ثم ضرورة المطابقة بين هذا الناموس العام والشريعة التي تنظم حياة بني الإنسان . وتتحقق بالتزامها عبودية البشر لله وحده كما أن عبودية هذا الكون لله وحده لا يدعيها لنفسه إنسان ..

وإلى ضرورة هذا التطابق والتناسق يشير الحوار الذي جرى بين إبراهيم – عليه السلام – أبي هذه الأمة المسلمة – وبين (نمرود) المتجبر المدعي بحق السلطان على العباد في الأرض والذي لم يستطع – مع ذلك – أن يدعي بحق السلطان على الأفلاك والأجرام في الكون . وبهت أمام إبراهيم عليه السلام . وهو يقول له : إن الذي يملك السلطان في الكون هو وحده الذي ينبغي أن يكون له السلطان في حياة البشر ولم يحر جواباً على هذا البرهان :

« الم ترَ إلى الذي حاج إبراهيم في ربه – أن آتاه الله الملك – إذ قال إبراهيم : ربي الذي يحيي ويميت . قال : أنا أحيي وأميت قال إبراهيم : فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب .. فبهت الذي كفر . والله لا يهدي القوم الظالمين » – – (البقرة : ٢٥٨) .

وصدق الله العظيم : (أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ؟ » .. – (آل عمران : ٨٢) .

٣ – وأن لا إله إلا الله محمد رسول الله ينبع عنها ثقافة خاصة وحضارة حقة ويشرح

هاتين القضيتين صاحب كتاب معالم في الطريق بفقرتين : الأولى تحت عنوان : الإسلام هو الحضارة. والثانية تحت عنوان : التصور الإسلامي والثقافة .

(أ) الاسلام هو الحضارة : الإسلام لايعرف إلا نوعين اثنين من المجتمعات .. مجتمع إسلامي . ومجتمع جاهلي .

« المجتمع الإسلامي » هو المجتمع الذي يطبق فيه الإسلام .. عقيدة وعبادة . وشريعة ونظاماً . وخلقاً وسلوكاً .. و « المجتمع الجاهلي » هو المجتمع الذي لا يطبق فيه الإسلام . ولا تحكمه عقيدته وتصوراته وقيمه وموازينه ونظامه وشرائعه وخلقه وسلوكه ...

ليس المجتمع الإسلامي هو الذي يضم ناساً ممن يسمون أنفسهم « مسلمين » . بينما شريعة الإسلام ليست هي قانون هذا المجتمع . وإن صلى وصام وحج البيت الحرام وليس المجتمع الإسلامي هو الذي يبتدع لنفسه إسلاماً من عند نفسه — غير ما قرره الله سبحانه وفصله رسوله صلى الله عليه وسلم . ويسميه مثلاً « الإسلام المتطور » .

« والمجتمع الجاهلي » قد يتمثل في صور شتى —كلها جاهلية— : قد يتمثل في صورة مجتمع ينكر وجود الله تعالى ويفسر التاريخ تفسيراً مادياً جدلياً ويطبق ما يسميه « الإشتراكية العلمية » نظاماً .

وقد يتمثل في مجتمع لا ينكر وجود الله تعالى ولكن يجعل له ملكوت السماوات ويعزله عن ملكوت الأرض فلا يطبق شريعته في نظام الحياة ولا يحكم قيمه التي جعلها هو قيماً ثابته في حياة البشر ويبيح للناس أن يعبدوا الله في البيع والكنائس والمساجد ولكنه يحرم عليهم أن يطالبوا بتحكيم شريعة الله في حياتهم. وهو بذلك ينكر أو يعطل ألوهية الله في الأرض التي ينص عليها قوله تعالى : « وهو الذي في السماء إلـــه وفي الأرض إله » .. — (الزخرف : ٨٤) . ومن ثم لا يكون هذا المجتمع إسلامياً في دين الله الذي يحدده قوله : « إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه .. ذلك الدين القيم » .. — (يوسف : ٨٤) . وبذلك يكون مجتمعاً جاهلياً ولو أقر بوجود الله سبحانه ولو ترك الناس يقدمون الشعائر لله . في البيع والكنائس والمساجد .

« المجتمع الإسلامي » — بصفته تلك — هو وحده « المجتمع المتحضر » والمجتمعات الجاهلية — بكل صورها المتعددة — مجتمعات متخلفة ولا بد من إيضاح لهذه الحقيقة الكبيرة .

لقد كنت قد أعلنت مرة عن كتاب لي تحت الطبع بعنوان : نحو مجتمع إسلامي متحضر » .. ثم عدت في الإعلان التالي عنه فحذفت كلمة « متحضر » مكتفياً بأن يكون عنوان البحث – كما هو موضوعه – « نحو مجتمع إسلامي » ...

ولفت هذا التعديل نظر كاتب جزائري (يكتب بالفرنسية) ففسره على أنه ناشيء من « عملية دفاع نفسية داخلية عن الاسلام » وأسف لأن هذه العملية – غير الواعية – تحرمني مواجهة « المشكلة » على حقيقتها . أنا أعذر هذا الكاتب . لقد كنت مثله من قبل .. كنت أفكر على النحو الذي يفكر هو عليه الآن .. عندما فكرت في الكتابة عن هذا الموضوع لأول مرة .. وكانت المشكلة عندي – كما هي عنده اليوم – هي مشكلة : « تعريف الحضارة » .

لم أكن قد تخلصت بعد من ضغط الرواسب الثقافية في تكويني العقلي والنفسي . وهي رواسب آتية من مصادر أجنبية .. غريبة على حسي الإسلامي .. وعلى الرغم من اتجاهي الإسلامي الواضح في ذلك الحين إلا أن هذه الرواسب كانت تغبش تصوري وتطمسه . كان تصور « الحضارة » – كما هو في الفكر الأوربي – يخايل لي ويغبش تصوري ويحرمني الرؤية الواضحة الأصيلة .

ثم انجلت الصورة .. « المجتمع المسلم » « هو المجتمع المتحضر » فكلمة « المتحضر » إذن لغو لا يضيف شيئاً جديداً .. على العكس تنقل هذه الكلمة إلى حسي تلك الظلال الأجنبية الغريبة التي كانت تغبش تصوري وتحرمني الرؤيا الواضحة الأصيلة .

الاختلاف إذن هو على « تعريف الحضارة » .. ولابد من إيضاح إذن لهذه الحقيقة .

حين تكون الحاكمية العليا في مجتمع لله وحده – متمثلة في سيادة الشريعة الالهية – تكون هذه هي الصورة الوحيدة التي يتحرر فيها البشر تحرراً كاملاً وحقيقياً من العبودية للبشر .. وتكون هذه هي « الحضارة الإنسانية » لان حضارة الانسان تقتضي قاعدة أساسية من التحرر الحقيقي الكامل للانسان ومن الكرامة المطلقة لكل فرد في المجتمع .. ولا حرية – في الحقيقة ولا كرامة للانسان – ممثلاً في كل فرد من افراده – في مجتمع بعضه أرباب يشرعون وبعضه عبيد يطيعون .

ولا بد ان نبادر فنبين أن التشريع لا ينحصر فقط في الأحكام القانونية – كما هو المفهوم الضيق في الاذهان اليوم لكلمة الشريعة – فالتصورات والمناهج والقيم والموازين

والعادات والتقاليد.. كلها تشريع يخضع الافراد لضغطه. وحين يصنع الناس – بعضهم لبعض – هذه الضغوط ويخضع لها البعض الآخر منهم في مجتمع لا يكون هذا المجتمع متحرراً. انما هو مجتمع بعضه ارباب وبعضه عبيد – كما اسلفنا – وهو – من ثم – مجتمع متخلف.. او بالمصطلح الاسلامي.. « مجتمع جاهلي ».

والمجتمع الاسلامي هو وحده المجتمع الذي يهيمن عليه اله واحد ويخرج فيه الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده. وبذلك يتحررون التحرر الحقيقي الكامل الذي ترتكز اليه حضارة الانسان وتتمثل فيه كرامته كما قدرها الله له وهو يعلن خلافته في الارض عنه ويعلن كذلك تكريمه في الملأ الاعلى.

وحين تكون آصرة التجمع الاساسية في مجتمع هي العقيدة والتصور والفكرة ومنهج الحياة. ويكون هذا كله صادراً من إله واحد تتمثل فيه السيادة العليا للبشر. وليس صادراً من ارباب ارضية تتمثل فيها عبودية البشر للبشر.. يكون ذلك التجمع ممثلاً لأعلى ما في « الانسان » من خصائص.. خصائص الروح والفكر.. فأما حين تكون آصرة التجمع في مجتمع هي الجنس واللون والقوم والارض... وما إلى ذلك من الروابط فظاهر ان الجنس واللون والقوم والارض لا تمثل الخصائص العليا للانسان.. فالانسان يبقى انساناً بعد الروح والفكر ثم هو يملك – بمحض ارادته الحرة – ان يغير عقيدته وتصوره وفكره ومنهج حياته. ولكنه لا يملك ان يغير لونه ولا جنسه كما انه لا يملك ان يحدد مولده في قوم ولا في ارض.. فالمجتمع الذي يتجمع فيه الناس على امر يتعلق بارادتهم الحرة واختيارهم الذاتي هو المجتمع المتحضر.. اما المجتمع الذي يتجمع فيه الناس على امر خارج عن ارادتهم الانسانية فهو المجتمع المتخلف. او بالمصطلح الاسلامي.. هو « المجتمع الجاهلي ».

والمجتمع الاسلامي وحده هو المجتمع الذي تمثل فيه العقيدة رابطة التجمع الاساسية. والذي تعتبر فيه العقيدةُ الجنسيةَ التي تجمع بين الاسود والابيض والاحمر والاصفر. والعربي والرومي والفارسي والحبشي وسائر اجناس الارض في امة واحدة ربها الله. وعبوديتها له وحده. والأكرم فيها هو الاتقى. والكل فيها انداد يلتقون على امر شرعه الله لهم، ولم يشرعه احد من العباد. وحين تكون « انسانية » الانسان هي القيمة العليا في مجتمع. وتكون الخصائص « الانسانية » فيه هي موضع التكريم والاعتبار.

يكون هذا المجتمع متحضراً .. فأما حين تكون « المادة » — في اية صورة — هي القيمة العليا .. سواء في صورة « النظرية » كما في التفسير الماركسي للتاريخ او في صورة « الانتاج المادي » كما في امريكا واوربا وسائر المجتمعات التي تعتبر الانتاج المادي قيمة عليا تهدر في سبيلها القيم والخصائص الانسانية .. فان هذا المجتمع يكون مجتمعاً متخلفاً .. او بالمصطلح الاسلامي .. مجتمعاً جاهلياً .

ان المجتمع المتحضر .. الاسلامي ... لا يحتقر المادة — لا في صورة النظرية (باعتبارها هي التي يتألف منها هذا الكون الذي نعيش فيه ونتأثر به ونؤثر فيه ايضاً) ولا في صورة « الانتاج المادي » .. فالانتاج المادي من مقومات الخلافة في الأرض عن الله — ولكنه فقط لا يعتبرها هي القيمة العليا التي تهدر في سبيلها خصائص « الإنسان » ومقوماته .. وتهدر من أجلها حرية الفرد وكرامته . وتهدر فيها قاعدة (الأسرة) ومقوماتها . وتهدر فيها أخلاق المجتمع وحرماته ... إلى آخر ما تهدره المجتمعات الجاهلية من القيم العليا والفضائل والحرمات لتحقق الوفرة في الإنتاج المادي .

وحين تكون « القيم الإنسانية » و « الأخلاق الإنسانية » التي تقوم عليها هي السائدة في مجتمع يكون هذا المجتمع متحضراً . والقيم الإنسانية والأخلاق الإنسانية ليست مسألة غامضة مائعة وليست كذلك قيماً « متطورة » متغيرة متبدلة لا تستقر على حال ولا ترجع إلى أصل . كما يزعم التفسير المادي للتاريخ وكما تزعم « الإشتراكية العلمية » .

إنها القيم والأخلاق التي تنمي في الإنسان خصائص « الإنسان » التي يتفرد بها دون الحيوان والتي تغلب فيه هذا الجانب الذي يميزه ويفرده عن الحيوان . وليست هي القيم والأخلاق التي تنمي فيه وتغلب الجوانب التي يشترك فيها مع الحيوان .

وحين توضع المسألة هذا الوضع يبرز فيها خط فاصل وحاسم « وثابت » لا يقبل عملية التمييع المستمرة التي يحاولها « التطوريون » و « الإشتراكيون العلميون » .

عندئذ لا يكون إصطلاح البيئة وعرفها هو الذي يحدد القيم الأخلاقية . إنما يكون وراء اختلاف البيئة ميزان ثابت .. عندئذ لا تكون هناك قيم وأخلاق « زراعية » وأخرى « صناعية » ولا قيم وأخلاق « رأسمالية » وأخرى « إشتراكية » . ولا قيم وأخلاق « بورجوازية » وأخرى « صعلوكية » ولا تكون هناك أخلاق من صنع البيئة ومستوى

المعيشة وطبيعة المرحلة .. إلى آخر هذه التغيرات السطحية والشكلية ... إنما تكون هناك – من وراء ذلك كله – قيم وأخلاق « إنسانية » وقيم وأخلاق « حيوانية » إذا صح هذا التعبير – أو بالمصطلح الإسلامي : قيم وأخلاق « إسلامية » وقيم وأخلاق « جاهلية » .

إن الإسلام يقرر قيمة وأخلاقية هذه « الإنسانية » – أي التي تنمي في الإنسان الجوانب التي تفرقه وتميزه عن الحيوان – ويمضي في إنشائها وتثبيتها وصيانتها في كل المجتمعات التي يهيمن عليها سواء كانت هذه المجتمعات في طور الزراعة أم في طور الصناعة . وسواء كانت مجتمعات بدوية تعيش على الرعي ، أو مجتمعات حضرية مستقرة وسواء كانت هذه المجتمعات فقيرة أو غنية .. إنه يرتقي صعداً بالخصائص الإنسانية ويحرسها من النكسة إلى الحيوانية .. لأن الخط الصاعد في القيم والاعتبارات يمضي من الدرك الحيواني إلى المرتفع الإنساني .. فإذا انتكس هذا الخط – مع حضارة المادة – فلن يكون ذلك حضارة إنما هو « التخلف » أو هو « الجاهلية » .

وحين تكون « الأسرة » هي قاعدة المجتمع . وتقوم هذه الأسرة على أساس « التخصص » بين الزوجين في العمل . وتكون رعاية الجيل الناشيء هي أهم وظائف الأسرة .. يكون هذا المجتمع متحضراً .. ذلك أن الأسرة على هذا النحو – في ظل المنهج الإسلامي – تكون هي البيئة التي تنشأ وتنمى فيهاالقيم والأخلاق « الإنسانية » التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة ممثلة في الجيل الناشيء . والتي يستحيل أن تنشأ في وحدة أخرى غير وحدة الأسرة . فأما حين تكون العلاقات الجنسية (الحرة كما يسمونها) والنسل (غير الشرعي) هي قاعدة المجتمع .. حين تقوم العلاقات بين الجنسين على أساس الهوى والنزوة والانفعال لا على أساس الواجب والتخصص الوظيفي في الأسرة .. حين تصبح وظيفة المرأة هي الزينة والغواية والفتنة .. وحين تتخلى المرأة عن وظيفتها الأساسية في رعاية الجيل الجديد وتؤثر هي – أو يؤثر لها المجتمع – أن تكون مضيفة في فندق أو سفينة أو طائرة .. حين تنفق طاقتها في « الإنتاج المادي » و « صناعة الأدوات » ولا تنفقها في « صناعة الإنسانية » لأن الإنتاج المادي يومئذ أغلى وأعز وأكرم من « الإنتاج الإنساني » . عندئذ يكون هذا هو « التخلف الحضاري » بالقياس الإنساني .. أو تكون هي « الجاهلية » بالمصطلح الإسلامي .

وقضية الأسرة والعلاقات بين الجنسين قضية حاسمة في تحديد صفة المجتمع ... متخلف أم متحضر ، جاهلي أم إسلامي .. والمجتمعات التي تسود فيها القيم والأخلاق

والنزعات الحيوانية في هذه العلاقة لا يمكن أن تكون مجتمعات متحضرة مهما تبلغ من التفوق الصناعي والاقتصادي والعلمي . إن هذا المقياس لا يخطيء في قياس مدى التقدم « الإنساني » .

وفي المجتمعات الجاهلية الحديثة ينحسر المفهوم « الأخلاقي » بحيث يتخلى عن كل ما له علاقة بالتميز « الإنساني » عن الطابع « الحيواني » ففي هذه المجتمعات لا تعتبر العلاقات الجنسية غير الشرعية – ولا حتى العلاقات الجنسية الشاذة – رذيلة أخلاقية .. إن المفهوم الأخلاقي يكاد ينحصر في المعاملات الاقتصادية – والسياسية أحياناً في حدود « مصلحة الدولة » – ففضيحة كريستين كيلر وبروفيومو الوزير الإنجليزي – مثلاً – لم تكن في عرف المجتمع الإنجليزي فضيحة بسبب جانبها الجنسي . إنما كانت فضيحة لأن كريستين كيلر كانت صديقة كذلك للملحق البحري الروسي . ومن هنا يكون هناك خطر على أسرار الدولة في علاقة الوزير بهذه الفتاة وكذلك لأنه افتضح كذبه على البرلمان الإنجليزي والفضائح المماثلة في مجلس الشيوخ الأمريكي ، وفضائح الجواسيس والموظفين الإنجليز والأمريكان الذين هربوا إلى روسيا .. ليست فضائح بسبب شذوذهم الجنسي ولكن بسبب الخطر على أسرار الدولة .

والكتاب والصحفيون والروائيون في المجتمعات الجاهلية هنا وهناك يقولونها صريحة للفتيات والزوجات : إن الإتصالات (الحرة) ليست رذائل أخلاقية .. الرذيلة الأخلاقية أن يخدع الفتى رفيقته أو تخدع الفتاة رفيقها ولا تخلص له الود ، بل الرذيلة أن تحافظ الزوجة على عفتها إذا كانت شهوة الحب لزوجها قد خمدت ، والفضيلة أن تبحث لها عن صديق تعطيه جسدها بأمانة .. عشرات من القصص هذا محورها ومئات التوجيهات الإخبارية والرسوم الكاريكاتيرية والنكت والفكاهات هذه إيحاءاتها ..

مثل هذه المجتمعات مجتمعات متخلفة .. غير متحضرة .. من وجهة نظر « الإنسان » وبمقياس خط التقدم « الإنساني » ..

إن خط التقدم الإنساني يسير في اتجاه « الضبط » للنزوات الحيوانية ، وحصرها في نطاق « الأسرة » على أساس « الواجب » لتؤدي بذلك « وظيفة إنسانية » ليست اللذة غايتها وإنما هي إعداد جيل إنساني يخلف الجيل الحاضر في ميراث الحضارة « الإنسانية » التي يميزها بروز الخصائص الإنسانية ولا يمكن إعداد جيل يترقى في خصائص الإنسان

ويبتعد عن خصائص الحيوان إلا في محضن أسرة محوطة بضمانات الأمن والاستقرار العاطفي وقائمة على أساس الواجب الذي لا يتأرجح مع الانفعالات الطارئة . وفي المجتمع الذي تنشئه تلك التوجيهات والايحاءات الخبيثة المسمومة والذي ينحسر فيه المفهوم الأخلاقي فيتخلى عن كل آداب الجنس لا يمكن أن يقوم ذلك المحضن الإنساني .

من أجل ذلك كله تكون القيم والأخلاق والإيحاءات والضمانات الإسلامية هي اللائقة بالإنسان ويكون « الإسلام هو الحضارة » ويكون المجتمع الإسلامي هو المجتمع المتحضر .. بذلك المقياس الثابت الذي لا يتميع أو لا « يتطور » .

وأخيراً فإنه حين يقوم « الإنسان » بالخلافة عن « الله » في أرضه على وجهها الصحيح : بأن يخلص عبوديته لله ويخلص من العبودية لغيره . وأن يحقق منهج الله وحده ويرفض الاعتراف بشرعية منهج غيره . وأن يحكم شريعة الله وحدها في حياته كلها وينكر تحكيم شريعة سواها . وأن يعيش بالقيم والأخلاق التي قررها الله له ويسقط القيم والأخلاق المدعاة ، ثم بأن يتعرف بعد ذلك كله إلى النواميس الكونية التي أودعها الله هذا الكون المادي ويستخدمها في ترقية الحياة وفي استنباط خامات الأرض وأرزاقها وأقواتها التي أودعها الله إياها ، وجعل تلك النواميس الكونية أختامها ومنح الإنسان القدرة على فض هذه الاختام بالقدر الذي يلزم له في الخلافة .. أي حين ينهض بالخلافة في الأرض على عهد الله وشرطه ويصبح وهو يفجر ينابيع الرزق ويصنع المادة الخامة ويقيم الصناعات المتنوعة ويستخدم ما تتيحه له كل الخبرات الفنية التي حصل عليها الإنسان في تاريخه كله .. حين يصبح وهو يصنع هذا كله « ربانياً » يقوم بالخلافة عن الله — على هذا النحو — عبادة لله . يومئذ يكون هذا الإنسان كامل الحضارة ويكون هذا المجتمع قد بلغ قمة الحضارة .. فأما الإبداع المادي — وحده — فلا يسمى في الإسلام حضارة .. فقد يكون وتكون معه الجاهلية .. وقد ذكر الله من هذا الإبداع المادي في معرض وصف الجاهلية نماذج :

« أتبنون بكل ريع آية تعبثون ؟ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » — (الشعراء : ١٢٧ — ١٣٥) .

« أتتركون فيما ها هنا آمنين ؟ في جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم .

وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ؟ فاتقوا الله واطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون » (الشعراء : ١٤٦ – ١٥٢) .

« فلما نسوا ما ذُكِّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أُوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين ». – (الانعام ؛ ٤٣ – ٤٥) .

« حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس » . (يونس : ٢٤) .

ولكن الإسلام – كما أسلفنا – لا يحتقر المادة . ولا يحتقر الإبداع المادي ، وإنما هو يجعل هذا اللون من التقدم – في ظل منهج الله – نعمة من نعم الله على عباده ويبشرهم به جزاء على طاعته :

« فقلت : استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا » ... (نوح : ١٠ – ١٢) .

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » ... (الاعراف : ٩٦) .

المهم هو القاعدة التي يقوم عليها التقدم الصناعي والقيم التي تسود المجتمع . والتي يتألف من مجموعها خصائص الحضارة « الإنسانية » .

وبعد .. فإن قاعدة إنطلاق المجتمع الإسلامي ، وطبيعة تكوينه العضوي تجعلان منه مجتمعاً فريداً لا تنطبق عليه أية من النظريات التي تفسر قيام المجتمعات الجاهلية وطبيعة تكوينها العضوي .. المجتمع الإسلامي وليد الحركة ، والحركة فيه مستمرة وهي التي تعين أقدار الأشخاص فيه وقيمهم ومن ثم تحدد وظائفهم فيه ومراكزهم .

والحركة التي يتولد عنها هذا المجتمع ابتداء حركة آتية من خارج النطاق الأرضي ومن خارج المحيط البشري .. إنها تتمثل في عقيدة آتية من الله للبشر تنشيء لهم تصورا خاصاً للوجود والحياة والتاريخ والقيم والغايات وتحدد لهم منهجاً للعمل يترجم هذا التصور .. الدفعة الأولى التي تطلق الحركة ليست منبثقة من نفوس الناس ولا من مادة

الكون .. انها – كما قلنا – آتية من خارج النطاق الأرضي ومن خارج المحيط البشري .. وهذا هو المميز الأول لطبيعة المجتمع الإسلامي وتركيبه .

إنه ينطلق من عنصر خارج عن محيط الإنسان وعن محيط الكون المادي .

وبهذا العنصر القدري الغيبي الذي لم يكن أحد من البشر يتوقعه أو يحسب حسابه ودون أن يكون للإنسان يد فيه – في ابتداء الأمر – تبدأ أولى خطوات الحركة في قيام المجتمع الإسلامي . ويبدأ معها عمل « الإنسان » أيضاً .. إنسان يؤمن بهذه العقيدة . الآتية له من ذلك المصدر الغيبي الجارية بقدر الله وحده . وحين يؤمن هذا الإنسان الواحد بهذه العقيدة يبدأ وجود المجتمع الإسلامي (حكماً) .. إن الإنسان الواحد لن يتلقى هذه العقيدة وينطوي على نفسه .. إنه سينطلق بها .. هذه طبيعتها .. طبيعة الحركة الحية .. إن القوة العليا التي دفعت بها إلى هذا القلب تعلم أنها ستتجاوزه حتماً .. إن الدفعة الحية التي وصلت بها هذه العقيدة إلى هذا القلب ستمضي في طريقها قدماً .

وحين يبلغ المؤمنون بهذه العقيدة ثلاثة نفر فإن هذه العقيدة ذاتها تقول لهم : أنتم الآن مجتمع ، مجتمع إسلامي منفصل عن المجتمع الجاهلي الذي لا يدين لهذه العقيدة ولا تسود فيه قيمها الأساسية – القيم التي أسلفنا الإشارة إليها – وهنا يكون المجتمع الإسلامي قد وجد (فعلاً) .

والثلاثة يصبحون عشرة . والعشرة يصبحون مئة والمئة يصبحون الفاً . والالف يصبحون إثني عشر ألفاً . ويبرز ويتقرر وجود المجتمع الإسلامي .

وفي الطريق تكون المعركة قد قامت بين المجتمع الوليد الذي انفصل بعقيدتـه وتصوره ، وانفصل بقيمه واعتباراته وانفصل بوجوده وكينونته عن المجتمع الجاهلي – الذي أخذ منه أفراده – وتكون حركة من نقطة الانطلاق إلى نقطة الوجود البارز المستقل قد ميزت كل فرد من أفراد هذا المجتمع وأعطته وزنه ومكانه في هذا المجتمع حسب الميزان والاعتبار الإسلامي ويكون وزنه هذا معترفاً له به من المجتمع دون أن يزكي نفسه أو يعلن عنه ، بل إن عقيدته وقيمه السائدة في نفسه وفي مجتمعه لتضغط عليه يومئذ ليواري نفسه عن الأنظار المتطلعة إليه في البيئة .

ولكن « الحركة » التي هي طابع العقيدة الإسلامية . وطابع هذا المجتمع الذي

انبثق منها لا تدع أحداً يتوارى . إن كل فرد من أفراد هذا المجتمع لا بد أن يتحرك . الحركة في عقيدته والحركة في دمه والحركة في مجتمعه ، وفي تكوين هذا المجتمع العضوي . إن الجاهلية من حوله ، وبقية من رواسبها في نفسه وفي نفوس من حوله والمعركة مستمرة والجهاد ماض إلى يوم القيامة .

على إيقاعات الحركة وفي أثناء الحركة يتحدد وضع كل فرد في هذا المجتمع وتتحدد وظيفته ويتم التكوين العضوي لهذا المجتمع بالتناسق بين مجموعة أفراده ومجموعة وظائفه .

هذه النشأة وهذا التكوين خاصيتان من خصائص المجتمع الإسلامي تميزانه ، تميزان وجوده وتركيبه وتميزان طابعه وشكله . وتميزان نظامه والإجراءات التنفيذية لهذا النظام أيضاً وتجعلان هذه الملامح كلها مستقلة لا تعالج بمفهومات اجتماعية أجنبية عنها ، ولا تدرس ، وفق منهج غريب عن طبيعتها ولا تنفذ بإجراءات مستمدة من نظام آخر .

إن المجتمع الإسلامي – كما يبدو من تعريفنا المستقل للحضارة ليس بمجرد صورة تاريخية يبحث عنها في ذكريات الماضي إنما هو طلبة الحاضر وأمل المستقبل . إنه هدف يمكن أن تستشرفه البشرية كلها اليوم وغداً ، لترتفع به من وهدة الجاهلية التي تتردى فيها سواء في هذه الجاهلية المتقدمة صناعياً واقتصادياً والأمم المتخلفة أيضاً .

إن تلك القيم التي أشرنا إليها إجمالاً هي قيم إنسانية لم تبلغها الإنسانية إلا في فترة « الحضارة الإسلامية » (ويجب أن ننبه إلى ما نعنيه بمصطلح « الحضارة الإسلامية » .. إنها الحضارة التي توافرت فيها تلك القيم وليست هي كل تقدم صناعي أو اقتصادي أو علمي مع تخلف تلك القيم عنها) .

وهذه القيم ليست « مثالية خيالية » إنما هي قيم واقعية عملية . يمكن تحققها بالجهد البشري – في ظل المفهومات الإسلامية الصحيحة – يمكن تحقيقها في كل بيئة بغض النظر عن نوع الحياة السائد فيها وعن تقدمها الصناعي والاقتصادي والعلمي .. فهي لا تعارض – بل تشجع بالمنطق العقيدي ذاته – التقدم في كافة حقول الخلافة ولكنها في الوقت ذاته لا تقف مكتوفة اليدين في البلاد التي لم تتقدم في هذه الحقول بعد . إن الحضارة يمكن أن تقوم في كل مكان وفي كل بيئة .. تقوم بهذه القيم .. أما أشكالها المادية

التي تتخذها فلا حد لها لأنها في كل بيئة تستخدم القدرات الموجودة بها فعلاً وتنميها .

المجتمع الإسلامي إذن ـ من ناحية شكله وحجمه ونوع الحياة السائدة فيه ـ ليس صورة تاريخية ثابتة ، لكن وجوده وحضارته يرتكنان إلى قيم تاريخية ثابتة .. وحين نقول « تاريخية » لا نعني إلا أن هذه القيم قد عرفت في تاريخ معين . وإلا فهي ليست من صنع التاريخ ولا علاقة لها بالزمن في طبيعتها .. إنها حقيقة جاءت إلى البشرية من مصدر رباني .. من وراء الواقع البشري . ومن وراء الوجود المادي أيضاً .

والحضارة الإسلامية يمكن أن تتخذ أشكالاً متنوعة في تركيبها المادي والتشكيلي . ولكن الأصول والقيم التي تقوم عليها ثابتة لأنها هي مقومات هذه الحضارة : (العبودية لله وحده . والتجمع على آصرة العقيدة فيه . واستعلاء إنسانية الإنسان على المادة . وسيادة القيم الإنسانية التي تنمي إنسانية الإنسان لا حيوانيته . وحرمة الأسرة . والخلافة في الأرض على عهد الله وشرطه .. وتحكيم منهج الله وشريعته وحدها في شؤون هذه الخلافة) .

إن « أشكال » الحضارة الإسلامية التي تقوم على هذه الأسس الثابتة ، تتأثر بدرجة التقدم الصناعي والاقتصادي والعلمي . لأنها تستخدم الموجود منها فعلاً في كل بيئة .. ومن ثم لا بد أن تختلف أشكالها .. لا بد أن تختلف لتضمن المرونة الكافية لدخول كافة البيئات والمستويات في الإطار الإسلامي والتكيف بالقيم والمقومات الإسلامية .. وهذه المرونة ـ في الأشكال الخارجية للحضارة ـ ليست مفروضة على العقيدة الإسلامية التي تنبثق منها تلك الحضارة إنما هي من طبيعتها .. ولكن المرونةليست هي التميع .. والفرق بينهما بعيد جداً .

لقد كان الإسلام ينشيء الحضارة في أواسط إفريقية بين العراة .. لأنه بمجرد وجوده هناك تكتسي الأجسام العارية ويدخل الناس في حضارة اللباس التي يتضمنها التوجيه الإسلامي المباشر . ويبدأ الناس في الخروج كذلك من الخمول البليد إلى نشاط العمل الموجه لاستغلال كنوز الكون المـــادي . ويمرون كذلك من طور القبيلة ـ أو العشيرة ـ إلى طور الأمة . وينتقلون من عبادة الطوطم المنعزلة إلى عبادة رب العالمين .. فما هي الحضارة إن لم تكن هي هذا ؟ .. إنها حضارة هذه البيئة التي تعتمد على إمكانياتها القائمة فعلاً .. فأما حين يدخل الإسلام في بيئة أخرى فإنه ينشيء ـ بقيمه الثابتة ـ شكلاً آخر من أشكال الحضارة تستخدم فيه موجودات هذه البيئة وإمكانياتها الفعلية وينميهـــا .

وهكذا لا يتوقف قيام الحضارة ــ بطريقة الإسلام ومنهجه ــ على درجة معينة من التقدم الصناعي والاقتصادي والعلمي . وإن كانت الحضارة حين تقوم تستخدم هذا التقدم ــ عند وجوده ــ وتدفعه إلى الأمام دفعاً وترفع أهدافه . كما أنها تنشئه إنشاء حين لا يكون ، وتكفل نموه واطراده .. ولكنها تظل في كل حال قائمة على أصولها المستقلة ويبقى للمجتمع الإسلامي طابعه الخاص وتركيبه العضوي الناشئان عن نقطة انطلاقه الأولى التي يتميز بها من كل مجتمعات الجاهلية ..

« صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ؟ » .. ــ (البقرة : ١٣٨) .

(ب) التصور الإسلامي والثقافة

العبودية المطلقة لله وحده هي الشطر الأول لركن الإسلام الأول ، فهي المدلول المطابق لشهادة أن لا إله إلا الله ، والتلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الشطر الثاني لهذا الركن ، فهو المدلول المطابق لشهادة أن محمداً رسول الله ــ كما جاء في فصل : « لا إله إلا الله منهج حياة » ..

والعبودية المطلقة لله وحده تتمثل في اتخاذ الله وحده إلهاً . عقيدة وعبادة وشريعة .. فلا يعتقد المسلم أن « الألوهية » تكون لأحد غير الله ــ سبحانه ــ ولا يعتقد أن « العبادة » تكون لغيره من خلقه ولا يعتقد أن « الحاكمية » تكون لأحد من عباده كما جاء في ذلك الفصل أيضاً .

ولقد أوضحنا هناك مدلول العبودية والاعتقاد والشعائر والحاكمية وفي هذا الفصل نوضح مدلول الحاكمية وعلاقته بالثقافة .

إن مدلول « الحاكمية » في التصور الإسلامي لا ينحصر في تلقي الشرائع القانونية من الله وحده . والتحاكم إليها وحدها والحكم بها دون سواها .. إن مدلول « الشريعة » في الإسلام لا ينحصر في التشريعات القانونية ولا حتى في أصول الحكم ونظامه وأوضاعه ، إن هذا المدلول الضيق لا يمثل مدلول « الشريعة » والتصور الإسلامي .

إن « شريعة الله » تعني كل ما شرعه لتنظيم الحياة البشرية .. وهذا يتمثل في أصول الإعتقاد وأصول الحكم وأصول الأخلاق وأصول السلوك وأصول المعرفة أيضاً .

يتمثل في الاعتقاد والتصور – بكل مقومات هذا التصور – تصور حقيقة الألوهية وحقيقة الكون غيبه وشهوده وحقيقة الحياة غيبها وشهودها وحقيقة الإنسان والارتباطات بين هذه الحقائق كلها وتعامل الإنسان معها . ويتمثل في الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأصول التي تقوم عليها لتتمثل فيها العبودية الكاملة لله وحده . ويتمثل في التشريعات القانونية التي تنظم هذه الأوضاع وهو ما يطلق عليه إسم « الشريعة » غالباً بمعناها الضيق الذي لا يمثل حقيقة مدلولها في التصور الإسلامي . ويتمثل في قواعد الأخلاق والسلوك وفي القيم والموازين التي تسود المجتمع ويقوم بها الأشخاص والأشياء والأحداث في الحياة الاجتماعية . ثم .. يتمثل في « المعرفة بكل جوانبها وفي أصول النشاط الفكري والفني جملة » .

وفي هذا كله لا بد من التلقي عن الله كالتلقي في الأحكام الشرعية – بمدلولها الضيق المتداول – سواء بسواء .. والأمر في « الحاكمية في مدلولها المختص بالحكم والقانون – قد يكون الآن مفهوماً بعد الذي سقناه بشأنه من تقريرات » .

والأمر في قواعد الأخلاق والسلوك وفي القيم والموازين التي تسود المجتمع قد يكون مفهوماً كذلك إلى حد ما . إذ أن القيم والموازين وقواعد الأخلاق والسلوك التي تسود في مجتمع ما ترجع مباشرة إلى التصور الاعتقادي السائد في هذا المجتمع وتتلقى من ذات المصدر الذي تتلقى منه حقائق العقيدة التي يتكيف بها ذلك التصور . أما الأمر الذي قد يكون غريباً – حتى على قراء مثل هذه البحوث الإسلامية – فهو الرجوع في شأن النشاط الفكري والفني إلى التصور الإسلامي وإلى مصدره الرباني .

وفي النشاط الفني صدر كتاب كامل يتضمن بيان هذه القضية باعتبار أن النشاط الفني كله هو تعبير إنساني عن تصورات الإنسان وانفعالاته واستجاباته وعن صورة الوجود والحياة في نفس إنسانية .. وهذه كلها يحكمها – بل ينشئها – في النفس المسلمة تصورها الإسلامي بشموله لكل جوانب الكون والنفس والحياة ، وعلاقتها بباريء الكون والنفس والحياة وبتصورها خاصة لحقيقة هذا الإنسان ومركزه في الكون وغاية وجوده ووظيفته وقيم حياته ... وكلها متضمنة في التصور الإسلامي الذي ليس هو مجرد تصور فكري إنما هو تصور اعتقادي حي موح مؤثر فعال دافع مسيطر على كل انبعاث

في الكيان الإنساني[1] .

فأما قضية النشاط الفكري وضرورة رد هذا النشاط إلى التصور الإسلامي ومصدره الرباني تحقيقاً للعبودية الكاملة لله وحده فهذه هي القضية التي تقتضي منا بياناً كاملاً لأنها قد تكون بالقياس إلى قراء هذا الزمان — حتى للمسلمين منهم الذين يرون حتمية رد الحاكمية والتشريع لله وحده — غريبة أو غير مطروقة .

إن المسلم لا يملك أن يتلقى في أمر يختص بحقائق العقيدة أو التصور العام للوجود أو يختص بالعبادة أو يختص بالخلق والسلوك والقيم والموازين أو يختص بالمبادىء والأصول في النظام السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو يختص بتفسير بواعث النشاط الإنساني وبحركة التاريخ الإنساني .. إلا من ذلك المصدر الرباني ولا يتلقى في هذا كله إلا عن مسلم يثق في دينه وتقواه ومزاولته لعقيدته في واقع الحياة . ولكن المسلم يملك أن يتلقى في العلوم البحتة كالكيمياء والطبيعة والأحياء والفلك والطب والصناعة والزراعة وطرق الإدارة — من الناحية الفنية والإدارية البحتة — وطرق العمل الفنية وطرق الحرب والقتال — من الجانب الفني — إلى آخر ما يشبه هذا النشاط .. يملك أن يتلقى في هذا كله عن المسلم وغير المسلم .. وإن كان الأصل في المجتمع المسلم حين يقوم أن يسعى لتوفير هذه الكفايات في هذه الحقول كلها باعتبارها فروض كفاية يجب أن يتخصص فيها أفراد منه وإلا أثم المجتمع كله إذا لم يوفر هذه الكفايات ولم يوفر لها الجو الذي تتكون فيه وتعيش وتعمل وتنتج؛ ولكن إلى أن يتحقق هذا فإن للفرد المسلم أن يتلقى في هذه العلوم البحتة وتطبيقاتها العملية من المسلم وغير المسلم وأن ينتفع فيها بجهد المسلم وغير المسلم وأن يشغل فيها المسلم وغير المسلم .. لأنها من الأمور الداخلة في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » .. وهي لا تتعلق بتكوين تصور المسلم عن الحياة والكون والإنسان وغاية وجوده وحقيقة وظيفته ونوع ارتباطاته بالوجود من حوله وبخالق الوجود كله ولا تتعلق بالمبادىء والشرائع والأنظمة والأوضاع التي تنظم حياته أفراداً وجماعات . ولا تتعلق بالأخلاق والآداب والتقاليد والعادات والقيم والموازين التي تسود مجتمعه وتؤلف ملامح هذا المجتمع . ومن ثم فلا خطر فيها من زيغ عقيدته أو ارتداده إلى الجاهلية .

---

١ — كتاب — منهج الفن الاسلامي — لمحمد قطب .

فأما ما يتعلق بتفسير النشاط الإنساني كله أفراداً أو مجتمعات – وهو المتعلق بالنظرة إلى « نفس » الإنسان وإلى « حركة تاريخه » وما يختص بتفسير نشأة هذا الكون ونشأة الحياة ونشأة هذا الإنسان ذاته – من ناحية ما وراء الطبيعة – (وهو ما لا تتعلق به العلوم البحتة من كيمياء وطبيعة وفلك وطب .. الخ) فالشأن فيه شأن الشرائع القانونية والمبادىء والأصول التي تنظم حياته ونشاطه مرتبط بالعقيدة ارتباطاً مباشراً فلا يجوز للمسلم أن يتلقى فيه إلا عن مسلم يثق في دينه وتقواه ويعلم عنه أنه يتلقى في هذا كله عن الله .. والمهم أن يرتبط هذا في حس المسلم بعقيدته وأن يعلم أن هذا مقتضى عبوديته لله وحده . أو مقتضى شهادته : أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

إنه يطلع على كل آثار النشاط الجاهلي . ولكن لا ليكون منه تصوره ومعرفته في هذه الشؤون كلها . إنما ليعرف كيف تنحرف الجاهلية وليعرف كيف يصحح ويقوم هذه الإنحرافات البشرية بردها إلى أصولها الصحيحة في مقومات التصور الإسلامي وحقائق العقيدة الإسلامية .

إن اتجاهات « الفلسفة » بجملتها . واتجاهات « تفسير التاريخ الإنساني » بجملتها . واتجاهات « علم النفس » بجملتها – عدا الملاحظات والمشاهدات دون التفسيرات العامة لها – ومباحث « الأخلاق» بجملتها . واتجاهات دراسة « الأديان المقارنة » بجملتها . واتجاهات« التفسيرات والمذاهب الاجتماعية » بجملتها – فيما عدا المشاهدات والإحصائيات والمعلومات المباشرة ، لا النتائج العامة المستخلصة منها ولا التوجيهات الكلية الناشئة عنها – إن هذه الاتجاهات كلها هي الفكر الجاهلي – أي غير الإسلامي – قديماً وحديثاً متأثرة تأثراً مباشراً بتصورات اعتقادية جاهلية وقائمة على هذه التصورات . ومعظمها – إن لم يكن كلها – يتضمن في أصوله المنهجية عداء ظاهراً أو خفياً للتصور الديني جملة والتصور الإسلامي على وجه خاص .

والأمر في هذه الألوان من النشاط الفكري – والعلمي – ليس كالأمر في علوم الكيمياء والطبيعة والفلك والأحياء والطب – وما إليها – ما دامت هذه في حدود التجربة الواقعية وتسجيل النتائج الواقعية دون أن تجاوز هذه الحدود إلى التفسير الفلسفي في صورة من صوره وذلك كتجاوز الداروينية مثلاً لمجال إثبات المشاهدات وترتيبها في علم الأحياء إلى مجال القول – بغير دليل وبغير حاجة للقول كذلك إلا الرغبة والهوى –

إنه لا ضرورة لافتراض وجود قوة خارجـــة عن العالم الطبيعي لتفسير نشأة الحياة وتطورها .

إن حكاية أن « الثقافة تراث إنساني » لا وطن لهولا جنس ولا دين .. هي حكاية صحيحة عندما تتعلق بالعلوم البحتة وتطبيقاتها العلمية ــ دون أن نجاوز هذه المنطقة إلى التفسيرات الفلسفية « الميتافيزيقية » لنتائج هذه العلوم ولا الى التفسيرات الفلسفية لنفس الإنسان ونشاطه وتاريخه . ولا إلى الفن والأدب والتعبيرات الشعورية جميعاً ولكنها فيما وراء ذلك إحدى مصايد اليهود العالمية التي يهمها تمييع الحواجز كلها ــ بما في ذلك ، بل في أول ذلك حواجز العقيدة والتصور ــ لكي ينفذ اليهود إلى جسم العالم كله . وهو مسترخ مخدر يزاول اليهود فيه نشاطهم الشيطاني . وفي أوله نشاطهم الربوي الذي ينتهي إلى جعل حصيلة كد البشرية كلها تؤول إلى أصحاب المؤسسات المالية الربوية من اليهود .

ولكن الإسلام يعتبر أن هناك ــ فيما وراء العلوم البحتة وتطبيقاتها العلمية ــ نوعين اثنين من الثقافة : الثقافة الإسلامية القائمة على قواعد التصور الإسلامي . والثقافة الجاهلية القائمة على مناهج شتى ترجع كلها إلى قاعدة واحدة .. قاعدة إقامة الفكر البشري إلها لا يرجع إلى الله في ميزانه .. والثقافة الإسلامية شاملة لكل حقول النشاط الفكري والواقعي الإنساني وفيها من القواعد والمناهج والخصائص ما يكفل نمو هذا النشاط وحيويته دائماً .

ويكفي أن نعلم أن الإتجاه التجريبي الذي قامت عليه الحضارة الصناعية الأوربية الحاضرة لم ينشأ ابتداء في أوربا وانما نشأ في الجامعات الإسلامية في الأندلس والمشرق مستمداً أصوله من التصور الإسلامي وتوجيهاته إلى الكون وطبيعته الواقعية ومدخراته وأقواته .. ثم استقلت النهضة العلمية في أوربا بهذا المنهج واستمرت تنميه وترقيه . بينما ركد وترك نهائياً في العالم الإسلامي بسبب بعد هذا العالم تدريجياً عن الإسلام بفعل عوامل بعضها كامن في تركيب المجتمع وبعضها يتمثل في الهجوم عليه من العالم الصليبي والصهيوني .. ثم قطعت أوربا ما بين المنهج الذي اقتبسته وبين أصوله الاعتقادية الإسلامية وشردت به نهائياً بعيداً عن الله في أثناء شرودها عن الكنيسة الـــتي كانت

تستطيل على الناس – بغياً وعدواناً – باسم الله[1] .

وكذلك أصبح نتاج الفكر الأوربي بجملته – شأنه شأن نتاج الفكر الجاهلي في جميع الأزمان في جميع البقاع – شيئاً آخر ذا طبيعة مختلفة من أساسها عن مقومات التصور الإسلامي . ومعادية في الوقت ذاته عداء أصيلاً للتصور الإسلامي .. ووجب على المسلم أن يرجع إلى مقومات تصوره وحدها وألا يأخذ إلا من المصدر الرباني إن استطاع بنفسه وإلا فلا يأخذ إلا عن مسلم تقي يعلم عن دينه وتقواه ما يطمئنه إلى الأخذ عنه .

إن حكاية فصل « العلم » عن « صاحب العلم » لا يعرفها الإسلام فيما يختص بكل العلوم المتعلقة بمفهومات العقيدة المؤثرة في نظرة الإنسان إلى الوجود والحياة والنشاط الإنساني والأوضاع والقيم والأخلاق والعادات وسائر ما يتعلق بنفس الإنسان ونشاطه من هذه النواحي .

إن الإسلام يتسامح في أن يتلقى المسلم عن غير المسلم أو عن غير التقي من المسلمين في علم الكيمياء البحتة أو الطبيعة او الفلك أو الطب أو الصناعة أو الزراعة أو الأعمال الإدارية والكتابية .. وأمثالها . وذلك في الحالات التي لا يجد فيها مسلماً تقياً يأخذ عنه في هذا كله (– كما هو واقع من يسمون أنفسهم المسلمين اليوم ، الناشيء من بعدهم عن دينهم ومنهجهم ، وعن التصور الإسلامي لمقتضيات الخلافة في الأرض – بإذن الله – وما يلزم لهذه الخلافة) من هذه العلوم والخبرات والمهارات المختلفة .. ولكنه لا يتسامح في أن يتلقى أصول عقيدته . ولا مقومات تصوره . ولا تفسير قرآنه وسيرة نبيه . ولا منهج تاريخه وتفسير نشاطه . ولا مذهب مجتمعه . ولا نظام حكمه . ولا منهج سياسته . ولا موحيات فنه وأدبه وتعبيره ... الخ . من مصادر غير إسلامية . ولا أن يتلقى عن غير مسلم يثق في دينه وتقواه في شيء من هذا كله .

إن الذي يكتب هذا الكلام إنسان عاش يقرأ أربعين سنة كاملة . كان عمله الأول فيها هو القراءة والاطلاع في معظم حقول المعرفة الإنسانية .. ما هو من تخصصه وما هو من هواياته .. ثم عاد إلى مصادر عقيدته وتصوره . فإذا هو يجد كل ما قرأه ضئيلاً ضئيلاً الى جانب ذلك الرصيد الضخم – وما كان يمكن أن يكون إلا كذلك – وما

---

١ – راجع فصل : « الفصام النكد » في كتاب : المستقبل لهذا الدين .

هو بنادم على ما قضى فيه أربعين سنة من عمره . فإنما عرف الجاهلية على حقيقتها . وعلى انحرافها . وعلى ضآلتها . وعلى قزامتها .. وعلى جعجعتها وانتفاشها وعلى غرورها وادعائها كذلك ، وعلم علم اليقين أنه لا يمكن أن يجمع المسلم بين هذين المصدرين في التلقي .

ومع ذلك فليس الذي سبق في هذه الفقرة رأياً لي أبديه .. إن الأمر أكبر من أن يفتى فيه بالرأي .. إنه أثقل في ميزان الله من أن يعتمد المسلم فيه على رأيه إنما هو قول الله — سبحانه — وقول نبيه صلى الله عليه وسلم .. نحكمه في هذا الشأن ونرجع فيه إلى الله والرسول كما يرجع الذين آمنوا إلى الله والرسول فيما يختلفون فيه .

يقول الله — سبحانه عن الهدف النهائي لليهود والنصارى في شأن المسلمين بصفة عامة : « ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير » .. — (البقرة : ١٠٩) .

« ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . قل : إن هدى الله هو الهدى . ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير » .. — (البقرة : ١٢٠) .

« يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » .. — (آل عمران : ١٠٠) .

ويقول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيما رواه الحافظ أبو يعلى عن حماد عن الشعبي عن جابر — رضي الله عنهم — « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء .. فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا . وإنكم إما أن تصدقوا بباطل ، وإما أن تكذبوا بحق وانه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني » .

وحين يتحدد الهدف النهائي لليهود والنصارى في شأن المسلمين على ذلك النحو القاطع الذي يقرره الله سبحانه يكون من البلاهة الظن لحظة بأنهم يصدرون عن نية طيبة في أي مبحث من المباحث المتعلقة بالعقيدة الإسلامية ، أو التاريخ الإسلامي . أو التوجيه في نظام المجتمع المسلم أو في سياسته أو اقتصاده أو يقصدون إلى خير أو

إلى هدى أو إلى نور ... والذين يظنون ذلك فيما عند هؤلاء الناس — بعد تقرير الله سبحانه — إنما هم الغافلون .

كذلك يتحدد من قول الله سبحانه : « قل : إن هدى الله هو الهدى » .. المصدر الوحيد الذي يجب على المسلم الرجوع إليه في هذه الشؤون . فليس وراء هدى الله إلا الضلال . وليس في غيره هدى . كما تفيد صيغة القصر الواردة في النص : « قل : إن هدى الله هو الهدى » .. ولا سبيل إلى الشك في مدلول هذا النص ولا إلى تأويله كذلك .

كذلك يرد الأمر القاطع بالإعراض عمن يتولى عن ذكر الله بقصر اهتمامه على شؤون الحياة الدنيا . وينص على أن مثل هذا لا يعلم إلا ظناً . والمسلم منهي عن اتباع الظن . وإنه لا يعلم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا فهو لا يعلم علماً صحيحاً .

« فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله . وهو أعلم بمن اهتدى » .. — (النجم : ٢٩ — ٣٠) .

« يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » .. — (الروم : ٧) .

والذي يغفل عن ذكر الله ولا يريد إلا الحياة الدنيا — وهو شأن جميع « العلماء » اليوم — لا يعلم إلا هذا الظاهر . وليس هذا هو « العلم » الذي يثق المسلم في صاحبه فيتلقى عنه في كل شأنه إنما يجوز أن يتلقى عنه في حدود علمه المادي البحت ولا يتلقى منه تفسيراً ولا تأويلاً عاماً للحياة أو النفس ، أو متعلقاتها التصورية .. كما أنه ليس هو العلم الذي تشير إليه الآيات القرآنية وتثني عليه كقوله تعالى : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » كما يفهم الذين ينتزعون النصوص القرآنية من سياقها ليستشهدوا بها في غير مواضعها فهذا السؤال التقريري وارد في آية هذا نصها الكامل : « أم من هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ؟ قل : هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب» .. (الزمر : ٩) .

فهذا القانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه .. هو الذي

يعلم .. وهذا هو العلم الذي تشير إليه الآية . العلم الذي يهدي إلى الله وتقواه . لا العلم الذي يفسد الفطر فتلحد في الله .

إن العلم ليس مقصوراً على علم العقيدة والفرائض الدينية والشرائع .. فالعلم يشتمل كل شيء . ويتعلق بالقوانين الطبيعية وتسخيرها في خلافة الأرض تعلقه بالعقيدة والفرائض والشرائع .. ولكن العلم الذي ينقطع عن قاعدته الإيمانية ليس هو العلم الذي يعنيه القرآن ، ويثني على أهله . إن هناك ارتباطاً بين القاعدة الإيمانية وعلم الفلك وعلم الأحياء وعلم الطبيعة وعلم الكيمياء وعلم طبقات الأرض .. وسائر العلوم المتعلقة بالنواميس الكونية والقوانين الحيوية .. إنها كلها تؤدي إلى الله حين لا يستخدمها الهوى المنحرف للابتعاد عن الله .. كما اتجه المنهج الأوربي في النهضة العلمية – مع الأسف – بسبب تلك الملابسات النكدة التي قامت في التاريخ الأوربي خاصة بين المشتغلين بالعلم وبين الكنيسة الغاشمة . ثم ترك آثاره العميقة في مناهج الفكر الأوربي كلها وفي طبيعة التفكير الأوربي وترك تلك الرواسب المسممة بالعداء لأصل التصور الديني جملة – لا لأصل التصور الكنسي وحده ولا للكنيسة وحدها – في كل ما أنتجه الفكر الأوربي في كل حقل من حقول المعرفة . سواء كانت فلسفة ميتافيزيقية أو كانت بحوثاً علمية بحتة لا علاقة لها – في الظاهر – بالموضوع الديني [1] .

وإذا تقرر أن مناهج الفكر الغربي ونتاج هذا الفكر في كل حقول المعرفة يقوم ابتداء على أساس تلك الرواسب المسممة بالعداء لأصل التصور الديني جملة فإن تلك المناهج وهذا النتاج أشد عداء للتصور الإسلامي خاصة لأنه يتعمد هذا العداء بصفة خاصة ويتحرى في حالات كثيرة – في خطة متعمدة – تمييع العقيدة والتصور والمفهومات الإسلامية ثم تحطيم الأسس التي يقوم عليها تميز المجتمع المسلم في كل مقوماته .

ومن ثم يكون من الغفلـة المزرية الاعتماد عـلى مناهج الفكر الغربي وعلى نتاجه كذلك في الدراسات الإسلامية .. ومن ثم تجب الحيطة كذلك في أثناء دراسة العلوم البحتة – التي لا بد لنا في موقفنا الحاضر من تلقيها من مصادرها الغربية – من أية ظلال فلسفية تتعلق بها لأن هذه الظلال معادية في أساسها للتصور الديني جمـلة والتصور

---

١ – يراجع فصل : « الفصام النكد » في كتاب : « المستقبل لهذا الدين » .

الإسلامي بصفة خاصة . وأي قدر منها يكفي لتسميم الينبوع الإسلامي الصافي .. ا هـ .

* * *

٤ ــ وإن الإيمان بأنه لا إله إلا الله محمد رسول الله ينتج عنه الاستعلاء الحق : يقول تعالى : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .. يقول صاحب كتاب /معالم في الطريق / تحت عنوان : « استعلاء الإيمان » بعد أن يصدر بحثه بالآية السابقة ما يلي :

أول ما يتبادر إلى الذهن من هذا التوجيه أنه ينصب على حالة الجهاد الممثلة في القتال .. ولكن حقيقة هذا التوجيه ومداه أكبر وأبعد من هذه الحالة المفردة بكل ملابساتها الكثيرة .

إنه يمثل الحالة الدائمة التي ينبغي أن يكون عليها شعور المؤمن وتصوره وتقديره للأشياء والأحداث والقيم والأشخاص سواء .

إنه يمثل حالة الاستعلاء التي يجب أن تستقر عليها نفس المؤمن إزاء كل شيء ، وكل وضع ، وكل قيمة ، وكل أحد . الاستعلاء بالإيمان وقيمه على جميع القيم المنبثقة من أصل غير أصل الإيمان .

الاستعلاء على قوى الأرض الحائدة عن منهج الإيمان . وعلى قيم الأرض التي لم تنبثق من أصل الإيمان . وعلى قوانين الأرض التي لم يشرعها الإيمان . وعلى أوضاع الأرض التي لم ينشئها الإيمان .

الاستعلاء .. مع ضعف القوة وقلة العدد وفقر المال كالاستعلاء مع القوة والكثرة والغنى على السواء .

الاستعلاء الذي لا يتهاوى أمام قوة باغية ولا عرف اجتماعي ولا تشريع باطل ولا وضع مقبول عند الناس ولا سند له من الإيمان .

وليست حالة التماسك والثبات في الجهاد إلا حالة واحدة من حالات الاستعلاء التي يشملها هذا التوجيه الإلهي العظيم .

والاستعلاء بالايمان ليس مجرد عزمة مفردة ولا نخوة دافعة ولا حماسة فائرة. إنما هو الاستعلاء القائم على الحق الثابت المركوز في طبيعة الوجود. الحق الباقي وراء منطق القوة وتصور البيئة واصطلاح المجتمع وتعارف الناس لأنه موصل بالله الحي الذي لا يموت.

إن للمجتمع منطقه السائد وعرفه العام وضغطه الساحق ووزنه الثقيل.. على من ليس يحتمي منه بركن ركين وعلى من يواجهه بلا سند متين.. وللتصورات السائدة والأفكار الشائعة إيحاؤهما الذي يصعب التخلص منه بغير الاستقرار على حقيقة تصغر في ظلها تلك التصورات والأفكار والاستمداد من مصدر أعلى من مصدرها وأكبر وأقوى.

والذي يقف في وجه المجتمع ومنطقه السائد وعرفه العام وقيمه واعتباراته وأفكاره وتصوراته وانحرافاته ونزواته.. يشعر بالغربة كما يشعر بالوهن ما لم يكن يستند إلى سنة أقوى من الناس وأثبت من الأرض وأكرم من الحياة.

والله لا يترك المؤمن وحيداً يواجه الضغط وينوء به الثقل ويهده الوهن والحزن ومن ثم يجيء هذا التوجيه: «ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين»... — (آل عمران: ١٣٩).

يجيء هذا التوجيه ليواجه الوهن كما يواجه الحزن وهما الشعوران المباشران اللذان يساوران النفس في هذا المقام.. يواجههما بالاستعلاء لا بمجرد الصبر والثبات. الاستعلاء الذي ينظر من عل إلى القوى الطاغية والقيم السائدة والتصورات الشائعة والاعتبارات والأوضاع والتقاليد والعادات والجماهير المجتمعة على الضلال.

إن المؤمن هو الأعلى.. الاعلى سنداً ومصدراً.. فما تكون الأرض كلها؟ وما يكون الناس؟ وما تكون القيم السائدة في الأرض؟ والاعتبارات الشائعة عند الناس؟ وهو من الله يتلقى وإلى الله يرجع وعلى منهجه يسير؟.

وهو الأعلى إدراكاً وتصوراً لحقيقة الوجود.. فالإيمان بالله الواحد في هذه الصورة التي جاء بها الإسلام هو أكمل صورة للمعرفة بالحقيقة الكبرى. وحين تقاس هذه الصورة إلى ذلك الركام من التصورات والعقائد والمذاهب. سواء ما جاءت به الفلسفات

الكبرى قديماً وحديثاً وما انتهت إليه العقائد الوثنية والكتابية الحرفة . وما اعتسفته المذاهب المادية الكالحة .. حين تقاس هذه الصورة المشرقة الواضحة الجميلة المتناسقة إلى ذلك الركام وهذه التعسفات تتجلى عظمة العقيدة الإسلامية كما لم تتجل قط وما من شك أن الذين يعرفون هذه المعرفة هم الأعلون على كل من هناك[1] .

وهو الأعلى تصوراً للقيم والموازين التي توزن بها الحيـاة والأحداث والأشياء والأشخاص فالعقيدة المنبثقة من المعرفة بالله بصفاته كما جاء بها الإسلام ومن المعرفة بحقائق القيم في الوجود الكبير لا في ميدان الأرض الصغير . هذه العقيدة من شأنها أن تمنح المؤمن تصوراً أعلى وأضبط من تلك الموازين المختلة في أيدي البشر الذين لا يدركون إلا ما تحت أقدامهم . ولا يثبتون على ميزان واحد في الجيل الواحد ، بل في الأمة الواحدة . بل في النفس الواحدة من حين إلى حين .

وهو الأعلى ضميراً وشعوراً ، وخلقاً وسلوكاً .. فإن عقيدته في الله ذي الأسماء الحسنى والصفات المثلى هي بذاتها موحية بالرفعة والنظافة والطهارة والعفة والتقوى والعمل الصالح والخلافة الراشدة . فضلاً على ايحاء العقيدة عن الجزاء في الآخرة ، الجزاء الذي تهون أمامه متاعب الدنيا وآلامها جميعاً . ويطمئن إليه ضمير المؤمن ولو خرج من الحياة الدنيا بغير نصيب .

وهو الأعلى شريعة ونظاماً . وحين يراجع المؤمن كل ما عرفته البشرية قديماً وحديثاً ويقيسه إلى شريعته ونظامه فسيراه كله أشبه شيء بمحاولات الأطفال وخبط العميان إلى جانب الشريعة الناضجة والنظام الكامل . وسينظر إلى البشرية الضالة من عل في عطف وإشفاق على بؤسها وشقوتها ولا يجد في نفسه إلا الاستعلاء على الشقوة والضلال .

وهكذا كان المسلمون الأوائل يقفون أمام المظاهر الجوفاء . والقوى المتنفجة والاعتبارات التي كانت تتعبد الناس في الجاهلية .. والجاهلية ليست فترة من الزمان إنما هي حالة من الحالات تتكرر كلما انحرف المجتمع عن نهـج الإسلام في الماضي والحاضر والمستقبل على السواء .

هكذا وقف المغيرة بن شعبة أمام صور الجاهلية وأوضاعها قيمها وتصوراتها في

---

١ – يراجع فصل « تيه وركام » في كتاب : « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته » .

معسكر رستم قائد الفرس المشهور « عن أبي عثمان النهدي قال : لما جاء المغيرة إلى القنطرة فعبرها إلى أهل فارس أجلسوه فاستأذنوا رستم في إجازته ولم يغيروا شيئاً من شارتهم تقوية لتهاونهم فأقبل المغيرة بن شعبه والقوم في زيهم عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبسطهم على غلوة (والغلوة مسافة رمية سهم وتقدر بثلاثمائة أو أربعمائة خطوة) لا يصل إلى صاحبهم حتى يمشي عليها غلوة وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشي حتى جلس على سريره ووسادته فوثبوا عليه فترتروه وأنزلوه ومغثوه[1] فقال : كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوماً أسفه منكم . إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محارباً لصاحبه فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض ، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم ، فلا نصنعه ، ولم آتكم ولكن دعوتموني. اليوم علمت أن أمركم مضمحل ، وأنكم مغلوبون ، وأن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ، ولا على هذه العقول » ..

كذلك وقف ربعي بن عامر مع رستم هذا وحاشيته قبل وقعة القادسية .

« أرسل سعد بن أبي وقاص قبل القادسية ربعي بن عامر رسولاً إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابي الحرير[2] وأظهر اليواقيت واللآليء الثمينة العظيمة وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب . ودخل ربعي بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة . ولم يزل راكبها حتى داس بها طرف البساط . ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد . وأقبل وعليه سلاحه وبيضته على رأسه . فقالوا له : ضع سلاحك فقال : إني لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتموني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت . فقال رستم : ائذنوا له . فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق لخرق عامتها . فقال له رستم : ما جاء بكم ؟ فقال : ألله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ..

وتتبدل الأحوال ويقف المسلم موقف المغلوب المجرد من القوة المادية ، فلا يفارقه

---

١ – مغثوه : صرعوه .
٢ – النمارق : الوسائد والحشايا للاتكاء . والزرابي : البسط المخمله .

شعوره بأنه الأعلى ، وينظر إلى غالبه من عل ما دام مؤمناً . ويستيقن أنها فترة وتمضي وأن للإيمان كرة لا مفر منها . وهبها كانت القاضية فإنه لا يحني لها رأساً . إن الناس كلهم يموتون أما هو فيستشهد . وهو يغادر هذه الأرض إلى الجنة، وغالبه يغادرها إلى النار . وشتان شتان . وهو يسمع نداء ربه الكريم :

« لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد . متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . نزلاً من عند الله وما عند الله خير للأبرار » .. — (آل عمران : ١٩٦ — ١٩٨) .

وتسود المجتمع عقائد وتصورات وقيم وأوضاع كلها مغاير لعقيدته وتصوره وقيمه وموازينه ، فلا يفارقه شعوره بأنه الأعلى ، وبأن هؤلاء كلهم في الموقف الدون . وينظر إليهم من علُ في كرامة واعتزاز ، وفي رحمة كذلك ، وعطف ورغبة في هدايتهم إلى الخير الذي معه ، ورفعهم إلى الأفق الذي يعيش فيه .

ويضج الباطل ويرفع صوته ، وينفش ريشه ، وتحيط به الهالات المصطنعة التي تُغشي على الأبصار والبصائر ، فلا ترى ما وراء الهالات من قبح شائن دميم وفجر كالح لئيم .. وينظر المؤمن من عل إلى الباطل المنتفش ، وإلى الجموع المخدوعة ، فلا يهن ولا يحزن ، ولا ينقص إصراره على الحق الذي معه ، وثباته على النهج الذي يتبعه ، ولا تضعف رغبته كذلك في هداية الضالين والمخدوعين .

ويغرق المجتمع في شهواته الهابطة ويمضي مع نزواته الخليعة ، ويلصق بالوحل والطين حاسباً أنه يستمتع وينطلق من الأغلال والقيود . وتعز في مثل هذا المجتمع كل متعة بريئة ، وكل طيبة حلال ، ولا يبقى إلا المشرع الآسن ، وإلا الوحل والطين .. وينظر المؤمن من عل إلى الغارقين في الوحل اللاصقين بالطين . وهو مفرد وحيد فلا يهن ولا يحزن ولا تراوده نفسه أن يخلع رداءه النظيف الطاهر ، وينغمس ، في الحمأة وهو الأعلى بمنعة الإيمان ولذة اليقين .

ويقف المؤمن قابضاً على دينه كالقابض على الجمر في المجتمع الشارد عن الدين ، وعن الفضيلة وعن القيم العليا ، وعن الاهتمامات النبيلة ، وعن كل ما هو طاهر نظيف جميل .. ويقف الآخرون هازئين بوقفته ، ساخرين من تصوراته ، ضاحكين من

قيمه .. فما يهن المؤمن وهو ينظر من عل إلى الساخرين والهازئين والضاحكين وهو يقول كما قال واحد من الرهط الكرام الذين سبقوه في موكب الإيمان العريق الوضيء في الطريق اللاحب الطويل .. نوح عليه السلام .. « إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون » .. — (هود : ٢٨) — وهو يرى نهاية الموكب الوضيء ، ونهاية القافلة البائسة في قوه تعالى :

« إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون .. وإذا مروا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا : إن هؤلاء لضالون — وما أرسلوا عليهم حافظين — فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك ينظرون . هل ثُوِّب الكفار ما كانوا يفعلون ؟ » .. — (المطففين : ٢٩ — ٣٦) . وقديماً قص علينا القرآن الكريم قولة الكافرين للمؤمنين :

« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاماً وأحسن نديا ؟ » — (مريم : ٧٣) . أيُّ الفريقين ؟ الكبراء الذين لا يؤمنون بمحمد ؟ أم الفقراء الذين يلتفون حوله ؟ أي الفريقين ؟ النضر بن الحارث ، وعمرو بن هشام ، والوليد بن لمغيرة ، وأبو سفيان بن حرب ؟ أم بلال وعمار وصهيب وخباب ؟ أفلو كان ما يدعو إليه محمدٌ خيراً أفكان أتباعه يكونون هم هؤلاء النفر الذين لا سلطان لهم في قريش ولا خطر ، وهم يجتمعون في بيت متواضع كدار الأرقم ، ويكون معارضوه هم أولئك أصحاب الندوة الفخمة الضخمة والمجد والجاه والسلطان ؟.

إنه منطق الأرض . منطق المحجوبين عن الآفاق العليا في كل زمان ومكان . وإنها لحكمة الله أن تقف العقيدة مجردة من الزينة والطلاء ، عاطلة من عوامل الإغراء . لا قربى من حاكم ، ولا اعتزاز بسلطان ، ولا هتاف بلذة ، ولا دغدغة لغريزة . هو الجد والمشقة والجهاد والاستشهاد .. ليقبل عليها من يقبل وهو على يقين من نفسه ، إنه يريدها لذاتها خالصة لله من دون الناس ، ومن دون ما تواضعوا عليه من قيم ومغريات . ولينصرف عنها من يبتغي المطامع والمنافع ، ومن يشتهي الزينة والأبهة ، ومن يطلب المال والمتاع ، ومن يقيم لاعتبارات الناس وزناً حين تخف في ميزان الله .

إن المؤمن لا يستمد قيمه وتصوراته وموازينه من الناس حتى يأسى على تقدير الناس ، إنما يستمدها من رب الناس وهو حسبه وكافيه .. إنه لا يستمدها من شهوات

الخلق حتى يتأرجح مــع شهوات الخلق ، إنما يستمدها من ميزان الحق الثابت الذي لا يتأرجح ولا يميل .. إنه لا يتلقاها من هذا العالم الفاني المحدود ، إنما تنبثق في ضميره من ينابيع الوجود .. فأنّى يجد في نفسه وَهْناً أو يجد في قلبه حزناً وهو موصول برب الناس ، وميزان الحق ، وينابيع الوجود ؟.

إنه على الحق .. فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ وليكن للضلال سلطانه ، وليكن له هيله وهيلمانه ، ولتكن معه جموعه وجماهيره .. إذ هذا لا يغير من الحق شيئاً ، إنه على الحق وليس بعــد الحق إلا الضلال . ولن يختار مؤمن الضلال على الحق — وهو مؤمن ولن يعدل بالحق الضلال كائنةً ما كانت الملابسات والأحوال ..

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد » — (آل عمران : ٨ — ٩).

(ج) نواقض الشهادتين :

١ — إن مما ينقض دعوى الشهادة ، التوكل والاعتماد على غير الله . نأخذ هذا من قوله تعالى « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » إذ نفهم منها أنه لا يجوز لنا أن نتوكل على غيره ونأخذ هذا كذلك من قوله تعالى : « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم من الله شيئــاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت » ونأخذ هذا من معنى لا إلــه إلا الله ؛ إذ وجدنا أن الاطمئنان لا يصح أن يكون لغير الله .

وليس معنى التوكل أن نترك العمل ، بل الله عز وجل أمرنا أمرين : أمرنا أن نعمل ، وأمرنا ألا نعتمد على العمل ، أمرنا أن نعد كل أدوات القتال ، وأن نهيء كل ما يلزم للحرب ، وأمرنا أن نعتمد عليه وحده ، أمرنا أن نكتسب ، وأمرنا أن نؤمن أنه هو الرزاق ، أمرنا أن نتداوى وأمرنا أن نؤمن أنه هو الشافي ، أمرنا أن نأخذ بالأسباب وأن نعتمد عليه وحده، ونتوكل عليه جل جلاله، فمن أعد وهيأ وعمل ولم يتوكل عليه ، ولم يعتمد عليه ، فقد أخل بأحد الأمرين ، ومن توكل ولم يستعــد ويعمل فقد أخل بأحد الأمرين .

وها هنا مكمن الفرق بين الكافر والمؤمن . الكافر يبذل كل طاقته ، والمؤمن يبذل

كل طاقته ، ولكن الأول لا يعتمد إلا على ما بذل والثاني لا يعتمد إلا على الله وحده .

فالاعتماد على الأسباب والغفلة عن الله فيها معصية ، والاعتماد على الأسباب مع ادعاء أنه لا علاقة لله فيها شرك يناقض الشهادتين ، ويكذب عشرات الآيات القرآنية التي تنسب كل شيء إلى إرادة الله وعلمه وقدرته : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » . « وما النصر إلا من عند الله » . « إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » « واذا مرضت فهو يشفين » . « ألم ترَ أن الله أنزل من السماء ماءاً » .

فلا بد من إيمان بالأسباب التي بثها الله في هذا الكون ، ولا بد من إيمان بأن الله هو خالق كل شيء « الله خالق كل شيء » . فمن أنكر الأسباب وعطلها كفر ، ومن جعل لها تأثيراً أشرك .

٢ - وان مما ينقض دعوى الشهادتين عدم اعتراف الإنسان بأن كل نعمة هو فيها ظاهرة وباطنة حسية ومعنوية هي من فضل الله ، وأنها لولا الله ما كانت . وقد رأينا في التحليل اللفظي لـ (لا إله إلا الله) كيف أن الله هو وحده المربي والمنعم .

ويتمم هذا المعنى أن نعترف بأن كل ما يصيبناهو من الله كذلك وأنه هو المانع كما هو المنعم ، وأن من حقه أن يمنع وأن يبتلي ، وليس لنا معه إلا الرضى : قال تعالى : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار » . وقال : « ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، ومن الناس من يجادل في الله بغير علم » .. « إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين قال إنما أوتيته على علم عندي أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أكثر منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون » . وقال تعالى « ومن يؤمن بالله يهد قلبه » « فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما أنجاهم إلى البر إذا هم يشركون » « فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهمما كانوا يكسبون فأصابهمسيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ».. « لا يسئم الإنسان من دعاء الخير

وإن مسه الشر فيؤوس قنوط ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة﴾.

﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض﴾ « وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون﴾. ﴿قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر﴾.

٣ ــ وإن مما ينقض دعوى الشهادتين: العمل لغير الله بدون اذنه . نأخذ هذا من قوله تعالى : « إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له » ونأخذ هذا من قولنا « لا معبود إلا الله » والعبادة ليست مقتصرة على الصلاة والزكاة والصوم والحج بل كل عمل تعمله تقصد به وجه الله فهو عبادة ، وكل عمل تعمله تقصد به وجه غير الله بدون إذنه فهو شرك ، ويدخل في هذا النوع من الشرك حالات كثيرة :

منها : أن يعمل الإنسان للقومية جاعلاً إياها هدف عمله الوحيد ، يقاتل من أجلها ، يتكلم من أجلها ، يدعو للإيمان بها والعمل لها مع تركيز عصبيته كلها لها . إن مثل هذا الاتجاه إتجاه شركي لأن الله أمرنا أن نعمل له ، وأن نجاهد له ، وأن نقاتل له . ونحن إذ نفعل هذا قد نخدم قومنا تبعاً وعرضاً ، وقد لا نخدمهم بل نكون ضدهم إذا كانوا كافرين . فالمسلم لا يكيف سلوكه على حسب ما تقتضيه مصالح قومه بل على حسب ما يأمره الله عز وجل .

ومنها : العمل للوطنية كهدف فهذا شرك ، إن المسلم لا يتعلق بوطنه إلا بالقدر الذي يكون فيه هذا الوطن وأهله مستسلمين لله ، وهو إذ يعمل ما فيه مصلحة هذا الوطن وأهله إنما يعمل هذا لله ، أما إذا أصبح الوطن هو قبلة العمل ، ولم تعد نية وجه الله فيه هي الأصل ، فذلك الشرك . لقد عاب الله عز وجل على أقوام تعلقهم بأوطانهم فقال :

« ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتا » . إن رفع شعار الوطنية ، والوحدة الوطنية ، والعمل من أجل المصلحة الوطنية لا يجوز أبداً أن يكون الأصل

الذي توزن به الأشياء ، فإذا ما أصبح كذلك ، كان شركاً ، أما إذا كان الأصل الذي توزن به الأشياء هو الإيمان بالله ، والعمل بما أمر ، وكان مما أمر القيام بما فيه مصلحة للوطن، وعملنا هذا تحقيقاً لأمره ، قاصدين وجهه ، فهذه هي العبادة ، وهذا الذي لا حرج فيه.

العمل للإنسانية والإنسان شرك ، وصرف للإنسان عن الله الذي ينبغي أن يوجه إليه الإنسان وجهه .

وشعار « العلم للعلم » شرك

وشعار « الواجب للواجب » شرك

وشعار « الأدب للأدب » شرك

وكل شعار يصرف وجه الإنسان عن أن يكون الله مقصوده ومعبوده شرك .

٤ ــ وإن مما ينقض دعوى الشهادتين: إعطاء غير الله حق الأمر والنهي ، وحق التحليل والتحريم ، وحق التشريع ، وحق الحاكمية ، قال تعالى : « ألا له الخلق والأمر » وقال « إن الحكم إلا لله » وقال : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » .

ويدخل في ذلك ما يسمى « بالديمقراطية » إذ الديمقراطية هي كلمة الأكثرية الممثلة بمجلس نيابي أو غيره يكون مفوضاً بأن يشرع ما يريد دون قيد إلا قيد الدستور في بعض البلاد، والدستور تضعه الأكثرية بلا تقيد بأمر ما إلا بآرائهم وأفكارهم، إن مثل هذا إنما هو إعطاء حق التشريع والتحليل والتحريم للبشر وهو شرك .

أما الصيغة الصحيحة التي تجنبنا هذا الشرك في المجتمع الإسلامي فهي أن يكون لنا مجلس شورى ، ولا حرج أن يكون منتخباً ، على أن يكون كل فرد من أفراد المجلس والمجلس ككل ملتزمين بأحكام الله ؛ ما سمح الله لهم فيه أن يجتهدوا اجتهدوا ، وما ورد فيه نص لم يكن لهم فيه إلا التسليم إن كان النص قطعياً ، أو الترجيح إن كان ظنياً ، أي أن الكتاب والسنة يمثلان الدستور في البلاد الدستورية البرلمانية ، بحيث لا يستطيع المجلس النيابي أن يسن من القوانين ما يخالف الدستور ، فيكون عمله في الصورة ، إما مفسراً للدستور أو ساناً ما لا يخالفه ، ويدخل في ذلك أن تعطى صلاحية التشريع المستقل عن حكم الله لطبقة كطبقة الرأسماليين ، أو الطبقة الوسطى ، أو الطبقة الدنيا ، ويدخل في ذلك أن تعطى صلاحية التشريع للحزب أو لقياداته ، ويدخل في

ذلك أن تعطى صلاحية التشريع لرجل سواء كان رجل دين ، أو رجل سياسة .

ويدخل في ذلك ألا يعترف الإنسان بأنه مكلف من الله بواسطة الرسول ﷺ فيسقط عن نفسه التكاليف ، كيف وقد خاطب الله رسوله بقوله : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » .

٥ – وان مما ينقض دعوى الشهادتين :

أن تعطى الطاعة لغير الله بغير إذنه إذ من معاني لا إله إلا الله كما رأينا : لا مطاع إلا الله . والطاعة التي أذن لنا الله فيها هي أن نطيع رسوله لأن طاعة رسوله طاعة له « من يطع الرسول فقد أطاع الله » . وطاعة أولي الأمر إذا كانت على كتاب الله وسنة رسوله ، فإذا انحرفوا فلا طاعة لهم في معصية الله . سواء كانوا علماء دين ، أو أمراء . والآية التي نصت على هذا : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » فطاعة ولي الأمر مشروطة بكونه منا ، وبكونه يرجع إلى كتاب الله وسنة رسوله حال اختلافه معنا . وفي الحديث « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » « إنما الطاعة في المعروف » ، فلا يطيع المسلم في ذات الله أحداً : لا نفسه ولا شيطانه ولا كافراً ولا ضالاً ولا مبتدعاً ولا فاسقاً ولا مسرفاً ولا غافلاً ولا داعياً إلى ضلالة ولا أحداً إذا دعانا إلى غير أمر الله : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » « وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله » « ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون » « إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين » « إن تطيعوا الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » « ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين » .

فمن أطعته من هؤلاء اتخذته إلهاً ، وإذا اتخذته إلهاً كفرت . « إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر » . إن مظهر ردة هؤلاء طاعتهم لمن كره ما نزل الله في بعض الأمر . ومما يدخل في هذا الأصل :

عدم طاعة رسول الله . إذ مظهر طاعة الله طاعة رسوله لأننا لا نعرفها إلا عن طريقه ، طاعة رسوله تعني طاعة سنته ، فمن لم يعترف بسنته فهو كافر أما إذا اعترف بها وعصى فهو فاسق .

٦ ـ ومن نواقض الشهادتين الحكم بغير ما أنزل الله أو الاحتكام إلى غيره جل وعلا قال تعالى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » . وقال : « ألم ترَ إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيدا وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا » . وقال تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما » .

وقال : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون » .

وقد وصف الله المنافقين بقوله :

« ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين وإذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون إنما كان قول المؤمنين إذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون »

٧ ـ ومن نواقض الشهادتين : كراهية شيء من الإسلام أوكراهية الاسلام كله :

قال تعالى : « والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم » سورة محمد ﷺ . وقال عليه السلام : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) . ويدخل في ذلك أن يكره الإنسان حكماً من أحكام الإسلام سواء كان في العبادات أو الاقتصاد ، أو المعاملات ، أو السياسة ، أو السلم أو الحرب ، أو الأخلاق ، أو التنظيم الاجتماعي أو العلمي أو ...

إن أي كراهية لمضمون آية ، أو لمضمون حديث ثابت ، أو لسنة بشمولها الذي يدخل فيه قول الرسول ﷺ أو فعله أو تقريره أو صفته ، يخرج الإنسان عن الإسلام ، وينقض دعوى الشهادتين عنده .

٨ – ومما ينقض دعوى الشهادتين : إستحباب الحياة الدنيا على الآخرة ، وجعل الدنيا هدف الإنسان الوحيد : قال تعالى « وويل للكافرين من عذاب شديد الذين يستحبون الحياة على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد » . وقال « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » وقال تعالى « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا » وقال : « من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب » .

وقد بين الله عز وجل ما هي الحياة الدنيا فقال :

﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا ...﴾ وقال ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ .

وبين من طلب الآخرة وتوعد سواه فقال : ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ .

٩ – ومما ينقض دعوى الشهادتين : الاستهزاء بشيء من الكتاب والسنة ، أو بأهلهما من أجلهما ، أو بحكم من أحكام الله عز وجل ، أو شعيرة من شعائره . فعن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن اسلم وقتادة – دخل حديث بعضهم في بعض – أنه قال رجل في غزوة تبوك : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً ولا أكذب ألسناً ولا أجبن عند اللقاء – يعني رسول الله وأصحابه القراء – فقال له عوف بن مالك : كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ

ليخبره فوجد القرآن قد سبقه فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته ــ فقال يا رسول الله إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب نقطع به عناء الطريق قال ابن عمر : كأني أنظر إليه متعلقاً بنسعة ناقة رسول الله ﷺ وإن الحجارة تنكب رجليه وهو يقول إنما كنا نخوض ونلعب فيقول له رسول الله ﷺ : « أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون » ، ما يلتفت إليه وما يزيده عليه والآية التي نزلت في هذا الشأن : « يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين » .

فالاستهزاء بأي حكم من أحكام الإسلام ، أو شعيرة من شعائره ، أو نص من نصوصه ينقض الشهادتين كأن يسخر من آية فيها حكم كقوله : ترجعنا إلى شريعة السن بالسن والعين بالعين أو كقوله : تريدنا أن نمشي على « ورفع بعضكم فوق بعضكم درجات » أو دعونا من هذا الكلام الفارغ بعد سماعه رأياً له علاقة بحكم من أحكام الإسلام ، أوكالقول بعد مثل هذا : لا زلتم تتمسكون بهذه القشور كأن في الإسلام قشراً ينبغي أن يقذف به ، أو كالاستهزاء باللحية أو بأصحابها من أجلها ، أو بالصلاة أو بأصحابها من أجلها ، أو بالعلم بالإسلام ، أو بأهله من أجله أو الترفع على هؤلاء واحتقارهم ، لأنهم ليس عندهم علم إلا به ، إلى أشياء كثيرة كلها تدخل في هذا الأصل ، ويقع فيها المنافقون ، وكلها تأخذ بصاحبها إلى الكفر ، ولعل أمثال هذا ما أشار إليه الرسول بقوله : (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في نار جهنم سبعين خريفا) .

١٠ ــ ومما ينقض دعوى الشهادتين : تحليل ما حرم الله ، أو استحلاله ، وتحريم ما أحل الله . قال تعالى : « إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون » . وأعظم الكذب ما كان على الله في تحريم ما أحل ، وتحليل ما حرم قال تعالى : « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع قليل ولهم عذاب أليم » .

وقال تعالى : « إنما النسيء زيادة في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زُين لهم سوء أعمالهم والله

لا يهدي القوم الكافرين » .

فتحريم ما أحل الله كفر ، وتحليل ما حرم الله كفر ، والمسارعة إلى التحريم ، كالمسارعة إلى التحليل ، وقد أصبح الناس في هذا قسمين . فمنهم من غلبت عليه الشدة فيسارع إلى تحريم كل ما صادفه مما ليس حراماً ، وكلاهما ليس على الجادة . إن المسلم لا يتقدم أمام الله ورسوله برأي إلا أن يعلم حكم الله فيقوله ، وذلك عنوان صدقه في شهادتيه أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله ؛ فإن الله يقول « يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله » .

١١ – ومما ينقض دعوى الشهادتين: عدم الإيمان بكل نصوص الكتاب ، والسنة الثابتة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام :

قال تعالى : « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون » .

وقال عليه السلام : (ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني وهو متكيء على أريكة فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه وما وجدنا فيه حراماً حرمناه وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله) رواه الترمذي وهو حديث حسن صحيح وروى مالك قال بلغني أن النبي ﷺ قال : تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

فعدم الإيمان بشيء من نص الكتاب ينقض الإيمان لأن الله قال : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وعدم الإيمان بالسنة الثابتة ينقض الإيمان لأنه تكذيب لرسول الله بشيء ثابت عنه وتكذيب رسول الله بأدنى شيء كفر .

وكما أن عدم التصديق بشيء من الكتاب والسنة الثابتة المتواترة أو بمجموع السنة ينقض دعوى الشهادتين ، فكذلك الإيمان بنصوص زائدة على الكتاب على أنها من الكتاب أو زائدة عن السنة ومكذوبة على أنها من السنة قال عليه السلام : (من كذب على نبيه أو على عينيه أو على والديه لم يرح رائحة الجنة) وهو حديث حسن في الكبير للطبراني . ولمسلم والترمذي عنه عليه السلام : (من حدث عني بحديث يرى أنه كذب

فهو أحد الكاذبين) .

١٢ - ومما ينقض دعوى الشهادتين : تولي الكافرين والمنافقين وعدم محبة أهل التوحيد والمؤمنين : قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين . فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين » .. وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين » وقال « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون . وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم » .

وقال : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً » . وقال « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتْبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الارض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون » (الاعراف : ١٧٧) .
قيل في ذكر صاحبها أنه رجل كان هواه مع قومه الكافرين على موسى ومن معه ودعا عليهم وكان رجلاً صالحاً قبل .

١٣ - ومما ينقض دعوى الشهادتين : سوء الأدب مع رسول الله ﷺ : قال تعالى : « لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » والتهديد بإحباط العمل مشعر بالردة قال تعالى : « ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » فإذا كان رفع الصوت ومخاطبة رسول الله ﷺ كما يخاطب الآخرون يكون مظنة ردة فكيف بما هو أكبر من ذلك ؟ كالاستهزاء بحال من أحواله ، أو عمل من أعماله . كأمثال هؤلاء الكفرة الذين يستحقون القتل : اذ

يغمزون من كون الرسول ﷺ كان في عصمته تسع نساء .

إن الآية التي مرت معنا يدخل فيها أحوال كثيرة ولا شك أن من جملة أحوال من يدخل فيها أولئكم الذين يتحدثون عن رسول الله في كتاباتهم ، أو مقالاتهم ، أو خطبهم وكأنه رجل عادي ليست له صفة النبوة والرسالة ، بدعوى المنطق العلمي أو الأسلوب العلمي ، أو التحليل العلمي ، أو أشياء من هذا الزخرف الباطل وصدق الله العظيم : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون . ولتصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون » . (الأنعام ١١٣) .

١٤ — ومما ينقض دعوى الشهادتين: اشمئزاز القلب من توحيد الله وانبساطه لنوع من أنواع الشرك قال تعالى : ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾. وأهم تطبيقات هذه الآية ما نراه عند طبقات من الناس اليوم : إذا أرجعت الأمور والحوادث إلى الله نفرت قلوبهم وإذا أرجعتها إلى الطبيعة أو إلى الأسباب العادية أو نسبتها إلى الأولياء انبسطوا لذلك وسرّوا .

إذا قلت : لقد انتصرنا لأننا استعددنا وعبأنا قوتنا وكنا رجالاً ... سروا ، وإذا قلت : إن الله نصرنا انقبضوا . إذا قلت : هزمنا لعدم أخذنا بوسائل الحرب الحديثة سروا ، وإذا قلت : هزمنا لأن الله لم يرد نصرنا لذنوبنا اشمأزوا . إن تطالبهم بأن يكون الله مقصودهم في كل شيء يشمئزون وإذا عددت لهم المقصودات وزينتها لهم من نفس ودنيا وشهوة ومتاع استأنسوا .. وهكذا ..

١٥ — ومن نواقض الشهادتين: ادعاء أن للقرآن باطناً يخالف الظاهر ، وأن هذا الباطن يستقل بعلمه بعض الناس بواسطة الإلهام وما يقال في القرآن يقال في السنة . فالله عز وجل أنزل كتابه عربياً قال ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ وقال : ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾ وقال : ﴿وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا واق﴾. واللغة العربية معروفة المفردات معروفة القواعد ، فلا يفهم القرآن ولا السنة التي تشرح

القرآن إلا بمفردات هذه اللغة وقواعدها ، وأساليب أصحابها . فمن خرج عن ذلك فإنما يخرج إلى غير أصل بل إلى هوى وضلال ، وذلك تعطيل للشريعة بتعطيل نصوصها ، وتفريق للمسلمين ، لأنه لا يبقى بعد ذلك أصل يرجعون إليه ، وإن اليهود والنصارى لم يصلوا إلى ضلال في فهم كتبهم كهذا الضلال ، ولا شك أن أصحاب الدعوة إليه أعظم زنادقة خرجوا بين المسلمين .

والقرآن بعد ذلك هو كما وصف :

(كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : ﴿إنا سمعنا قرآناً عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به﴾ من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم) .

١٦ – ومن نواقض دعوى الشهادتين : عدم معرفة الله معرفة صحيحة ، بإنكار شيء من صفاته ، أو أسمائه أو أفعاله :

قال تعالى : ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾ وقال : ﴿الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى﴾ وقال : ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ . وقال : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾. وقال : ﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾. وقال : ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب . ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب﴾. وقال : ﴿ألم ترَ أن الله أنزل من السماء ماءاً ...﴾ وقال على لسان ابراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين﴾ . وقال : ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾. وقال : ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾. وقال : ﴿الله خالق كل شيء﴾. ومن أذكارنا

الصحيحة (لا حول ولا قوة إلا بالله) . وقال على لسان موسى عليه السلام مخاطباً ربه : « إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء » .

وروى البخاري ومسلم عن زيد بن خالد /رض/ قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على اثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : (قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مُطِرْنَا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب) .

فما عرف الله من لم يعرف أن كل ما في هذا الوجود أفعاله .

وما عرف الله من لم يعرف أسماءه وصفات كماله .

وما عرف الله من نسب إليه شيئاً من نقص .

وما عرف الله من لم يعرف أن الكمال كله له .

« ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز» الحج (٧٤) .

« وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء» .

قالت النصارى : إن الله يلد له ولد وكفروا ، وقالت اليهود : الله بخيل وكفروا وقالوا إن الله فقير وكفروا وقالوا : (إن الله تعب بعد ما خلق الخلق فاستراح) وكفروا . قال تعالى : «وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين» «لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم» . «لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة» . «وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إداً تكاد السموات يتفطّرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أنْ دعوا للرحمن ولداً وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا» «لقد كفر الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء» «وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولُعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان» «ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب» .

إن عدم معرفة الله معرفة صحيحة ، ووصفه بما لا يليق بذاته ، أو تشبيهه بخلقه ،

أو جعل خلقه جزءاً منه ؛ كل ذلك كفر ونقض للشهادتين . لأنه إعطاء للألوهية لغير صاحبها الحقيقي ، إذ من لم يعرف الله جهله ، ومن جهله لم يوحده ، وكذّب وحي الله فيما وصف الله به ذاته .

١٧ ــ ومما ينقض دعوى الشهادتين: عدم معرفة الرسول معرفة صحيحة ، أو سلبه صفة مما وصفه الله به أو وصفه بصفة منقصة له ، أو محقرة ، أو عدم اعتقاد كونه الأسوة العليا للإنسان .

قال تعالى : ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾ .

وقال : ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين﴾ .

وقال : ﴿ن، والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لاجراً غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ . وقال : ﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون﴾ . وقال : ﴿ولكنْ رسولَ الله وخاتم النبيين﴾ فمن تابع غير محمد ﷺ على أمر النبوة كفر ، ومن قال عنه إنه نبي للعرب فقد كفر . لأن الله قال : ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ . ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا﴾ ومن وصفه بالبدوي أو الأعرابي تحقيراً فقد كفر ، والمسألة تدخل فيها أحوال كثيرة نسأل الله الحفظ .

١٨ ــ ومما ينقض دعوى الشهادتين: تكفير أهلهما وعدم تكفير من كفر بهما واستحلال قتال أهلهما : فالقواعد : من كفّر مؤمناً فقد كفر ، ومن لم يكفر الكافر فقد كفر ، ومن شك في كفر الكافر فقد كفر .

قال عليه السلام : (ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض) .
وقال : (سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر) رواه الشيخان .

وقال : (لا يرمي رجل رجلاً بالفسق أو الكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن

صاحبه كذلك) .

وفي الحديث الذي رواه الطبراني في الكبير والصغير باسناد فيه لين : (أخوف ما أخاف على أمّتي ثلاث : رجل قرأ كتاب الله حتّى إذا رست عليه بهجته وكان عليه ردء الإسلام اختَرط سيفه وضرب به جاره ورماه بالشرك قيل يا رسول الله الرامي أحق به أم المرمي ؟ قال : الرامي ...) .

وإنما كان تكفير المؤمن كفراً لأن فيه طعناً في نفس الإيمان .

كما كان الشك في كفر الكافر أو تصحيح مذهبه أو عدم تكفيره كفراً لأنه تكذيب لله ولرسوله ﷺ .

١٩ – ومما ينقض دعوى الشهادتين :

أن يعمل عملاً مما جعله الله عز وجل عبادة لا تليق إلا به فيعطيه لغيره : كأن يذبح لغير الله ، أو يركع ويسجد لغير الله ، أو يطوف بغير بيت الله بنية القربة لله . قال تعالى : ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت﴾ .

وكأن يدعو غير الله معتقداً فيه النفع والضر والله عز وجل يقول : ﴿له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ . وكأن يحلف بغير الله تعظيماً قال عليه السلام : ﴿من حلف بغير الله فقد أشرك﴾ إذا كان يعتقد وجوب البر وكأن ينذر نذراً لغير الله قال تعالى : ﴿وليوفوا نذورهم﴾ معتقداً القربة في ذلك .

وكأن ينوي حج غير بيت الله بنية القربة لله ، أو يشد الرحال بنية القربة لغير ما جعله الله قربة . والأصل الجامع لهذا كله : أن المسلم لا يعمل عملاً إلا لله ولا يعمل عملاً إلا إذا شرعه الله له . فان عمل ما لم يأذن به الله فتلك معصية ، أو عمل لغير الله فذلك شرك .

٢٠ – وهناك نوع من الشرك ينقض الشهادتين في العمل الذي يكون فيه ، ولا ينقض الشهادتين من أساسهما ، هذا النوع من الشرك هو الذي يسمى الشرك الأصغر ،

والذي دواؤه أن تقول : أللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً أعلمه وأستغفرك لما لا أعلمه. ومظاهر هذا النوع من الشرك كثيرة :

كأن يحسن صلاته من أجل مدح الناس له ، ورؤيتهم إياه ، وكأن ينفق من أجل كلام الناس واطرائهم له ، وكأن يجاهد من أجل أن يذكر مكانه ويذاع اسمه .

وكأن يتعلم من أجل أن يتصدر الناس .

وكأن يخطب حتى يقول الناس خطيب .

وأمثال هذا كثير وكله شرك ينقض التوحيد فرع نقض ، ولذلك يسمى الشرك الأصغر ، وهو معصية يستحق بها صاحبها دخول النار وقد وردت في ذلك الآثار الكثيرة .

روى مسلم عن رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه» .

وروى أحمد عن رسول الله ﷺ : «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال قالوا بلى يا رسول الله قال : الشرك الخفي يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل». روى أبو داوود عن أبي أمامة قال : «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ، ماله ؟ فقال : لا شيء له فأعادها ثلاث مرات يقول : لا شيء له ، ثم قال : إن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه» .

وروى النسائي عن عبادة عن رسول الله ﷺ قوله : «من غزا في سبيل الله ولم ينو إلا عقالاً فله ما نوى» .

وروى مسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة أن رسول الله قال : «إن الله إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ، ورجل قتل في سبيل الله ، ورجل كثير المال فيقول الله للقارىء : ألم أعلمك بما أنزلت على رسولي ؟ فقال : بلى يا رب قال فماذا عملت فيما علمت قال : كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار فيقول الله : كذبت وتقول الملائكة كذبت ويقول

الله له : بل أردت أن يقال : فلان قارىء وقد قيل ذلك. ويؤتى بصاحب المال فيقول الله : ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال : بلى يا رب قال فماذا عملت فيما آتيتك ؟ قال كنت أصل الرحم وأتصدق فيقول الله له كذبت وتقول الملائكة كذبت ويقول الله : بل أردت أن يقال : فلان جواد فقد قيل ذلك. ثم يؤتى بالذي قتل في سبيل الله فيقول الله في ماذا قتلت ؟ فيقول : أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت فيقول الله : كذبت وتقول الملائكة كذبت ويقول الله بل أردت أن يقال : فلان جريء فقد قيل ذلك. ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال : يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة».

* * *

ونكتفي بهذا القدر من نواقض الشهادتين ، إذ التفصيل والاستقصاء متعذر ، ولكنها قواعد يدخل فيها غيرها . ونسأل الله أن يسلم لنا إيماننا فقد غلب الكفر في عصرنا حتى أنك نادراً ما تجد إنساناً قد صفت له الشهادتان بلا نواقض .

* * *

﴿الركن الثاني : الصّـــلاة﴾

(أ) نظرة عامة في الصلاة

١ — إن الصلوات هي المرتكزات الأساسية لصلة الإنسان بالله ، وإحياء معاني الإيمان في قلبه . فبالصلاة يتذكر الإنسان الله من مبدئها إلى منتهاها ، إلى ما ورد من أذكارها ، وبالصلاة يتذكر الإنسان اليوم الآخر . ﴿مالك يوم الدين﴾ وبالصلاة يتذكر الإيمان بالرسول ﴿السلام عليك أيهـــا النبي ....﴾ ﴿وأشهـــد أن محمداً رسول الله﴾ ﴿اللهم صل على محمد ...﴾ وبالصلاة يتذكر الإنسان الكتاب والطريق الذي هدي إليه ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾ وأثناء تلاوته لشيء منه ، أو سماعه ، وعلى هـــذا فالصلوات هي المظهر العملي للإيمان بالغيب وقد عُبر عنها بالقرآن بلفظ الإيمان في قوله تعالى : ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ فقد ورد في أسباب نزولها كما روى الشيخان « إنه مات على القبلة قبل أن تُحول رجال وقتلوا فلم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله تعالى ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ لذلك كان فعل الصلاة دليلاً على الإيمان ، وتركها دليلاً على الكفر ؛ وقال صلى الله عليه وسلم : ﴿بين الرجل والشرك ترك الصلاة﴾ ﴿بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة﴾ ﴿العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر﴾ (كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة﴾ ﴿من ترك صلاة العصر حبط عمله﴾.

٢ — وعلى قدر ما تكون العقيدة واضحة في نفس الإنسان ، وعلى قدر ما يكون الإيمان يقظاً في قلبه تكون استقامته على امر الله ، ولما كانت الصلاة هي التي بها تحيا عقيدة الحق في قلب الإنسان كانت هي السبب المباشر الذي يجعل الإنسان مستقيماً ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر﴾.

ولذلك كانت الصلاة مقياساً وميزاناً ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى﴾ ﴿فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : ﴿لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلا منافق قد علم نفاقه﴾. ما قبلها من الإسلام لا يقوم إلا بها ، وما بعدها من الإسلام لا يقوم إلا بها ، فهي الركن الثاني في الإسلام الذي يحقق الركن الأول شعورياً وعملياً ، وكل الإسلام بعد ذلك يأتي أثراً عنها . لذلك رأينا الآية الأولى في هذه الفقرة كيف جعلتها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ومن أجل هذا كان خير ما يفعله المسلم وأعظم ما يقربه إلى الله هي. وقال صلى الله عليه وسلم : ﴿استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن﴾. ﴿أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد﴾.

قال معدان بن أبي طلحة : لقيت ثوبان مولى رسول الله ﷺ ورضي عنه فقلت أخبرني بعمل أعمله يدخلني الله به الجنة أو قال قلت : بأحب الأعمال إلى الله تعالى فسكت ثم سألته فسكت ثم سألته الثالثة فقال : سألت عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : عليك بكثرة السجود فإنك لا تسجد لله تعالى سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة قال معدان ثم أتيت أبا الدرداء فسألته فقال مثل ما قال لي ثوبان .

٣ ــ والحقيقة أن الصلاة رمز كامل على معرفة الله ، والقيام بحقوق عبوديته . فالله خلق كل شيء للإنسان فكون العبد يقول : الحمد لله . إنما هو رمز على المعرفة والاعتراف ، والله عز وجل خالق كل شيء فهو أكبر من كل شيء ، فعندما يقول العبد المسلم « الله أكبر » فذلك رمز على المعرفة والاعتراف والله عز وجل الخالق لا يشبه المخلوقين فقول المسلم « سبحان الله » رمز على هذه المعرفة واعتراف ، والركوع والسجود . وقولنا « سبحان ربي الأعلى » أو « سبحان ربي العظيم » إعتراف لله وحده بالربوبية واعتراف بأن محل الإنسان في الوجود العبودية لله .. لذلك قال رسول الله ﷺ (الصلاة مثنى مثنى تشهد في كل ركعتين وتخشع وتمسكن وتقنع يديك يقول : ترفعهما إلى ربك تعالى مستقبلاً ببطونهما وجهك وتقول: يا رب يا رب يا رب ومن لم يفعل فهي خداج) .

٤ ــ وإذا كانت الصلاة رمز العبودية لله ، وهي التي تعطي المؤمن يقظة الإيمان الدائمة ، فإنها كذلك لا تقوم ولا تكون سهلة على الإنسان إلا إذا وجد الإيمان العميق

بالله واليوم الآخر . فمن لم يكن إيمانه عميقاً بالله واليوم الآخر ، كانت الصلاة عليه صعبة قال تعالى : ﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون﴾. إن الإنسان الذي استقر في قلبه الإيمان باليوم الآخر ، واستشعر لقاء الله ورجوعه إليه . هو الذي تصبح الصلاة له قرة عين كما كانت لرسول الله ﷺ ﴿حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة﴾.

٥ ــ ولهذا كله كانت الذنوب والأخطاء مع الصلاة مغفورة مقهورة ، إذ هي تجديد صلة وتجديد عهد وغسل .. لماضٍ وفتح صفحة جديدة مع الله عز وجل (إن الصلوات كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر) . عن سعد بن أبي وقاص قال : كان رجلان اخوان فهلك أحدهما قبل صاحبه بأربعين ليلة فذكرت فضيلة الأول منهما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ألم يكن الآخر مسلماً ؟ قالوا : بلى وكان لا بأس به فقال صلى الله عليه وسلم : وما يدريكم ما بلغت به صلاته بعده إنما مثل الصلاة كمثل نهر عذب غمر بباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات فما ترون ذلك يبقي من درنه فانكم لا تدرون ما بلغت به صلاته .

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد ونحن معه إذ جاء رجل فقال يا رسول الله : إني أصبت حداً فأقمه علي فسكت عنه ثم أعاد فسكت وأقيمت الصلاة فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم تبعه الرجل واتبعته أنظر ماذا يرد عليه فقال له : أرأيت حين خرجت من بيتك أليس قد قد توضأت فأحسنت الوضوء ؟ قال : بلى يا رسول الله قال : ثم شهدت الصلاة معنا ؟ قال : نعم يا رسول الله . قال : فإن الله تعالى قد غفر لك حدك أو قال : ذنبك .

٦ ــ وإقامة الصلاة تكون بترك كل ما أمر بتركه فيها وبفعل كل ما أمر بفعله فيها : فللصلاة شروط وأركان وواجبات وسنن وآداب ، ولها مكروهات ، ويفسدها أشياء ، فمن ترك مفسداتها ومكروهاتها ، وأتى بشروطها وأركانها ، وواجباتها وسننها وآدابها ، فقد أقامها وقد جعلها الله عز وجل فريضة ونوافل لجبر نقصان الفريضة ، أو لرفع الدرجات إن لم يكن في الفريضة نقصان ، ومن ليس في صلاته نقصان إلا كُمَّل الرجال وقليل ما هم ؟

عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿إن الرجل لينصرف من صلاته

وما كتب له منها إلا عشرها . تسعها . ثمنها . سبعها . سدسها . خمسها . ربعها . ثلثها . نصفها ﴾ . أخرجه أبو داوود . فرجل أقام الصلاة إذن هو هـذا الذي أتى بها كاملة الأركان والسنن ، والواجبات والآداب ، والفروض والنوافل .

٧ — ومراكز الإسلام المساجد « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » فعمارتها رمز ارتباط المسلم بإسلامه والمسلمين « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » .

قال ابن مسعود : لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلا منافق قد علم نفاقه أو مريض ، إن كان المريض ليمشي بين الرجلين حتى يأتي الصلاة وقال : (إن رسول الله ﷺ علمنا سنن الهدى وإن من سنن الهدى الصلاة في المسجد الذي يؤذن فيه) أخرجه مسلم وابو داوود وزاد : (وما منكم من أحد إلا وله مسجد في بيته ولو صليتم في بيوتكم وتركتم مساجدكم تركتم سنة نبيكم ولو تركتم سنة نبيكم لكفرتم) أي هذا الترك يؤدي بكم إلى الكفر كما هو واقعنا . وقال عليه الصلاة والسلام : أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ولو يعلمون ما فيها لأتوهما ولو حبوا ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ثم آمر رجلاً يصلي بالناس ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم) . وقال : (من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله) رواه مسلم .

وقال : (صلاة الرجل في جماعة تضعف على صلاته في بيته وسوقه خمساً وعشرين ضعفاً وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا تخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحطت عنه بها خطيئة فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه : اللهم صل عليه اللهم ارحمه ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة) .

٨ — هذه معان في الصلاة وإقامتها ، من حققها وتحقق بها كان ذلك الإنسان الذي سلم عن كل ضعف ، وارتفع إلى خير خلُق وكان كما وصف الله عباده : « إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم والذين يصدقون بيوم

الدين والذين هم من عذاب ربهم مشفقون إن عذاب ربهم غير مأمون والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون والذين هم على صلاتهم يحافظون أولئك في جنات مكرمون » .

من التجارب الطريفة في هذا الموضوع ، أن مصلحة تشغيل المتعطلين بمدينة نيويورك أجرت اختباراً نفسياً على (١٥٣٢١) نفساً من الرجال والنساء المتعطلين ، وفي ضوء هذه الاختبارات ، أمكن توجيه كل منهم إلى المهنة المناسبة له وقد عين الدكتور /هنري لنك/ أحد علماء النفس التجريبي مستشاراً خاصاً في هذه العملية ، ونيط به وضع الخطط ، ومراقبة الدراسات الاحصائية المستخلصة لعشرة آلاف نفس ويقول في ذلك : (وفي هذا الوقت بالذات بدأ إدراكي لأهمية العقيدة الدينية بالنسبة لحياة الإنسان إذ وجدت أن كل من يعتنق ديناً أو يتردد على دار العبادة يتمتع بشخصية أقوى وأفضل ممن لا دين له أو لا يزاول أية عبادة) .

هذا والعبادة باطلة والدين باطل فكيف إذا كانت العبادة الحقة والدين الحق : إن المسلم الحق إنسان لا مثيل له في قوة الشخصية في العالم كله ، بفضل صلته بالله ، واعتزازه بهذه الصلة .

٩ ـــ ولنعود لنقول : الصلاة هي مظهر ما قبلها من الإسلام ، وكل ما بعدها من الإسلام أثر عنها فالصلاة أهم أعمال الإسلام بعد الشهادتين وهي رمزهما :

إنها تذكرنا أنه لا معبود إلا الله	: إيّاك نعبد
ولا مستعان به إلا الله	: وإياك نستعين
ولا هادي إلى صراط الحق غيره	: إهدنا الصراط المستقيم
وأنه المستحق للتعظيم وحده	: سبحان ربي العظيم
وأن له السيادة والعلو	: سبحان ربي الأعلى
وأنه المنعم المتفضل	: ربنا ولك الحمد

وكما تظهر هذه القضايا في أقوال الصلاة ، فكذلك تظهر في أعمالها من طهارة لها إلى ستر عورة ، إلى استقبال قبلة ، لركوع لسجود ، لقيام لقعود ، وكل ذلك مستمد

من رسول الله ﷺ فيها تتحقق الشهادتان ، والإسلام كله بعد ذلك يقوم : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

١٠ ــ قال عليه السلام : إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله؛ صلاته فإن صلحت فقد أفلح وأنجح وإن فسدت فقد خاب وخسر فإن انتقص من فريضته شيء قال الرب عز وجل : انظروا هل لعبدي من تطوع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة ؟ ثم تكون سائر أعماله على هذا) رواه الترمذي .

وقال عليه السلام : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؟ ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله) متفق عليه .

١١ ــ وأخيراً فإن الحد الأدنى من إقامة الصلاة إقامة فرائضها ، ومن أراد الاستزادة ، من فضل الله وعبادته فقد فتح له باب الاستزادة (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس نسمع دوي صوته ولا نفقه ما يقول حتى دنا من رسول الله ﷺ فإذا هو يسأل عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ خمس صلوات في اليوم والليلة قال هل علي غيرهن ؟ قال لا إلا أن تطوع فقال رسول الله ﷺ وصيام شهر رمضان قال هل علي غيره قال لا ، إلا أن تطوع قال وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة فقال : علي غيرها ؟ قال لا إلا أن تتطوع فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه فقال رسول الله ﷺ أفلح إن صدق) .

وما من حالة يصبح الإنسان فيها في حرج إلا خففت عليه صلاته فالمسافر جعلت له الصلاة الرباعية ثنتين ، والمريض يصلي كما يستطيع قياماً أو قعوداً أو غير ذلك ، ومن لم يجد الماء يتيمم ومن لم يستطع استعماله لمرض يتيمم فلا يعقل أن يكون الإنسان مع هذا كله في حالة لا يستطيع معها القيام بأمر الله ، ولا عذر لإنسان يترك أمره ، وإنها لجناية على ذات الإنسان أن يترك صلاته التي تطهر ظاهره كله بغسل أو وضوء أو سواك أو ... وتطهر باطنه من كل رذيلة لا تليق بالإنسان ثم إنها الجناية على الذات بعد ذلك إذ يدخل النار :

« قالوا : ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين

وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين » .

(ب) صورة من الحديث للصلاة

قال تعالى : « وأقم الصلاة لذكري » وقال : « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا » أي فريضة موقتة بأوقات معينة وقال عليه السلام لمعاذ : (فأعلمهم أن الله تعالى افترض خمس صلوات في كل يوم وليلة) وقال عليه السلام : (الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تُغْشَ الكبائر) فهن خمس صلوات إذن وأوقاتهن ما يلي :

قال عليه السلام : إن للصلاة أولاً وآخِراً وإن أول وقت صلاة الظهر حين تزول الشمس وآخر وقتها حين يدخل وقت العصر وإن أول وقت العصر حين يدخل وقتها (أي حين يكون ظل كل شيء مثله) وإن آخر وقتها حين تصفر الشمس وإن أول وقت المغرب حين تغرب الشمس وإن آخر وقتها حين يغيب الشفق وإن أول وقت العشاء حين يغيب الشفق وإن آخر وقتها حين ينتصف الليل وإن أول وقت الفجر حين يطلع الفجر وإن آخر وقتها حين تطلع الشمس) رواه الترمذي .

وعن مالك قال : كتب عمر إلى عماله إن أهم أموركم عندي الصلاة ، من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع ثم كتب : أن صلوا الظهر إذا كان الفيء ذراعاً الى أن يكون ظل أحدكم مثله . والعصرَ والشمسُ مرتفعة بيضاء نقية قدر ما يسير الراكب فرسخين أو ثلاثة قبل مغيب الشمس. والمغربَ إذا غربت الشمس. والعشاءَ إذا غاب الشفق إلى ثلث الليل فمن نام فلا نامت عينه فمن نام فلا نامت عينه فمن نام فلا نامت عينه . والصبح والنجوم بادية مشتبكة) .

وعن عقبة بن عامر قال : ثلاث ساعات كان رسول الله ﷺ ينهانا أن نصلي فيهن أو نقبر فيهن موتانا حين تطلع الشمس بازغة حتى ترتفع وحين يقوم قائم الظهيرة حتى تميل الشمس وحين تضيف الشمس للغروب حتى تغرب) . وشعار المسلمين إذا دخل وقت صلاتهم أن يؤذنوا : وسنة الأذان :

عن أبي محذورة قال : قلت يا رسول الله علمني سنة الأذان قال : فمسح مقدم

رأسي قال تقول : ألله أكبر ألله أكبر ألله أكبر ترفع بها صوتك ثم تقول : أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله تخفض بها صوتك ثم ترفع صوتك بالشهادة أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله حي على الصلاة حي على الصلاة حي على الفلاح حي على الفلاح فإن كان صلاة الصبح قلت : الصلاة خير من النوم الصلاة خير من النوم ، ألله أكبر ألله أكبر لا إله إلا الله) .

فإذا اجتمع المسلمون للصلاة أقاموا الصلاة ثم وقفوا لأدائها وسنة الإقامة :

قال أبو محذورة : وعلمني (أي رسول الله) الإقامة مرتين مرتين : ألله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله حي على الصلاة حي على الصلاة حي على الفلاح حي على الفلاح الله أكبر ألله أكبر لا إله إلا الله .

وإذا أقمت الصلاة فقلها مرتين : قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة أسمعت ؟ قلت : نعم) فإذا قامت الصلاة أم المسلمين أحدهم يقول عليه السلام : إذا كانوا ثلاثة فليؤمهم أحدهم وأحقهم بالإمامة أقرأوهم) وقال : (يؤم القوم أقرأوهم لكتاب الله فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سناً ولا يُؤم الرجل في بيته ولا في سلطانه ولا يجلس على تكرمته إلا بإذنه) .

ويصلي إمامهم بهم الصبح ركعتين والظهر أربع ركعات والعصر كذلك والمغرب ثلاث ركعات والعشاء أربعاً ومن لم يتح له أن يصلي مع إمام لعذر أو لغير عذر صلاها منفرداً على نقصان في الأجر وخلاف بين الفقهاء في الوزر إن لم يكن صاحب عذر . وأما كيفية الصلاة فقد روى أبو حميد الساعدي كيفية صلاته عليه السلام قال : كان إذا قام إلى الصلاة يرفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه ثم يكبر حتى يقر كل عظم في موضعه معتدلاً ثم يقرأ ثم يكبر ويرفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه ثم يركع ويضع راحتيه على ركبتيه ثم يعتدل ولا يصوب رأسه ولا يقنع ثم يرفع رأسه فيقول سمع الله لمن حمده ، ثم يرفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه معتدلاً ثم يقول ألله أكبر ثم يهوي إلى الأرض فيجافي يديه عن جنبيه ، ثم يرفع رأسه ويثني رجله اليسرى فيقعد عليها ويفتح

أصابع رجليه إذا سجد ثم يسجد ثم يقول الله أكبر ويرفع رأسه فيثني رجله اليسرى فيقعد عليها حتى يرجع كل عظم إلى موضعه ثم يصنع في الأخرى مثل ذلك ، ثم إذا قام من الركعتين كبر ورفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه كما كبر عند افتتاح الصلاة ثم يصنع ذلك في بقية صلاته حتى إذا كانت السجدة التي فيها التسليم أخرج رجله اليسرى وقعد متوركاً على شقه الأيسر) .

وأما تسليمه عليه السلام للخروج من الصلاة فقد وصف : (كان رسول الله يسلم عن يمينه وعن يساره حتى أرى بياض خده) . وقال ابن مسعود : كان يسلم عن يمينه وعن يساره : السلام عليكم ورحمة الله ، السلام عليكم ورحمة الله) أما كيفية وضعه يديه على فخذيه أثناء القعود فقد وصفه أحد الصحابة قال : (كان إذا جلس في الصلاة وضع كفه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابعه كلها وأشار بأصبعه التي تلي الإبهام ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى) (ويده اليسرى على ركبته اليسرى باسطها عليها) . وأما ما يقوله في القعود فقد روى ابن مسعود : علمني رسول الله التشهد كفي بين كفيه كما يعلمني السورة من القرآن : التحيات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) .

وأما السجود فيكون على سبعة أعضاء عن ابن عباس قال : أمرنا النبي ﷺ أن نسجد على سبعة أعضاء ولا نكف شعراً ولا ثوباً : الجبهة واليدين والركبتين والرجلين) وأما الذكر فيه وفي الركوع فقد ورد عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال : (إذا ركع أحدكم فليقل سبحان ربي العظيم ثلاثاً وذلك أدناه وإذا سجد فليقل سبحان ربي الأعلى ثلاثاً وذلك أدناه) .

وأما القراءة في القيام فقد ورد : من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج ثلاثاً غير تمام) قال أبو هريرة : سمعت رسول الله يقول : قال الله تعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله عز وجل حمدني عبدي ، وإذا قال : الرحمن الرحيم قال الله أثنى علي عبدي ، وإذا قال مالك يوم الدين قال مجدني عبدي ، وإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ، وإذا قال : إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال

هذا لعبدي ولعبدي ما سأل) . وكان يقرأ في الركعتين الأوليين من الصلاة المفروضة شيئاً من القرآن غير الفاتحة أما ما زاد على الركعتين فكان يقتصر فيه على الفاتحة قال أبو قتادة : (كان يقرأ في الظهر في الأوليين بــأم الكتاب وسورتين وفي الركعتين الأخيرتين بأم الكتاب ويسمعنا الآية أحياناً ويطول في الركعة الأولى ما لا يطيل في الثانية وكذا في العصر والصبح) .

وقبل الفاتحة في الركعة الأولى يستعيذ بالله فقد جاء عن النبي ﷺ أنه كان يقول قبل القراءة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) .

وقبل الاستعاذة في الركعة الأولى يستفتح بشيء من الذكر فقد ورد أن أبا هريرة قال : قلت يا رسول الله أرأيت إسكاتك بين التكبير والقراءة ماذا تقول، قال أقول : اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب . اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبرد) .

وسُمِع عمر يستفتح: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك) .

هذه الصلوات الخمس لا تصح إلا بأوقاتها فمن صلى صلاة قبل دخول وقتها لم تجز صلاته إلا فيما أبيح فيه الجمع ، كما أنها لا تصح إلا بطهارة كاملة من النجاسات والأحداث فمن أصابت ثوبه أو بدنه نجاسة لزمه تطهيرها، ومن كان جنباً لزمه أن يغتسل ومن لم يكن متوضئاً لزمه الوضوء قال عليه السلام : (لا يقبل الله صلاة بغير طهور) .

وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنباً فاطهروا » وقد وصفت ميمونة زوجة رسول الله غسله من الجنابة فقالت : (فغسل يديه ثم صب بيمينه على شماله فغسل فرجه وما أصابه ثم مسح بيده على الحائط أو الأرض ثم توضأ وضوءه للصلاة غير رجليه ثم أفاض عليه الماء ثم نحى رجليه فغسلهما . هذا غسله من الجنابة) وأما وضوؤه عليه السلام فقد روي ان عثمان دعا بماء فأفرغ على كفيه ثلاث مرات فغسلهما ثم أدخل يمينه في الإناء فمضمض واستنثر ثم غسل وجهه ثلاثاً ويديه إلى المرفقين ثلاث مرات ثم مسح برأسه ثم غسل رجليه ثلاث مرات إلى الكعبين ثم

قال رأيت رسول الله توضأ نحو وضوئي هذا ثم قال : من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه) . كما لا تصح الصلاة إلا إذا كانت عورة الإنسان مستورة وعورة الرجل ما بين سرته إلى ركبتهوالمرأة كلها عورة إلا وجهها وكفيها في الصلاة وفيما عدا الصلاة كلها عورة على القول الذي قامت عليه الأدلة .

كما لا تصح صلاة الإنسان إلا مستقبل البيت الحرام حقيقة ، أو اجتهاداً في محله ، كما لا تصح صلاة بلا نية الصلاة ، فهذه مجملات ما تقوم به الصلاة المفروضة ذكرناها تبركاً بذكر النصوص ، وإلا ففي كتب الفقه كل التفصيلات الدقيقة لكل ماله علاقة بهذه الشئون ، مع جمع لكل ما ورد عن الرسول عليه السلام في هذه المواضيع ، إذ أثر عنه صيغ مختلفة لبعض الفروع مما أدى إلى اختلاف في التطبيق المذهبي لا يضر ما دام معه دليله .

* * *

وأما صلاة التطوع فإنها على أربعة أقسام :

القسم الأول : السنن الرواتب ويدخل فيهـــا راتبة الظهر وهي ثنتان أو أربع قبلها وثنتان بعدها أو أربع ، وراتبة المغرب وهي ركعتان بعدها ، وراتبة العشاء ركعتان بعدها أو أربع ، وراتبة الفجر ركعتان قبلها وراتبة العصر أربع قبلها لمن أحب ، وبعد صلاة العشاء تأتي صلاة الوتر المهمة والتي يمتد وقتها حتى الفجر وأقلها ركعة على بعض المذاهب ، أو ثلاث على رأي آخرين وأكثره إحدى عشرة ركعة ، وراتبة الضحى وأقلها ركعتان وأكثرها ثمان .

القسم الثاني : وهو ما سن له الجماعة من التطوعات وهي صلاة التراويح في رمضان وصلاة العيدين على القول بأنها سنة .

القسم الثالث : التطوع المطلـــق وهو مشروع بالليل والنهار إلا في وقت لم تشرع فيه الصلاة مطلقاً أو صلاة النافلة فقط .

القسم الرابع : صلوات لهـــا أسباب منها تحية المسجد ، ومنها صلاة الإستخارة ، ومن ذلك سجود التلاوة ، وسجود الشكر ، وقد ورد في ذلك كله آثار نثبت بعضها :

قال عليه السلام : (ركعتا الفجر أحب إلي من الدنيا وما فيها) رواه مسلم . وقال عن صلاة الفجر أي التطوع (صلوها ولو طردتكم الخيل) أبو داوود .

وقال عليه السلام : (من حافظ على أربع قبل الظهر وأربع بعدها حرمه الله على النار) رواه الترمذي وقال عنه : حديث حسن صحيح .

وقال عليه السلام : (رحم الله امرءاً صلى قبل العصر أربعاً) رواه أبو داوود .

وقالت عائشة : (ما صلى رسول الله ﷺ العشاء قط إلا صلى أربع ركعات أو ست) ، أبو داوود

وقال عليه السلام : (إن الله زادكم صلاة فصلوها ما بين صلاة العشاء إلى صلاة الصبح الوتر) أحمد .

وقال عليه السلام : (الوتر حق فمن أحب أن يوتر بخمس فليفعل ومن أحب أن يوتر بثلاث فليفعل ومن أحب أن يوتر بواحدة فليفعل) رواه أبو داوود .

وقال أبو هريرة : (أوصاني خليلي بثلاث صيام ثلاثة أيام من كل شهر وركعتي الضحى وأن أوتر قبل أن أنام) متفق عليه .

وروت أم هانيء : (أن النبي ﷺ دخل بيتها يوم فتح مكة فصلى ثمان ركعات فلم أر قط صلاة أخف منها غير أنه يتم الركوع والسجود) متفق عليه .

وروى مسلم عنه عليه السلام : (صلاة الأوابين حين ترمض الفصال) أي حين تؤثر الشمس على خفاف صغار الإبل .

وقال عليه السلام : (من حافظ على شفعة الضحى غُفِرَتْ ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر) .

وقال عليه السلام : (من صام رمضان وقامه إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه) .

وأما التطوع فقـــد ذكر عنه صاحب كتاب الكافي من فقهاء الحنابلة :

(التطوع المطلق وهو مشروع في الليل والنهار وتطوع الليل أفضل لقول رسول

الله ﷺ أفضل الصلاة بعد المفروضة صلاة الليل) وهو حديث حسن ، والنصف الأخير أفضل . قال عمرو بن عبسة : قلت يا رسول الله : (أي الليل أسمع قال جوف الليل الأخير) رواه أبو داوود . وقال النبي ﷺ (أحب الصلاة إلى الله صلاة داوود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه) متفق عليه .

ويستحب للمتهجد أن يفتتح صلاته بركعتين خفيفتين لقول رسول الله ﷺ : ﴿إذا قام أحدكم من الليل فليفتح صلاته بركعتين خفيفتين﴾ رواه مسلم ويستحب أن يكون له ركعات معلومة يقرأ فيها حزبه من القرآن لأن رسول الله ﷺ قال : أحب العمل إلى الله الذي يدوم عليه صاحبه وإن قل) متفق عليه . وقالت عائشة : (كان رسول الله ﷺ يصلي ما بين أن يفرغ من صلاة العشاء الآخرة إلى الفجر إحدى عشر ركعة) رواه مسلم .

وهو مخير إن شاء خافت وإن شاء جهر قالت عائشة : ﴿كل ذلك كان يفعل النبي ﷺ ربما أسر وربما جهر﴾ حديث صحيح إلا أنه إن كان يسمع من ينفعه أو يكون أنشط له وأطيب لقلبه فالجهر أفضل ، وإن كان يؤذي أحداً أو يخالط عليه القراءة فالسر أولى ، فإن أبا سعيد قال : اعتكف رسول الله ﷺ في المسجد فسمعهم يجهرون بالقراءة فكشف الستر وقال : ألا إن كلكم مناج ربه فلا يؤذين بعضكم بعضاً ولا يرفع بعضكم على بعض في القراءة﴾ رواه أبو داوود .

* * *
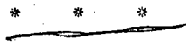
وقال عليه السلام : ﴿إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس﴾. وروى جابر قال : ﴿كان رسول الله ﷺ يعلمنا الإستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن يقول : ﴿إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، أللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي ومعادي وعاقبة أمري أو قال في عاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال : في عاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به﴾ أخرجه البخاري . وقال ابن عمر : كان رسول الله ﷺ يقرأ

علينا السورة في غير الصلاة فيسجد فنسجد معه حتى لا يجد أحدنا مكاناً لوضع جبهته﴾ متفق عليه .

وروى أبو بكر قال : كان النبي ﷺ إذا جاءه الشيء يسر به خرَّ ساجداً) ذكره صاحب الكافي. وروى عبد الله بن زيد قال : خرج النبي ﷺ يستسقي فتوجه إلى القبلة يدعو وحوّل رداءه وصلى ركعتين جهر فيهما بالقراءة) متفق عليه .

وعن عائشة قالت : خسفت الشمس عـلى عهد رسول الله ﷺ فبعث منادياً فنادى الصلاة جامعة وخرج إلى المسجد وصف الناس وراءه وصلى أربع ركعات في ركعتين وأربع سجدات) متفق عليه .

وروى ابن عباس : أن النبي ﷺ صلى ست ركعات وأربع سجدات) رواه مسلم وهو أيضاً في باب الخسوف . وقال عمر : (صلاة الأضحى ركعتان وصلاة الفطر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم ﷺ وقد خاب من افترى) رواه احمد .

وروت عائشة أن رسول الله ﷺ قال : (التكبير في الفطر والأضحى في الأولى سبع تكبيرات وفي الثانية خمس تكبيرات سوى تكبيرتي الركوع) رواه ابو داوود .

وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أملح ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر) متفق عليه .

وروى أبو سعيد أن رسول الله ﷺ قال : (لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر بما استطاع من طهر ويدهن من دهنه ويمس من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ثم صلى ما كتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى) رواه البخاري .

وقال رسول الله ﷺ لبلال : (يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة قال : ما عملت عملاً أرجى عندي من أني لم

أتطهر طهوراً في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي) رواه البخاري .

* * *

هذا عرض سريع للصلاة في الإسلام وقد سن الرسول ﷺ أن ترافق بعض الصلوات أذكار معينة فمثلاً عن ثوبان قال : (كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً وقال : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام) رواه مسلم .

وعن المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة وسلم قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَد) متفق عليه .

وعن عبد الله بن الزبير / رضي / . أنه كان يقول دبر كل صلاة حين يسلم : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) قال ابن الزبير : وكان رسول الله ﷺ يهلل بهن دبر كل صلاة) رواه مسلم .

وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين وحمد الله ثلاثاً وثلاثين وكبر الله ثلاثاً وثلاثين وقال تمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر) رواه مسلم .

وعن كعب بن عميرة عن رسول الله ﷺ قال : معقبات لا يخيب قائلهن أو فاعلهن دبر كل صلاة مكتوبة ثلاثاً وثلاثين تسبيحة وثلاثاً وثلاثين تحميدة وأربعاً وثلاثين تكبيرة) رواه مسلم .

وعن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ : كان يتعوذ دبر الصلوات بهؤلاء الكلمات : اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل

العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وأعوذ بك من فتنة القبر) رواه البخاري .

وعن معاذ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال : يا معاذ والله إني لأحبك فقال : أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقول : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) رواه أبو داوود بإسناد صحيح ..

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع يقول : أللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة المسيح الدجال) رواه مسلم .

وعن أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فقال : ما زلت على الحال التي فارقتك عليها قالت : نعم . فقال النبي ﷺ : لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته) رواه مسلم .

* * *

الركن الثالث : الـــزكاة

(أ) نظرات عامة في الزكاة :

١ ــ إن مرتكز نظام المال في الإسلام الزكاة ، فهي بمثابة العمود الفقري فيه ، إذ أن نظام المال في الإسلام يقوم على أساس الاعتراف لله بأنه المالك الأصيل ؛ وبالتالي الاعتراف بأن له وحده حق تنظيم قضية التملك والحقوق فيه ومآله ، والزكاة هي التعبير العملي عن هذا كله ، إذ أنها أهم الحقوق التي جعلها الله في الملك ، وليست كلها كما يفهم بعض الناس . فقد ورد في الحديث : (إن في المال حقاً سوى الزكاة) إلا أن هذه الزكاة هي أهم الحقوق في المـــال ، ولذلك كانت رمز الاستسلام لله في قضايا المال كلها يقول عليه السلام : (والصدقة برهان) . ومن دراستها يفهم الكثير من مواقف الإسلام من قضية رأس المال

من هذه المواقف :

ــ أن كنز المال وتجميده ليس وضعاً صحيحاً للمال ، بل تشغيله هو الوضع الصحيح والزكاة هي التنظيم العملي لهذا . إذ أن صاحب رأس المال عندما يعطله عن العمل مع دفعه زكاته يتنازل عن جزء منه سنوياً ، مما يؤدي إلى تقلص رأس المال بالنهاية .

فمثلاً لو كان إنسان يملك الملايين ولا يشغلها فهو سيدفع منها سنوياً ٢,٥٪ زكاة ، ففي خلال سنوات ستزول هذه الملايين كلها ما عدا النصاب ؛ وإذن فصاحب رأس المال مضطر لتشغيله وتنميته إذا أراد المحافظة على رأسماله ، حتى تكون الزكاة على حساب الربح لا على حساب رأس المال نفسه ، وعلى هذا فنظام الزكاة يجعل رأس المال في حالة حركة دائمة بشكل عفوي ولكنه قسري ، ومن هنا نفهم معنى الآية : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » فلا كنز ما دام

الإنفاق في سبيل الله موجوداً وأقله ، الزكاة وفي الأثر : (ما أديت زكاته فليس بكنز) . إذ لا تجتمع الكنزية والزكاة . ومن هنا نفهم كذلك خطأ الذين فهموا أن الإسلام يحرم على الإنسان أن يدخر أمواله ولو أدى زكاتها ، أخذاً من الآية . إن المفهوم الصحيح هو الذي ذكرناه ، وهو أن صاحب رأس المال ما دام يدفع زكاته فإنه مضطر لتشغيله لينمو ، أو أنه سيزول تلقائياً . وفي كلتا الحالتين تنعدم الكنزية في الأموال .

– ومنها : أن رأس المال ليس من حقه الربح لأنه رأسمال مجرد ، بل للآخرين فيه حق لمجرد أنه رأسمال ، ولا يستحق رأس المال الربح بعد هذا إلا في مقابل استعداده لتحمل الخسارة . فمثلاً في شركة المضاربة ، إنما يستحق صاحب رأس المال الربح في مقابل تحمله الخسارة كلها في حالة الخسران ، وكذلك في كل حالة يعمل فيها رأس المال ، إنما يستحق الربح في مقابل استعداده لتحمل الخسارة ، أما رأس المال المجرد ، فإنه يستحق النقصان بالزكاة ولا يستحق الربح بدون مقابل .

وهذا فارق دقيق كبير بين النظرة الرأسمالية والشيوعية من جهة وبين النظرة الإسلامية إلى قضية رأس المال .

فالنظرية الرأسمالية ترى أن رأس المال يستحق الربح دائماً وبلا مقابل ، ومن هنا أجازوا الربا وأمثاله مما يكون فيه رأس المال رابحاً في كل حالة ، ولم يفرضوا على رأس المال أي ضريبة ، وإنما تكون الضرائب على أرباح رأس المال .

والنظرية الشيوعية التي تعتبر رأس المال مستغلاً في كل حالة ، وأنه يمتص أرباح العمال وقد عبر عن هذا ماركس بنظرية فضل القيمة التي هي : أن العامل عندما يشتغل عند رب العمل يقدم إنتاجاً قيمته أكثر مما يعطيه رب العمل من أجر ، هذا الفائض من الربح يذهب إلى يد صاحب رأس المال مستغلاً جهود مئات البشر بواسطة ماله .

إن الإسلام بواسطة أنظمته كلها ، وبواسطة الزكاة قد جعل المسألة في وضع لا يمكن أن يكون هناك أعدل منه :

المال يربح في مقابل تحمله الخسارة .

وصاحب رأس المال يربح في مقابل إدارته وتحمله الخسارة ؛

وعلى صاحب رأس المال أن يدفع سنوياً ، لا من الأرباح وحدها ، بل من الأرباح ورأس المال هذه النسبة المئوية الثابتة ، لاصناف من البشر معينين ، وعلى هذا فقد أصبح فضل القيمة التي تصوره ماركس لا يعود إلى جيب الرأسمالي منه إلا مقدار ضئيل يستحقه ، والبقية ترجع إلى أصناف من المجتمع تستحقهـــا لتحقيق التضامن الاجتماعي الذي يجب أن يشارك فيه كل انسان قادر ؛ هذا مع ملاحظة أن العامل عند رب العمل ينبغي أن يأخذ حقه كاملاً كما سنرى إن شاء الله عند البحث عن منهاج المال في الاسلام .

٢ ـ هذه الزكاة حاول بعض الناس أن يصوروها بأنها ضريبة كبقية الضرائب التي تفرضها الدولة ، وحاول بعض الناس أن يصوروها بأنها صدقة طوعية لا علاقة للدولة بها ، وكلتا النظريتين خاطئة خطأ جسيماً في هذا الموضوع والنظرة السليمة لهذا الموضوع ـ والله أعلم ـ هي ما يلي :

ـ إذا اعتبرنا ضريبة الدولة العادلة هي ما تأخذه في مقابل تحقيقها للمشاريع اللازمة للأمة ، وعلى هذا تكون الضريبة العادلة حق الدولة في المال ، فإن الزكاة تختلف عن هذا بأنها حق أصناف معينين من الناس في المال ، فليست الزكاة حق الدولة ، وإنما هي حق أصحابها الذين عينهم الشارع ، والذين سنراهم أثناء هذا البحث .

ـ إلا أن الدولة هي المسئولة عن وصول هذه الحقوق المالية إلى أصحابها ، بل اعتبرها القرآن من الواجبات الأساسية للدولة أن تقوم بهذه المهمة فقال :

« ألذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .

وعلى هذا فالوضع العادي في دولة إسلامية ، أن تُنشيء هذه الدولة مؤسسة مستقلة ، مهمة هذه المؤسسة جباية الزكوات وتوزيعها ، مع ملاحظة أن نفقات هذه المؤسسة بموظفيها ينبغي أن تكون من مال الزكاة أو نقول : رواتب الموظفين من مال الزكاة ، والسكن وتوابعه يكون من خزينة الدولة .

وهناك ناحية مهمة . هي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه الخليفة الراشد قد أوكل إلى أصحاب رؤوس الأموال الباطنة (الذهب والفضة) أن يخرجوا بأنفسهم

زكوات أموالهم ، وذلك نتيجة لما أصبح عليه المسلمون من سعة في عصره ، فهل يبقى هذا الأمر معمولاً به في عصرنا ؟

الذي نقوله : إن تعقيد الحياة الاقتصادية في زماننا ، والحاجة إلى وجود رؤوس أموال ضخمة متجمعة في مؤسسات خاصة ، وتعقيد طرق الإنفاق والحاجة إلى تنظيمها ، كل هذا يجعل الحاجة ملحة للعودة بالمسألة إلى ما كانت عليه زمن رسول الله ﷺ والخليفتين الراشدين أبي بكر وعمر. وهو أن تتبنى الدولة الجمع كله وهي التي تقوم بعملية التوزيع ، خاصة وقد تأكدنا أن كثيراً من الناس لا يدفعون زكوات أموالهم .

– وقد وضع الإسلام بيد الدولة سلطة واسعة في موضوع جباية الزكاة فأعطاها حق محاربة المانعين للزكاة إذا كانوا فئة قوية ، وقد روي في ذلك : (لما توفي رسول الله ﷺ وكان أبو بكر رضي الله عنه وكفر من كفر من العرب ، فقال عمر رضي الله عنه : كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه . قال عمر / رضي / فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق) متفق عليه .

كما أعطى الإسلام الدولة حق مصادرة جزء من مال مانع الزكاة إذا كان فرداً فقد ورد في الحديث : (من أعطاهـا مؤتجراً فله أجرها ومن منعها فإنا آخذوها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا ، لا يحل لآل محمد منها شيء) فعلى هذا إذا ثبت أن إنساناً ما ، معه مال ، ويمنع زكاته ، فللدولة عدا عن محاسبته الدقيقة على زكواته الممنوعة ، أن تعاقبه بأخذ شطر ماله عقوبة مالية .

٣ – والأموال التي يجب فيها الزكاة خمسة :

أ – عروض التجارة .

ب – الذهب والفضة وما يلحق بهما من نقد .

جـ – الزروع والثمار .

د – الأنعـام .

هـ – المعدن والركاز .

ويلاحظ أن أئمة الإجتهاد في الإسلام ، قد اختلفت اجتهاداتهم في جزئيات كثيرة من هذه النواحي الخمسة ، وهذا يتيح للدولة الإسلامية آفاقاً واسعة في التطبيق ، فإنها تستطيع أن تأخذ من الآراء المطروحة أمامها للقضية الواحدة الرأي الأنسب لكل وضع من الأوضاع . فقد ترى مثلاً أن الأنسب في بعض الحالات ، أن تتبنى رأي الحنابلة في زكاة المعدن ، وقد تأتي حالة يستغني بها الناس فترى الدولة أن تتبنى رأي الشافعية ، فتعدد الآراء الاجتهادية في القضية الواحدة التي ليس فيها نص لصالح المسلمين ، توسعة عليهم ، ولصالح حكومتهم التي لا تضيق أمامها سبل الحل لأي مشكلة ، وسنستعرض بايجاز كل قسم من أقسام الأموال التي تجب فيها الزكاة .

١ ـ زكاة النقود

المقصود بالنقود الآن الذهب والفضة ، والأوراق المالية والعملة المتداولة المفيدة مالاً ، سواء كانت نحاسية أو غيرها ، فكلها مالٌ تجب فيه الزكاة المفروضة المقدرة ، وهي وإن كانت في الأصل فرضت على النقد الذي هو ذهب وفضة ، إلا أن الأوراق والعملة المالية لها حكم الذهب والفضة ، لأنها مسنودة بهما عادة ، ويستطيع الإنسان أن يحصل بدلها ذهباً أو فضة مباشرة .

فما ملكه الإنسان من ذهب أو فضة أو عملة مالية ، فعليه زكاته إذا كان مالكاً أكثر من الحد الأدنى الذي أهدر الشارع وجوب الزكاة فيه ، وحال على بداية هذا التملك حول قمري كامل ، فإن عليه أن يدفع مما ملكه ٢,٥٪ وما يربحه خلال العام ، يضاف إلى الرأسمال ، ويدفع عن الجميع ، فالزكاة مستحقة على المال وعلى نموه خلال العام .

٢ ـ عروض التجارة

وكل شيء اشتراه الإنسان ونواه للتجارة ، فإنه يُقوَّم وتدفع زكاته ،كزكاة النقود ، وتخرج زكاة العروض مضافة إلى النقد إن كانا مملوكين لواحد ، فإذا حال الحول على مبدأ ملك النصاب ، أو على آخر زكاة زكاها الإنسان ، فإنه يقوّم ما يملكه من عروض التجارة ، ويضيفه إلى ما يملكه من نقد ، ثم يخرج زكاة الجميع

بعد ان يحذف من الجميع ما عليه من ديون حتى مهر زوجته على مذهب الحنفية .

أما الديون التي للإنسان ، فهل تضاف إلى هذا وهذا ، ويخرج زكاة الجميع في رأس الحول .

يقول فقهاء الحنفية :

أما الدين القوي كدين القرض والتجارة ، فإنه يزكى إذا قبض عن كل السنين الماضية ، وكلما استلم دفعة منه يزكيها إذا كانت ليست أقل من أربعين درهماً (الدرهم حوالي /٣٥/ قرش سوري .

وأما الدين المتوسط ، كدين كان نتيجة عن بيعه شيئاً من حاجاته الأصيلة ، كدار السكنى وثيابه ، فكذلك يدفع زكاته عما مضى من سنين إذا كان ما قبضه ليس أقل من مئتي درهم .

وأما الدين الضعيف كدين المرأة على زوجها من مهرها ، أو دين زوجها عليها من خلعها ، فإنه ليس عليه زكوات عن ما مضى قبل القبض . فإذا ما قبض يزكى بعد حولان الحول عليه .

٣ ــ زكاة الزروع والثمار

قال الحنفية :

الأرض العشرية في كل ما يخرج منها الزكاة ، القليل والكثير ، وما يبقى وما لا يبقى ، عشرة بالمئة من الخارج ، إذا كانت الأرض تسقى بماء السماء ، أو بماء سيح لم يكلف شيئاً ، وخمسة بالمئة إذا كانت تسقى بكلفة كآلة .

وقال الشافعية :

ما يخرج من الأرض سواء كانت عشرية أو خراجية فيه زكاة إذا توفرت فيه شروط معينة :

١ ـ أن يكون مما يقتات به .

٢ ـ أن يكون مملوكاً لمالك معين .

٣ ـ أن يبلغ نصاباً ، والنصاب عندهم خمسة أو سق والوسق يعدل ١٢٠ كلغ .

٤ ـ إذا كان ثمراً ، أو يكون عنباً ورطباً ، أما غيرها من الفواكه فلا زكاة فيها عندهم .

فإذا ما اجتمعت شروط الزكاة في نتاج الأرض زكى فأخرج العشر مما يسقى بلا كلفة ، ونصف العشر فيما يسقى بكلفة ، وثلاثة أرباع العشر فيما كان مختلطاً .

ومذهب الحنابلة والمالكية قريب من مذهب الشافعية .

٤ ـ زكاة الأنعام

الأنعام إن كانت للتجارة فهي من عروض التجارة .

وإن كانت للدر والنسل والعمل و تعلف كل العام ، فليس فيها زكاة إلا على رأي المالكية ، إذا بلغت نصاباً ، وإن كانت للسوم والرعي . ففي البقر بأنواعه ، والغنم مع المعز والجمال بأنواعها زكاة إذا بلغت نصاباً وحال عليها الحول .

والنصاب في الإبل خمس ، وفي البقر ثلاثون ، وفي الغنم أربعون ، فاذا بلغت الإبل خمساً ففيها شاة وإذا بلغت البقر ثلاثين ففيها بقرة عمرها سنة ، وإذا بلغت الغنم أربعين ففيها شاة ، وهذا بداية النصاب ثم تكون الزكاة كل عدد بحسابه الخاص المقرر بالسنة الصحيحة .

٥ ـ زكاة المعدن

قال المالكية :

المعدن هو ما خلقه الله تعالى في الأرض من ذهب أو فضة ونحاس ورصاص ومغرة وكبريت ، وإنما تجب الزكاة في الذهب والفضة المستخرجين من الأرض إذا

بلغا نصاباً ، سواء كان المستخرج مسلماً أو غير مسلم ، في أرض الإسلام على قول ، وفي قول آخر لا بـــد من الإسلام ، ولا يشترط للوجوب حولان الحول . وقال الحنابلة :

المعدن هو كل ما تولد من الأرض وكان من غير جنسها ، سواء كان جامداً كذهب وفضة وبلور وعقيق ونحاس ، أو مائعاً كزرنيخ ونفط ونحو ذلك فيجب على من استخرج من ذلك شيئاً وملكه ربع العشر بشرطين :

الأول : أن يبلغ بعد تصفيته نصاباً من ذهب أو فضة ، أو ما تساوي قيمته نصاباً من غيرهما .

الثاني : أن يكون المستخرج مسلماً .

فإذا توفر الشرطان فقد وجب إخراج ربع العشر زكاة تصرف في مصارفها .

وقال الشافعية :

تجب الزكاة في المستخرج من الأرض إذا كان ذهباً أو فضة فقط ، دون اشتراط حولان الحول ، وكان المستخرج قد استخرجه من أرض مباحة ، أو مملوكة للمستخرج .

٤ ــ مما تقدم ندرك مقدار ما يمكن أن تجمعه الدولة في صندوق الزكاة من زكاة ، خاصة إذا أخذت بأعلى أقوال الأئمة إيجاباً ، وبالدمج بين بعض الأقوال لاستخراج حكم جديد مناسب ، لقضية ظهر في عصرنا بعض جوانبها أكثر من السابق .

فكل الأوراق النقدية الموجودة في أيدي الأفراد ، أو الشركات التي ترجع لأفراد فيها الزكاة .

وكل عروض التجارة الموجودة في الأسواق والمصانع وغيرها فيها الزكاة .

وكل الأغنام والأبقار والجمال فيها الزكاة بعد إسقاط العفو .

والزروع والثمار فيها كذلك حقوق .

والمستخرج من الأرض وخاصة البترول فيه كذلك حقه ، وكل ذلك لصناديق الزكاة ، وكل هذا لحل مشاكل المسلمين الإقتصادية بشكل عملي ومباشر .

٥ ـ هذه الأموال التي تتجمع في صناديق الزكاة تنفق على فئات ثمان :

١ ـ الفقراء . ٢ ـ المساكين . ٣ ـ موظفو الزكاة . ٤ ـ المؤلفة قلوبهم . ٥ ـ الغارمون . ٦ ـ مساعدة العبيد على الحرية . ٧ ـ المسافر المنقطع ٨ ـ في سبيل الله .

وقد جمعت هذه الأصناف كلها الآية : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفةقلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » .

ويدخل في الغارمين من استدان ليتزوج ، أو عقد العقد وأصبح المهر عليه ديناً ، فإنه يأخذ ليفي دينه . ويدخل في الغارمين من كان عليه دين كأثر عن بنائه داراً لسكناه وسكنى عياله ، فيعطى ما يفي دينه . ويدخل في الفقراء الطلاب الذين قد بلغوا وليس لهم ملك خاص بهم ، ولو كان آباؤهم أغنياء فيعطون راتباً شهرياً حتى ينهوا دراساتهم . ويدخل في الفقراء والمساكين العمال الذين لا يوجد لديهم رأسمال يقيمون به عملهم فيعطون رأسمال كافياً ، والطبيب عامل والصيدلي عامل ؛ فإذا تخرج الطبيب وليس لديه آلة عمل ، يعطى من مال الزكاة ما يقيم به عيادته .

ويدخل / في صنف سبيل الله / أن يعطى المجاهدون والفدائيون وكل فقراء المسلمين ثمن سلاح ليكون بيدهم بشكل دائم . ويدخل في المؤلفة قلوبهم ، أن يعطى الزعماء السياسيون المجمدون عن العمل السياسي في الدولة الإسلامية ، وأصحاب الصحف في زماننا . ويدخل في الفقراء والمساكين العاجزون عن العمل ، فيشترى لهم على مذهب الشافعية عقاراً يملكونه ويعيشون من ريعه مدى حياتهم ، إذا كان أمثالهم يعيشون زمناً يكون ما يأخذونه خلاله يساوي ثمن عقار ، وإلا فيدفع لهم رواتب حتى يعيشوا . ويدخل في الفقراء والمساكين كل العاطلين عن العمل لفقدان العمل ، حتى يجدوا عملاً ، أو توجد لهم الدولة عملاً إذا كانوا لا يملكون مالاً .

ولتوضيح بعض مضامين ما تقدم ننقل هـذا البحث الطيب للاستاذ يوسف القرضاوي[1] يقول تحت عنوان : من هم الفقراء والمساكين أو الذين تصرف لهم الزكاة :

---

(١) ـ خطتنا في هذا الكتاب إذا وجدنا بحثاً ناضجاً يوفي البحث الذي نريد كتابته حقه أن ننقله مستغنين بذلك عن كتابته بقصد الاستفادة من كل ما كتب عن الإسلام .

عني القرآن الكريم بمصارف الزكاة أكثر مما عني بمصادرها ووعائها ، لأن جباية الأموال قد تكون سهلة على أصحاب السلطان بوسائل شتى ، ولكن الصعب حقاً هو صرفها في وجوهها ، وإيتاؤها أهلها ، ووضعها موضعها . ومن ثم لم يدع القرآن تحديد مصارف الزكاة لرأي حاكم وهواه ، ولا لطمع طامع يريد ان يزاحم المستحقين بالباطل . فنزل كتاب الله يبين الأشخاص والجهات التي تصرف فيها ولها الزكاة ؛ فكان ذلك رداً على المنافقين الذين سال لعابهم شرهاً إلى أموال الزكاة بغير حق ، ولمزوا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه أهملهم ولم يستجب لأطماعهم ... قال تعالى : « ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون .. إلى أن قال : إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » . (التوبة ٥٨ : ٦٠) .

وقد روى أبو داود أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : أعطني من الصدقات فقال له ان الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقة حتى حكم هو فيها فجزأها ثمانية أجزاء فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقك) .

والذي يعنينا في بحثنا هذا من تلك الأجزاء أو المصارف الثمانية هو الفقراء والمساكين وهما أول المصارف التي جعلها الله أهلاً لاستحقاق الزكاة .

قد اختلف الفقهاء والمفسرون في تحديد مفهوم الفقير والمسكين ، والفرق بينهما ، وأيهما أسوأ حالاً ؟ وهو خلاف لا يترتب عليه حكم في باب الزكاة بعد أن اتفق الجميع على أنهما صنفان لجنس واحد هو أهل العوز والحاجة .

والراجح : أن الفقير هو إسم للمحتاج الذي لا يسأل الناس ، والمسكين هو الذي يسأل الناس ويطوف عليهم .

ويرى جمهور الفقهاء أن الفقير أسوأ حالاً من المسكين . وحدده بعضهم بقوله : الفقير من لا يملك شيئاً أو يملك دون نصف الكفاية لنفسه ولمن يعوله . والمسكين من يملك نصف الكفاية أو معظمها ولكن لا يملك تمام الكفاية .

المستورون المتعففون أولى بالزكاة :

ولقد يظن كثير من الناس — من سوء العرض لتعاليم الإسلام ، وسوء التطبيق لها ، أن الفقراء والمساكين المستحقين للزكاة ، هم أولئك المتبطلون أو المتسولون الذين احترفوا سؤال الناس ، وتظاهروا بالفقر والمسكنة ، ومدوا أيديهم للغادين والرائحين في المجامع والأسواق ، وعلى ابواب المساجد وغيرها ، ولعل هذه الصورة للمسكين كانت ماثلة في أذهان كثير من الناس منذ زمن قديم ، حتى في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم مما جعله عليه السلام ينبه الناس على أهل الحاجة الحقيقيين الذين يستحقون معونة المجتمع بحق ، وإن لم يفطن لهم الكثيرون . فقال عليـــه الصلاة والسلام في ذلك : (ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان ولا اللقمة واللقمتان ، وإنما المسكين الذي يتعفف اقرؤوا إن شئتم « لا يسألون الناس إلحافا »[1] .

ومعنى « لا يسألون الناس الحافا » : لا يلحون في المسألة ، ولا يكلفون الناس ما لا يحتاجون إليه ، فإن من سأل وعنده ما يغنيه عن المسألة فقد ألحف .

وهذا وصف لفقراء المهاجرين الذين انقطعوا إلى الله ورسوله ، وليس لهم مال ولا كسب يردون به على أنفسهم ما يغنيهم[2] .

قال الله تعالى في وصفهم والتنوية بشأنهم : « للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا » .

فهؤلاء وأشباههم أحق الناس أن يعانوا كما أرشدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه المذكور... وفي رواية أخرى :(ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يُفطن له فيُتصدق عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس)[3] . ذلك هو المسكين الجدير بالمعونة، وإن كان الناس يغفلون عنه ، ولا يفطنون له ، ولكن رسول الإسلام لفت الأنظار

---

(١) البقرة/٢٧٣

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٢٤ .

(٣) الحديث برواياته — متفق عليه .

إليه ، ونبه العقول والقلوب إليه ، وإنه ليشمل كثيراً من أصحاب البيوتات ، وأرباب الأسر ، والمتعففين الذين أخنى عليهم الزمن ، أو قعد بهم العجز ، أو قل مالهم وكثرت عيالهم ، أو كان دخلهم من عملهم لا يشبع حاجاتهم المعقولة .

وقد سئل الإمام الحسن البصري عن الرجل تكون له الدار والخادم ، أيأخذ من الزكاة ؟ فأجاب بأنه يأخذ إن احتاج ولا حرج عليه[١] .

وسئل الإمام أحمد في الرجل : إذا كان له عقار يستغله ، أو ضيعة تساوي عشرة آلاف درهم أو أقل من ذلك ، أو أكثر ، ولكنها لا تقيمه – يعني لا تقوم بكفايته – فقال : يأخذ من الزكاة[٢] .

وقال الشافعية : إذا كان له عقار ، وينقص دخله عن كفايته ، فهو فقير أو مسكين . فيعطى من الزكاة تمام كفايته ولا يكلف بيعه[٣] .

وقال المالكية : يجوز دفع الزكاة لمن يملك نصاباً أو أكثر لكثرة عياله ، ولو كان له الخادم والدار التي تناسبه[٤] .

وقال الحنفية : لا بأس بأن يعطى من الزكاة من له مسكن ، وما يتأثث به في منزله ، وخادم وفرس وسلاح ، وثياب البدن ، وكتب العلم إن كان من أهله ، واستدلوا بما روي عن الحسن البصري أنه قال : (كانوا يعطون الزكاة لمن يملك عشرة آلاف درهم من الفرس والسلاح والخادم والدار) .

وقوله (كانوا) : كناية عن أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهذا لأن هذه الأشياء من الحوائج اللازمة التي لا بد للانسان منها ، فكان وجودها وعدمها سواء[٥] .

ليس المقصود بالزكاة إذن المعدم المترب فقط ، ذلك الذي لا يجد شيئاً ، أو لا

---

(١) الاموال لأبي عبيد ص ٥٥٦ .
(٢) المغني مع الشرح الكبير جـ ٢ ص ٥٢٥
(٣) المجموع جـ ٦ ص/١٩٢ .
(٤) شرح الخرشي وحاشية العدوي على خليل جـ ٢ ص ٢١٥ .
(٥) بدائع الصنائع للكاساني جـ ٢ ص /٤٨ .

يملك شيئاً ، وإنما يقصد بها أيضاً ذلك الذي يجد بعض الكفاية ، ولكنه لا يجد كل ما يكفيه .

لاحظ في الزكاة لقوي مكتسب :

وإذا كان مدار الاستحقاق هو الحاجة – حاجة الفرد إلى كفاية نفسه ومن يعوله – فهل يعطى المحتاج وإن كان متبطلاً يعيش عالة على المجتمع ، ويحيا على الصدقات والإعانات ، وهو مع ذلك قوي البنيان ، قادر على الكسب ، وإغناء نفسه بكسبه وعمله ..

لقد فهم ذلك بعض الناس خطأ ، فظنوا الزكاة إغراء بالبطالة ، وتشجيعاً للكسالى والقاعدين ، ولكن نصوص الإسلام ومبادئه تقضي بغير هذا .

فالواجب على كل قوي قادر على العمل ، أن يعمل ، وأن ييسر له سبيل العمل ، وبذلك يكفي نفسه بكد يمينه وعرق جبينه ، وفي الحديث الصحيح : (ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده[1] .. ومن أجل ذلك رأينا رسول الإسلام يقول في صراحة ووضوح : (لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي)[2] – والمرة القوة والشدة . والسوي المستوي السليم الأعضاء – .

ولا اعتداد بالقدرة الجسمانية واللياقة البدنية ، ما لم يكن معها كسب يغني ويكفي ، لأن القوة بغير كسب ، لا تكسو من عري ، ولا تطعم من جوع ، قال النووي : (إذا لم يجد الكسوب من يستعمله حلت له الزكاة لأنه عاجز)[3] . فإذا كان الحديث المذكور قد اكتفى بذكر (ذي المرة السوي) فإن حديثاً آخر قيد هذا الإطلاق وأضاف إلى (القوة) (الاكتساب) فعن عبيد الله بن عدي الخيار ، أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي – صلى الله عليه وسلم – يسألانه من الصدقة ، فقلب فيهما البصر ورآهما جلدين (قويين) فقال : إن شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها – أي في الزكاة – لغني ولا لقوي مكتسب)[4] .

---

(١) رواه البخاري وغيره – الترغيب والترهيب للمنذري ج ٢ أول كتاب البيوع .

(٢) رواه الخمسة – وحسنه الترمذي .

(٣) المجموع ج ٦ ص ١٩١

(٤) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وقال أحمد : ما اجوده من حديث . وقال النووي : هذا الحديث =

وإنما خيرهما الرسول — صلى الله عليه وسلم — لأنه لم يكن على علم بباطن أمرهما ، فقد يكونان في الظاهر جلدين قادرين ، ويكونان في الواقع غير مكتسبين ، أو مكتسبين كسباً لا يكفي .

واستدل العلماء بالحديث على أنه ينبغي لولي الأمر — أو رب المال — وعظ آخذ الزكاة الذي لا يعرف حقيقة حاله ، وتعريفه أنها لا تحل لغني ، ولا لقادر على الكسب ، أسوة برسول الله[1] — صلى الله عليه وسلم — . والمراد بالاكتساب : إكتساب قدر الكفاية ، وإلا كان من أهل الاستحقاق ، والعجز عن أصل الكسب ليس بشرط . ولا يصح أن يقال بوقوف الزكاة على الزمنى والمرضى والعجزة فحسب .

قال النووي : والمعتبر كسب يليق بحاله ومروءته . وأما ما لا يليق به فهو كالمعدوم[2] .

على أن حديث تحريم الزكاة على (ذي المرة السوي) يعمل بإطلاقه بالنسبة للقادر الذي يستمرىء البطالة مع تهيؤ فرص الكسب الملائم لمثله عرفا .

والخلاصة : أن كل قادر على الكسب ، مطلوب منه شرعاً أن يعمل ليكفي نفسه بنفسه ، فمن كان عاجزاً عن الكسب لضعف ذاتي . كالصغر والأنوثة ، والعته والشيخوخة والعاهة والمرض ، أو كان قادراً ولم يجد باباً حلالاً للكسب يليق بمثله ، أو وجد ولكن كان دخله من كسبه لا يكفيه وعائلته ، أو يكفيه بعض الكفاية دون تمامها ، فقد حل له الأخذ من الزكاة ولا حرج عليه في دين الله .. هذه هي تعاليم الإسلام الناصعة ، التي جمعت بين العدل والإحسان ، أو العدل والرحمة ، أما مبدأ الماديين القائلين : (من لا يعمل لا يأكل) فهو مبدأ غير طبيعي ، وغير أخلاقي ، وغير إنساني بل إن في الطيور والحيوانات أنواعاً يحمل قويها ضعيفها ، ويقوم قادرها بعاجزها . أفلا يبلغ الإنسان مرتبة هذه العجماوات ؟.

المتفرغ للعبادة لا يأخذ من الزكاة :

ومن الرائع حقاً ما ذكره هنا فقهاء الإسلام فقالوا : إذا تفرغ إنسان قادر على

= صحيح . المجموع ج ٦ ص ١٨٩ وقد سكت عنه ابو داود المنذري (مختصر السنن) ج ٢ ص/٢٣٣

(١) نيل الاوطار ج ٤ ص ١٧٠

(٢) المجموع ج ٦ ص ١٩٠

الكسب لعبادة الله تعالى ، بالصلاة والصيام ونحوهما لا يعطى من الزكاة ، لأنه مأمور بالعمل ، والمشي في مناكب الأرض ، ولا رهبانية في الإسلام ، والعمل في هذه الحال لكسب العيش من أفضل العبادات إذا صدقت فيه النية ، والتزمت حدود الله .

المتفرغ للعلم يأخذ من الزكاة :

فأما إذا تفرغ لطلب علم نافع ، وتعذر الجمع بين الكسب وطلب العلم ، فإنه يعطى من الزكاة قدر ما يعينه على اداء مهمته ، وما يشبع حاجاته ، ومنها كتب العلم التي لا بد منها لمصلحة دينه ودنياه[1] وإنما أعطي طالب العلم لأنه يقوم بفرض كفاية ، ولأن فائدة علمه ليست مقصورة عليه ، بل هي لمجموع الأمة ، فمن حقه أن يعان من مال الزكاة لأنها لأحد رجلين ، إما لمن يحتاج من المسلمين ، أو لمن يحتاج إليه المسلمون وهذا قد جمع بين الأمرين .

واشترط بعضهم أن يكون نجيباً يرجى تفوقه ، ونفع المسلمين به ، وإلا لم يستحق الأخذ من الزكاة ما دام قادراً على الكسب[2] وهو قول وجيه ، وهو الذي تسير عليه الدول الحديثة ، حيث تنفق على النجباء والمتفوقين بأن تتيح لهم دراسات خاصة ، أو ترسلهم في بعثات خارجية أو داخلية .

كم يعطى الفقير والمسكين من الزكاة :

ولكي تكمل أمام أعيننا الصورة السوية للزكاة الإسلامية ، وأثرها في محاربة الفقر والمسكنة ، لا بد أن نجيب هنا عن سؤال مهم هو : كم يعطى الفقير والمسكين من مال الزكاة ؟.

ووجه الأهمية في الإجابة على هذا السؤال : أن السائد في أذهان عامة الناس مسلمين وغير مسلمين ـ أن الفقير يأخذ من الزكاة دراهم معدودة ، أو حفنات من حبوب أو أرغفة من خبز يسد بها رمقاً ، أو يكفي بها حاجة أياماً معدودات أو شهراً أو شهرين .. ثم يظل الفقير بعد ذلك على فقره صفر اليدين ، ماداً يده بالسؤال ، محتاجاً أبداً إلى المعونة . وحينئذ تكون الزكاة أشبه بالأقراص المسكنة للآلام ، إلى

---

(١) انظر شرح غاية المنتهى ج ٢ ص ١٣٧ طبع المكتب الإسلامي .
(٢) المجموع ج ٦ ص ١٩٠ ، ١٩١

وقت محدود ، لا بالأدوية الناجعة التي تجتث الآلام من جذورها .

وستتبين بعد دراسة نصوص الإسلام ، ومذاهب فقهائه : أن هذا السائد في أفهام الناس وهْمٌ عريض لا أساس له من شريعة الإسلام .

المذهب الأول : إعطاء الفقير كفاية العمر :

إن أقرب المذاهب في هذا الشأن إلى منطق الإسلام ونصوصه : أن يعطى الفقير ما يستأصل شأفة فقره ، ويقضي على أسباب عوزه وفاقته ، ويكفيه بصفة دائمة ، ولا يحوجه إلى الزكاة مرة أخرى .

قال الإمام النووي في (المجموع) :

المسألة الثانية في قدر المصروف إلى الفقير والمسكين : قال أصحابنا العراقيون ، وكثيرون من الخراسانيين ، يعطيان ما يخرجهما من الحاجة إلى الغنى ، وهو ما تحصل به الكفاية على الدوام . وهذا هو نص الشافعي — رحمه الله — واستدل له الأصحاب بحديث قبيصة بن المخارق الهلالي — رضي الله عنه — أن رسول الله قال : (لا تحل المسألة إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش — أو قال سداداً من عيش — ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحاجة من قومه : قد أصابت فلاناً فاقة فحلت له المسألة ، حتى يصيب قواماً من عيش — أو قال سداداً من عيش — فما سواهن من المسألة — يا قبيصة — سحت يأكلها صاحبها سحتاً . رواه مسلم في صحيحه .

قال أصحابنا : فأجاز رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المسألة حتى يصيب ما يسد حاجته فدل على ما ذكرناه .

قالوا : فإن كان عادته الإحتراف ، أعطي ما يشتري به حرفته ، او آلات حرفته ، قلّت قيمة ذلك أم كثرت ، ويكون قدره بحيث يحصل له من ربحه ما يفي بكفايته غالباً تقريباً ، ويختلف ذلك باختلاف الحرف ، والبلاد والازمان والاشخاص وقدرت جماعة من أصحابنا ذلك فقالوا :

من يبيع البقل يعطى خمسة دراهم أو عشرة .

ومن حرفته بيع الجوهر يعطي عشرة آلاف درهم مثلاً إذا لم يتأت له الكفاية بأقل منها .

ومن كان تاجراً أو خبازاً أو عطاراً أو صرافاً أعطي بنسبة ذلك .

ومن كان خياطاً أو نجاراً أو قصاراً أو قصاباً أو غيرهم من أهل الصنائع ، أعطي ما يشتري به الآلات التي تصلح لمثله .

وإن كان من أهل الضياع (المزارع) يعطى ما يشتري به ضيعة ، أو حصة في ضيعة تكفيه غلتها على الدوام .

قال أصحابنا : فإن لم يكن محترفاً ولا يحسن صنعة أصلاً ، ولا تجارة ولا شيئاً من أنواع المكاسب ، أعطي كفاية العمر الغالب لأمثاله في بلاده . ولا يتقدر بكفاية سنة[1] . ومثلوا لذلك بأن يعطى ما يشتري به عقاراً يكريه ويستغل منه كفايته .

هذا ما ذهب إليه الإمام الشافعي وأصحابه ، ومن ذهب مذهبه .. وقد روي عن الإمام أحمد أيضاً : أنه أجاز أن يأخذ الفقير تمام كفايته دائماً ، بمتجر أو آلة صنعة ، أو نحو ذلك ، واختار هذه الرواية بعض علماء مذهبه[2] .

فهذا كلام لم نقله من عند أنفسنا وإنما قاله أئمة الإسلام وفقهاؤه مستندين إلى نصوص الإسلام وقواعده وروحه العامة . وهو كلام نير يزاحم الشمس في وضوحه وإشراقه وإبانته عن هدف الإسلام في القضاء على الفقر وإغناء الفقير بالزكاة .

إذا أعطيتم فأغنوا :

وهذا المذهب هو الموافق لما جاء عن الفاروق عمر رضي الله عنه . فلقد رأينا السياسة العمرية الراشدة ، تقوم على هذا المبدأ الحكيم الذي أعلنه الفاروق رضي الله عنه (إذا أعطيتم فأغنوا)[3] . فكان عمر يعمل على إغناء الفقير بالزكاة ، لا مجرد سد جوعته بلقيمات ، أو إقالة عثرته بدريهمات .

جاء رجل يشكو إليه سوء الحال . فأعطاه ثلاثاً من الإبل ، وما ذلك إلا ليقيه من العيلة ، والإبل كانت أنفع أموالهم ، وأنفسها حينذاك . وقال للموظفين الذين

---

(١) المهذب وشرحه ، المجموع ج ٦ ص ١٩٣ - ١٩٥

(٢) الإنصاف ج ٣ ص ٢٣٨ .

(٣) (الأموال) لابي عبيد ٥٦٥ .

يعملون في توزيع الصدقات على المستحقين : كرروا عليهم الصدقة ، وإن راح على أحدهم مائة من الإبل) .

وقال معلناً عن سياسته تجاه الفقراء : (لأكررن عليهم الصدقة وإن راح على أحدهم مائة من الإبل)[1] .

وقال عطاء الفقيه التابعي الجليل : (إذا أعطى الرجل زكاة ماله أهل بيت المسلمين فجبرهم فهو أحب إلي)[2] .

وهذا المذهب هو الذي رجحه الإمام الحجة في الفقه المالي في الإسلام : أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه القيم (الأموال) .

المذهب الثاني : يعطى كفاية سنة :

وهناك مذهب ثان قال به المالكية ، وجمهور الحنابلة ، وآخرون من الفقهاء : أن يعطى الفقير والمسكين من الزكاة ما تم به كفايته وكفاية من يعوله لمدة سنة كاملة . ولم يرَ أصحاب هذا الرأي ضرورة لإعطائه كفاية العمر . كما لم يروا أن يعطى أقل من كفاية السنة .

وإنما حددت الكفاية بسنة لأنها – في العادة – أوسط ما يطلبه الفرد من ضمان العيش له ولأهله ، وفي هدي الرسول في ذلك أسوة حسنة ، فقد صح أنه ادخر لأهله قوت سنة[3] .

ولأن أموال الزكاة في غالبها حولية ، فلا داعي لإعطاء كفاية العمر ، وفي كل عام تأتي حصيلة جديدة من موارد الزكاة ، ينفق منها على المستحقين ، ويرى القائلون بهذا المذهب ؛ أن كفاية السنة ليس لها حد معلوم لا تتعداه من الدراهم أو الدنانير ، بل يصرف للمستحق كفاية سنته بالغة ما بلغت .

فإذا كانت كفاية السنة لا تتم إلا بإعطاء الفقير الواحد أكثر من نصاب من نقد ،

---

(١) الأموال ص ٥٦٥ .
(٢) نفسه/٥٦٦ .
(٣) متفق عليه .

أو حرث ، أو ما يشبه ذلك ، أعطي من الزكاة ذلك القدر ، وإن صار به غنياً ، لأنه حين الدفع إليه كان فقيراً مستحقاً[1] .

الزواج من تمام الكفاية :

ومن الرائع حقاً أن يلتفت علماء الإسلام إلى أن الطعام والشراب واللباس ليست هي حاجة الإنسان فحسب ، بل في الإنسان غرائز أخرى تدعوه وتلح عليه ، وتطالبه بحقها من الإشباع ، ومن ذلك غريزة النوع ، أو الجنس التي جعلها الله موطأ يسوق الإنسان إلى تحقيق الإرادة الإلهية في عمارة الأرض ، وبقاء هذا النوع الإنساني فيها إلى ما شاء الله ؛ والإسلام لا يصادر هذه الغريزة ، وإنما ينظمها ويضع الحدود لسيرها وفق أمر الله .

وإذا كان الإسلام قد نهى عن التبتل والاختصاء ، وكل لون من ألوان مصادرة الغريزة ، وأمر بالزواج كل قادر عليه ، مستطيع لمؤنته (من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج) فلا غرو أن يشرع معونة الراغب في الزواج ممن عجزوا عن تكاليفه المادية من المهر ونحوه .

ولا عجب إذا قال العلماء : إن من تمام الكفاية ما يأخذه الفقير ليتزوج به إذا لم تكن له زوجة واحتاج للنكاح[2] .

وقد روى أبو عبيد أن عمر زوج ابنه عاصم وانفق عليه شهراً من مال الله[3] .

وقد أمر الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز من ينادي في الناس كل يوم : أين المساكين ؟ أين الغارمون ؟ أين الناكحون ؟ (أي الذين يريدون الزواج) أين اليتامى حتى أُغني كلاً من هؤلاء[4] .

والأصل في هذا ما رواه أبو هريرة أن النبي ﷺ جاءه رجــل فقال — : (إني تزوجت امرأة من الأنصار . فقال : على كم تزوجتها .؟ قال : على أربع أواق .

---

(١) شرح الخرشي على متن خليل جـ . ص ٢١٥ .
(٢) حاشية الروض المربع جـ١ ص ٤٠٠ وانظرها من مطالب أولي النهى جـ ٢ ص ١٤٧ .
(٣) الأموال ص ٢٢٧ .
(٤) البداية والنهاية لأبن كثير جـ ٩ ص ٢٠٠

فقال النبي ﷺ عــلى أربع أواق ؟ كأنما تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل . ما عندنا ما نعطيك ولكن عسى أن نبعثك في بعث تصيب فيه)[1] . والحديث دليل على أن إعطاء النبي لهم في مثل هذه الحال ، كان معروفاً لهم ، ولهذا قال له ما عندنا ما نعطيك ، ومع هذا حاول علاج حالته بوسيلة أخرى .

كتب العلم من الكفاية :

والإسلام دين يكرم العقل ، ويدعو الى العلم ، ويرفع من مكانة العلماء . ويعد العلم مفتاح الإيمان ، ودليل العمل ، ولا يعتد بإيمان المقلد (مع قدرته على النظر) ولا بعبادة الجاهل ، ويقول القرآن في صراحة : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ » ويقول في التفريق بين الجاهل والعالم ، وبين الجهل والعلم : « وما يستوي الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور » ويقول الرسول : (طلب العلم فريضة على كل مسلم) . وليس العلم المطلوب محصوراً في علم الدين وحده ، بل كل علم نافع يحتاج إليه المسلمون في دنياهم . فإن تعلمه فرض كفاية ، كما قرر الغزالي والشاطبي وغيرهما من العلماء .

فلا عجب أن رأينا فقهاء الإسلام يقررون في أحكام الزكاة أن يعطى منها المتفرغ للعلم على حــين يحرم منها المتفرغ للعبادة . ذلك أن العبادة في الإسلام لا تحتاج لتفرغ كما يحتاج العلم والتخصص فيه . كما أن عبادة المتعبد لنفسه ، أما علم المتعلم فله ولسائر الناس[2] .

ولم يكتف الإسلام بذلك بل قال فقهاؤه : يجوز للفقير الأخذ من الزكاة لشراء كتب يحتاجها من كتب العلم التي لا بد منها لمصلحة دينه ودنياه[3] .

أي المذهبين أولى بالاتباع ؟ :

وبعد عرض هذين المذهبين من مذاهب الفقه الإسلامي : مذهب من يرى إعطاء

---

(١) نيل الأوطار جـ ٦ ص ٣١٦ والأواق جمع أوقية وقد كانت تساوي حينذاك ٤٠ درهما وكـانت الشاة خمس دراهم أو عشرة فهذا القدر كثير على مثل هذا الرجل الذي جاء يطلب المعونة في مهره .
(٢) المجموع جـ ٦ ص ١٩٠
(٣) أنظر الإنصاف في الفقه الحنبلي جـ ٣ ص ١٦٥ ، ٢١٨ .

الفقير كفاية العمر كله مرة واحدة . ومذهب من يرى إعطاءه كفاية سنة كاملة فحسب ، بصفة دورية ، فأي هذين المذهبين أحق أن يتبع ، ولكل منهما وجهته ودليله ؟ وخاصة إذا أردنا أن تقوم الحكومة بأمر الزكاة ؟.

والذي أختاره أن لكل من المذهبين مجاله الذي يعمل به .

ذلك ان الفقراء والمساكين نوعان :

نوع يستطيع أن يعمل ويكتسب ويكفي نفسه بنفسه ، كالصانع والتاجر والزارع . ولكن ينقصه أدوات الصنعة أو رأس مال التجارة ، أو الضيعة وآلات الحرث والسقي .. فالواجب لمثل هذا أن يعطى من الزكاة ما يمكنه من اكتساب كفاية العمر ، وعدم الاحتياج إلى الزكاة مرة أخرى ، وفي عصرنا هذا يمكن تنفيذ ذلك عن طريق بناء مصانع ومنشآت من مال الزكاة تملك للفقراء القادرين على العمل .

والنوع الآخر عاجز عن الكسب كالزَّمِن والأعمى والشيخ الهرم والأرملة والطفل ونحوهم ، فهؤلاء لا بأس أن يعطى الواحد منهم كفاية السنة ، أي يعطى راتباً دورياً يتقاضاه كل عام ، بل يصح أن يوزع على أشهر العام إن خيف من المستحق الإسراف ، وبعثرة المال في غير حاجة ماسة ، وهذا هو الذي ينبغي اتباعه في عصرنا ، كما هو الشأن في رواتب الموظفين .

والعجيب أنني بعد أن أخذت هذا التقسيم وجدته منصوصاً عليه في بعض كتب الحنابلة . فقد قال في غاية المنتهى وشرحه ، بعد أن ذكر قول الإمام أحمد في صاحب العقار والضيعة التي تغل عشرة آلاف أو أكثر ولا تكفيه : إن له أن يأخذ من الزكاة ما يكفيه – قال : وعليه فيعطى محترف ثمن آلة حرفته وإن كثرت ، وتاجر يعطى رأس مال يكفيه . ويعطى غيرهما من فقير ومسكين تمام كفايتهما مع كفاية عائلتهما سنة ، لتكرر الزكاة بتكرر الحول فيعطى ما يكفيه إلى مثله[1] .

مستوى لائق للمعيشة :

ومن هنا يتبين لنا أن الهدف من الزكاة ليس إعطاء الفقير دريهمات معدودة ، وإنما الهدف تحقيق مستوى لائق للمعيشة ، لائق به بوصفه إنساناً كرمه الله ، واستخلفه

(١) مطالب أولي النهى ج ٢ ص ١٣٦

في الأرض ، ولائق به بوصفه مسلماً ينتسب إلى دين العدل والإحسان ، وينتمي إلى خير أمة أخرجت للناس .

وأدنى ما يتحقق به هذا المستوى الإنساني أن يتهيأ له ولعائلته طعام وشراب ملائم وكسوة للشتاء وللصيف ، ومسكن يليق بحاله ، وهذا ما ذكره ابن حزم في (المحلى) وذكره النووي في (المجموع) وذكره كثيرون من العلماء .

قال النووي – في تحديد الكفاية التي بدونها يصبح الإنسان فقيراً – فضلاً عن المسكين الذي هو عنده أحسن حالاً من الفقير – قال : المعتبر .. المطعم والملبس والمسكن وسائر ما لا بد له منه ، على ما يليق بحاله ، بغير إسراف ولا إقتار لنفس الشخص ولمن هو في نفقته[1] .

ومما لا بد للمرء منه في عصرنا : أن يتعلم أولاده من أحكام دينهم ، وثقافة عصرهم ، ما يزيل عنهم ظلمات الجهل ، وييسر لهم سبيل الحياة الكريمة ، ويعينهم على أداء واجباتهم الدينية والدنيوية .

وقد ذكر الفقهاء في بحث الحاجات الأصلية للفرد المسلم أن منها : دفع الجهل عنه فإنه موت أدبي ، وهلاك معنوي ، ومما لا بد للمرء منه في عصرنا ، أن يتيسر له سبيل العلاج إذا مرض هو أو أحد أفراد عائلته ، ولا يترك للمرض يفترسه ويفتك به ، فهذا قتل للنفس ، وإلقاء باليد إلى التهلكة ، وفي الحديث (يا عباد الله تداووا فإن الذي خلق الداء خلق الدواء[2]) وقال تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة »[3] « ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما »[4] .

وفي الصحيح (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه) وإذا ترك المسلم أباه ، أو ترك المجتمع المسلم فرداً منه فريسة للمرض دون أن يعالجه ، فقد أسلمه وخذله بلا شك ، والذي ينبغي الإلتفات إليه ، أن مستوى المعيشة للشخص لا يمكن تحديده تحديداً جامداً صارماً ، لأنه يختلف باختلاف العصور والبيئات وباختلاف ثروة كل أمة ومقدار دخلها القومي .

---

(١) المجموع ج ٦ .
(٢) البخاري .
(٣) سورة البقرة/١٩٥ .
(٤) سورة النساء/٢٨ .

وربّ شيء يكون كمالياً في عصر أو أمة ، يصبح حاجياً أو ضرورياً في عصر آخر أو أمة أخرى .

معونة دائمة منتظمة :

إذا عرفنا أن هدف الإسلام من الزكاة – بالنسبة للفقير والمسكين الذي لا يحسن حرفة ، ولا يقدر على عمل – هو كفالة مستوى معيشي ملائم له ولعائلته ، وأنه يعطى تمام كفايته لمدة سنة كاملة ، فلنضف إلى ذلك أن الزكاة بالنسبة لهذا الصنف من المستحقين معونة دائمة منتظمة ، حتى يزول الفقر بالغنى ، ويزول العجز بالقدرة ، أو تزول البطالة بالكسب وهكذا .

ولنتأمل في هذه القصة الواقعية التي حكاها لنا أبو عبيد بسنده :

(بينما عمر نصف النهار قائل في ظل شجرة وإذا أعرابية فتوسمت الناس فجاءته فقالت : إني امرأة مسكينة ولي بنون وإن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان بعث محمد بن مسلمة ساعياً – تعني جابياً وموزعاً للصدقة – فلم يعطنا فلعلك – يرحمك الله – أن تشفع لنا إليه . قال : فصاح بـ(يرفأ) – خادمه – أن ادع لي محمد بن مسلمة فقالت إنه أنجح لحاجتي أن تقوم معي إليه .

فقال : إنه سيفعل – إن شاء الله .

فجاءه (يرفأ) : فقال : أجب .. فجاء فقال : – السلام عليكم يا أمير المؤمنين : فاستحيت المرأة . فقال عمر : – والله ما آلو أن أختار خياركم . كيف أنت قائل إذا سألك الله – عز وجل – عن هذه ؟ فدمعت عينا محمد ثم قال عمر : – إن الله بعث إلينا نبيه – صلى الله عليه وسلم – فصدقناه واتبعناه ، فعمل بما أمره الله به ، فجعل الصدقة لأهلها من المساكين ، حتى قبضه الله على ذلك . ثم استخلف الله أبا بكر فعمل بسنته حتى قبضه الله ، ثم استخلفني فلم آل أن أختار خياركم أن بعثتك فأد إليها صدقة العام وعام أول ، وما أدري لعلي لا أبعثك . ثم دعا لها بجمل فأعطاها دقيقاً وزيتاً وقال : – خذي هذا حتى تلحقينا بخيبر فإنا نريدها فأتته بخيبر فدعا لها بجملين آخرين وقال : – خذي هذا فإن فيه بلاغاً حتى يأتيكم محمد بن مسلمة فقد أمرته أن يعطيك حقك للعام وعام أول[1] .

---

(١) الأموال ص ٥٩٩ .

علام تدل هذه القصة بأحداثها وحوارها ؟.

إنها تدل على مبادىء ومعان كثيرة وسامية حقاً .

تدل على مدى شعور الحاكم المسلم بمسئوليته عن كل فرد يعيش في ظل حكم الإسلام .

وتدل على مدى شعور الأفراد أنفسهم بحقهم في عيشة لائقة تهيئها لهم الدولة المسلمة . وتدل على أن الزكاة كانت الدعامة الأولى لبناء التكافل المعيشي في المجتمع . وتدل على أنها كانت معونة منتظمة مستمرة ، إذا لم تصل لصاحبها ، فإن من حقه أن يتظلم ويشكو .

وتدل على أن السياسة العمرية الراشدة ، هي إعطاء ما يكفي ويغني ، فقد أعطى المرأة أولاً جملاً محملاً بالدقيق والزيت ، ثم ألحق به جملين آخرين ، وجعل هذا كله عطاء مؤقتاً حتى يعطيها محمد بن مسلمة حقها من العامين : الماضي والحاضر .

وتدل بعد ذلك كله على أن عمر رضي الله عنه لم يكن في ذلك مبتدعاً ، بل كان متبعاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولخليفته أبي بكر رضي الله عنه .

سياسة الإسلام في توزيع مال الزكاة :

للاسلام في توزيع الزكاة سياسة حكيمة عادلة ، تتفق وأحدث ما ارتقى إليه تطور الأنظمة السياسية والمالية في عصرنا الذي يخيل لبعض الناس أن كل ما يأتي به من النظم والتشريعات جديد مبتكر . . فقد عرف الناس في عصور الجاهلية ، وفي عهود الظلام في أوربا ، كيف كانت تجبى الضرائب والمكوس من الفلاحين والصناع والمحترفين والتجار وغيرهم ، ممن يكسب رزقه بكد اليمين ، وعرق الجبين ، وسهر الليل ، وتعب النهار ، لتذهب هذه الأموال الممزوجة بالعرق والدم والدمع — إلى الإمبراطور ، أو الملك ، أو الأمير ، أو السلطان في عاصمته الزاهية . ينفقها في توطيد عرشه ومظاهر أبهته ، والإغراق على من حوله من الحواشي ، والأنصار والأتباع . فإن فضل فضلٌ فلتوسيع المدينة وتجميلها ، واسترضاء أهلها . فإن فضل شيء فلأقرب المدن إلى جنابه العالي ، وهو في ذلك كله غافل عن تلك القرى الكادحة المتعبة ، والديار العاملة النائية التي منها جبيت هذه المكوس ، وأخذت هذه الأموال .

فلما جاء الإسلام وأمر المسلمين بإيتاء الزكاة ، كما أمر ولي الأمر بأخذ هذه

الضريبة تطهيراً وتزكية لأصحاب الأموال . وإنقاذاً للفئات المحتاجة من هوان الفقر وذل الحاجة ، حتى يسود التكافل والعدل أبناء المجتمع المسلم قاطبة .

وكما جاء الإسلام بذلك ، وجه الرسول صلى الله عليه وسلم ولاته وسعاته إلى الأقاليم والبلدان لجمع الزكاة ، وأمرهم أن يأخذوا الزكاة من أغنياء البلد ثم يردوها على فقرائه .

ولقد مر بنا حديث معاذ بن جبل – المتفق عليه – أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسله إلى اليمن ، وأمره أن يأخذ الزكاة من أغنيائهم ويردها على فقرائهم . وكذلك نفذ معاذ رضي الله عنه وصية النبي صلى الله عليه وسلم . ففرق زكاة أهل اليمن في المستحقين من أهل اليمن . بل فرق زكاة كل إقليم في المحتاجين منه خاصة . وكتب بذلك لهم كتاباً كان فيه : من انتقل من مخلاف عشيرته (يعني الذي فيه أرضه وماله) فصدقته وعشره في مخلاف عشيرته[1] .

وعن أبي جحيفة قال قدم علينا مصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ الصدقة من أغنيائنا فجعلها في فقرائنا فكنت غلاماً يتيماً ، فأعطاني منها قلوصاً (ناقة) .

وفي الصحيح أن أعرابياً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أسئلة منها (بالله الذي أرسلك آلله أمرك أن تأخذ الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا ؟ قال : نعم) وروى أبو عبيدة عن عمر رضي الله عنه أنه قال في وصيته : أوصي الخليفة من بعدي بكذا ، وأوصيه بكذا ، وأوصيه بالأعراب خيراً ، فإنهم أصل العرب ، ومادة الإسلام أن يأخذ من حواشي أموالهم ، فيرده في فقرائهم[2] .

وكذلك كان العمل في حياة عمر ، أن يفرق المال حيث جمع ، ويعود السعاة إلى المدينة لا يحملون شيئاً غير أحلاسهم التي يتلفعون بها . وعصيهم التي يتوكأون عليها .

فعن سعيد بن المسيب أن عمر بعث معاذاً ساعياً على بني كلاب أو على بني سعد ابن ذبيان فقسم فيهم حتى لم يدع شيئاً حتى جاء بحلسه الذي خرج به على رقبته»[3] .

---

(١) رواه عنه طاووس بإسناد صحيح أخرجه سعيد بن منصور وأخرجه نحوه الأثرم نيل الأوطار ج ٢ ص ١٦١ .

(٢) الاموال ص ٥٩٥ .

(٣) الاموال ص ٥٩٦

وقال آخر من أصحاب يعلى بن أمية وممن استعملهم عمر في الزكاة : كنا نخرج لنأخذ الصدقة فما نرجع إلا بسياطنا[1] .

وعلى هذا النهج الذي اختطه الرسول وخلفاؤه الراشدون سار أئمة العدل من الحكام ، وأئمة الفتوى من فقهاء الصحابة والتابعين .

فعن عمران بن حصين رضي الله عنه أنه ولي عاملاً على الصدقة من قبل زياد ابن أبيه ، أو بعض الأمراء في عهد بني أمية ، فلما رجع قال له : أين المال ؟. قال : وللمال أرسلتني ؟.. أخذناه من حيث كنا نأخذه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووضعناه حيث كنا نضعه[2]

قال أبو عبيد : فكل هذه الأحاديث تثبت أن كل قوم أولى بصدقتهم حتى يستغنوا عنها ، ونرى استحقاقهم ذلك دون غيرهم ، إنما جاءت به السنة لحرمة الجوار ، وقرب دارهم من دار الاغنياء[3] .

فإن جهل المصدق ، فحمل الصدقة من بلد إلى آخر سواه ، وبأهلها فقر إليها ردها الإمام إليهم كما فعل عمر بن عبد العزيز ، وكما أفتى به سعيد بن جبير[4] .

إلا أن إبراهيم النخعي ، والحسن البصري ، رخصا في الرجل يؤثر بها قرابته . قال أبو عبيد : وإنما يجوز هذا للإنسان في خاصة ماله . فأما صدقات العوام (جمهور الأمة) التي تليها الأئمة — أولو الأمر — فلا .

ومثل قولهما حديث أبي العالية أنه كان يحمل زكاته إلى المدينة . قال أبو عبيد : ولا نراه خص بها إلا أقاربه أو مواليه[5] .

وإذا كان الأصل المتفق عليه ، أن الزكاة تفرق في بلد المال الذي وجبت فيه ، فإن من المتفق عليه كذلك أن أهل هذا البلد إذا استغنوا عن الزكاة كلها أو بعضها لانعدام الأصناف المستحقة ، أو لقلة عددها ، ووفرة مال الزكاة ، جاز نقلها إلى

---

(١) الأموال ص ٥٩٧

(٢) رواه أبو داود وابن ماجه . أنظر نيل الأوطار ج ٤ ص ١٦١ .

(٣) الأموال ص ٥٩٨ .

(٤) الأموال ص ٥٩٨ .

(٥) الأموال ص ٥٩٥ .

غيرهم أو إلى الإمام ليتصرف فيها حسب الحاجة ، أو إلى أقرب البلاد إليهم .

ويعجبني ما قاله الإمام مالك في هذا : لا يجوز نقل الزكاة إلا أن يقع بأهل بلد حاجة . فنقلها الإمام إليهم على سبيل النظر والاجتهاد[1] .

وعن سحنون أنه قال : ولو بلغ الإمام ، أن في بعض البلاد حاجة شديدة جاز له نقل بعض الصدقة المستحقة لغيره إليه ، فإن الحاجة إذا نزلت وجب تقديمها عن من ليس بمحتاج . والمسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يظلمه)[2] اهـ .

٦ – وقد يتساءل إنسان بعد هذا ، وهل هذه الزكوات تكفي للقيام بكل ما تقدم . أو يقال : هل الزكاة قادرة على حل كل المشاكل الإقتصادية لمجتمع .

والجواب : أننا لم نقل إن الزكاة وحدها هي كل شيء في نظام المال في الإسلام ، بل هي الركن فيه . هذا الركن مع نظام المال في الإسلام كما سنراه ، لا شك هو الحل الكامل لكل مشاكل الإقتصاد في المجتمع الإسلامي .

أما الزكاة فإنها بلا شك تحل كل مشاكل الأفراد المالية ، إذا وجدت العقلية العملية التي تعرف كيف تطبق أحكام الإسلام على واقع الحياة ، إذ أن واردات الزكاة من الضخامة بحيث لا تقف أمامها مشكلة . مع ملاحظة أن نظام الزكاة عندما يعالج مشكلة إنسان يحلها له جذرياً ، بحيث يصبح هذا الإنسان دافع زكاة بعد ذلك ، ولتوضيح هذه الملاحظة نذكر هذا المثال :

لعل أهم مشاكل الإنسان المالية تدور حول الزواج والسكن والبطالة والعجز .. فإذا ما أردنا أن نحل هذه المشاكل بواسطة نظام الزكاة فإنه يمكننا أن نفعل ما يلي :

١ – بالنسبة للعاجزين نطبق عليهم أحكام مذهب الشافعية بأن نشتري لكل منهم عقاراً يكفيه وأهله ريعه ، فلو أننا في عام حللنا مشكلة العاجزين من مال الزكاة ، فإن العام القادم لن تكون أمامنا مشاكل عجزة كثيرين ، فبالاستطاعة أن نفرغ مال الزكاة لحل مشكلة أخرى مثلاً هي مشكلة البطالة .

٢ – بالنسبة لمشكلة البطالة إذا أخذنا برأي الشافعية في الموضوع فإننا نستطيع

---

(١) المرجع السابق

(٢) المدونه الكبرى جـ ١ ص ٢٤٦ .

بعد عملية إحصاء للعمال العاطلين ، ومعرفة إمكانية كل منهم أن نفعل ما يلي :

من يستطيع عملاً معيناً منهم ولكنه ينقصه رأسمال ، يعطى له بالقدر الذي يقيم عمله .

والآخرون يدربون على أعمـــال ، ثم يعطى لهم رأسمال يساعدهم على إقامة أعمالهم .

أو تستطيع الدولة بعد دراسة إقتصادية ترى معها حاجتها إلى نوع معين من الصناعة والإنتاج ، أن تشتري معامل وتملكها لهؤلاء العمال ، مع قيامها بالترتيبات الإدارية والتنظيمية التي تجعل المعمل يسير ضمن إطار سليم ، وهذا في الحقيقة تطبيق لرأي الشافعية في إعطاء العامل رأسمال يشتري به آلة لعمله الذي يعمل به .

فإذا ما حلت معنا مشكلة البطالة من مال الزكاة خلال عام أو عامين أو ثلاثة ، فإن هذه المشكلة لن تصادفنا بعد ذلك بشكل جماعي ، فنستطيع بعد ذلك أن نفرغ مال الزكاة مثلاً لحل مشكلة السكن والزواج ، بأن يعلن أن مال الزكاة كفيل لكل من يعقد عقد الزواج أو يشتري لنفسه داراً بأن يفي عنه دينه إذا قدم الوثائق اللازمة وهكذا .

والمقصود من كلامنا هذا ، أننا نستطيع أن نحل مشاكل الأفراد الاقتصادية بواسطة نظام الزكاة بشكل جذري لا يلاحقنا بعد ذلك ، مما يؤكد بعدها أنه يأتي يوم من الأيام لا يبقى إنسان بحاجة إلى مال ، كما جرى واقعياً في التاريخ .

وقد يتساءل متسائل وماذا نفعل بالزكاة إذا اكتفى الناس . والجواب : أننا في مثل هذه الحالة نتوسع في كفالة أنواع من الناس . فمثلا يمكن أن ننفق هذه الزكوات على كل طالب بلغ ويريد أن يتابع دراسته ، فهو معتبر فقيراً شرعاً ما دام عمله هو تحصيل علم يخدم به الأمة ، وعلى هذا فيمكن أن يجرى على كل طالب راتب حتى ينهي دراسته ، فإذا ما أنهاها يعطى المال اللازم لإقامة العمل الذي أهلته له دراسته ، ويمكن ويمكن ومن جملة ما يمكن : أن نفرغ ناسا للدعوة إلى الله من مال الزكاة يجوبون العالم كله دعاة إلى الله فهذا مما يدخل في قوله تعالى « وفي سبيل الله » .

وأخيراً يمكن نقلها إلى مسلمين آخرين في غير أرضنا يعانون من قلة المال ، وقد ذكرنا هذا من أجل توضيح أن بالزكاة حلاً لكل المشاكل بشكل كامل .

٧ - ذكرنا في البداية أن الزكاة من مهمات الدولة الإسلامية وهي عنوان عليها ، والدولة التي لا تأخذ الزكاة وتضعها في مواضعها ليست إسلامية ، فلا يمكن أبدا أن نعطي صفة الدولة المسلمة لدولة لا تقيم الزكاة . كيف وقد قال الله ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾.

ولكن لا يعني هذا طبعا أنه في حالة عدم وجود الدولة المسلمة أن المسلم لا يطالب بالزكاة ، إنه في حالة فقدان الدولة المسلمة ، فإن على المسلم المالك لنصاب الزكاة أن يدفع الزكاة لمستحقيها ، وحبذا لو كان المسلم الذي يدفع الزكاة ذا بصر نافذ ، يعرف الأنفع في الزكاة فيصرفها فيه ، فكثيراً ما تعطل مرافق تخدم الإسلام والمسلمين لعدم وجود المال الذي يمكن أن يؤدى لها من الزكاة ، وكثيراً ما تعطى الزكوات لناس حكم الإسلام فيهم أنهم مرتدون لا يجوز أن تعطى لهم الزكاة .

٨ - ولعل بعض الناس بعد كل ما قدمناه ، يشكون بأن من واجب الدولة المسلمة تنظيم قضية الزكاة ، ولذلك فقد آثرنا أن نؤكد هذا الموضوع بنقل ما كتبه الأستاذ القرضاوي في هذا :

يقول تحت عنوان (مسئولية الدولة عن شئون الزكاة) : -

الزكاة - كما تبين لنا - حق ثابت مقرر « فريضة من الله » ولكنه ليس حقـا موكولا للأفراد يؤديه منهم من يرجو الله والدار الآخرة ، ويدعه من ضعف يقينه بالآخرة ، وقل نصيبه من خشية الله . كلا : إنها ليست إحسانا فرديا وإنما هي تنظيم إجتماعي تشرف عليه الدولة ، ويتولاه جهاز إداري منظم ، يقوم على هذه الفريضة الفذة جباية ممن تجب عليهم وصرفاً إلى من تجب لهم .

دلالة القرآن على ذلك :

وأبرز دليل على ذلك أن الله تعالى ذكر هؤلاء القائمين على أمر الزكاة جمعـا وتفريقا ، وسماهم العاملين عليها ، وجعل لهم سهما في أموال الزكاة نفسها ، ولم يحوجهم إلى أخذ رواتبهم من باب آخر تأمينا لمعاشهم ، وضمانا لحسن قيامهم بعملهم

قال تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم[1] وليس بعد هذا النص الصريح في كتاب الله ، مجال لترخص مترخص ، أو تأول متأول ، أو زعم زاعم ، وخاصة بعد أن جعلت الآية هذه الأصناف وتحديدها ، فريضة من الله ، ومن ذا الذي يجرؤ على تعطيل فريضة فرضها الله ؟ . وقال تعالى في نفس السورة التي ذكر فيها مصارف الزكاة « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم[2] » وقد ذهب جمهور المسلمين من السلف والخلف ، إلى أن المراد بالصدقة في هذه الآية الزكاة ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولكل من يلي أمر المسلمين من بعد .

السنة النبوية :

وفي حديث ابن عباس المشهور في الصحيحين وغيرهما ، أمر النبي صلى الله عليه وسلم – حين بعث معاذا إلى اليمن قال له : أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم ، فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب. رواه الجماعة عن ابن عباس .

وشاهدنا من هذا الحديث هو قوله عليه السلام في تلك الصدقة المفروضة ، تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فبين الحديث أن الشأن فيها أن يأخذها آخذ ، ويردها راد ، لا أن تترك لاختيار من وجبت عليه .

قال شيخ الإسلام الحافظ بن حجر استدل به على أن الإمام هو الذي يتولى قبض الزكاة وصرفها ، إما بنفسه ، وإما بنائبه ، فمن امتنع منهم أخذت منه قهرا[3] ونقلها الشوكاني بنصها في نيل الأوطار[4] .

وهذا الذي جاءت به السنة القولية ، أكدته السنة العملية ، والواقع التاريخي الذي

---

(١) سورة التوبة/٦٠

(٢) سورة التوبة/١٠٣

(٣) فتح الباري للحافظ بن حجر ج ٣ ص ٢٣١ في شرح حديث وصية معاذ من صحيح البخاري – كتاب الزكاة باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد إلى الفقراء حيث كانوا .

(٤) نيل الأوطار ج ٤ ص ١٢٤ مصطفى الحلبي – طبعة ثانية

جرى عليه العمل في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم – والخلفاء الراشدين من بعده .

ولهذا قال العلماء : يجب على الإمام أن يبعث السعاة لأخذ الصدقة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بغده كانوا يبعثون السعاة ، ولأن في الناس من يملك المال ، ولا يعرف ما يجب عليه ، ومنهم من يبخل فوجب أن يبعث من يأخذ[١] .

أما أرباب الأموال من الشعب ، فيجب عليهم أن يساعدوا هؤلاء السعاة على أداء مهمتهم ، ويؤدوا إليهم ما وجب عليهم ، ولا يكتموهم شيئاً من أموال زكاتهم . هذا ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أمر به أصحابه .

عن جابر بن عتيك رضي الله عنه – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : – سيأتيكم ركب مبغضون فإذا أتوكم فرحبوا بهم ، وخلوا بينهم وبين ما يبتغون فإن عدلوا فلأنفسهم ، وإن ظلموا فعليها فإن تمام زكاتكم رضاهم ، وليدعوا لكم) . وإنما كانوا مبغضين لأنهم يطلبون المال والإنسان شحيح به فهو شقيق الروح .

وعن أنس رضي الله عنه : أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم – إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله ورسوله ؟ قال : نعم إذا أديتها إلى رسولي فقد برئت منها إلى الله ورسوله ولك أجرها وإثمها على من بدلها[٢] .

فتاوى الصحابة :

وعن سهل بن أبي صالح عن أبيه قال : اجتمع عندي نفقة فيها صدقة – يعني بلغت نصاب الزكاة فسألت سعد بن أبي وقاص وابن عمر وأبا هريرة وأبا سعيد الخدري أن أقسمها أو أدفعها إلى السلطان فأمروني جميعا أن أدفعها إلى السلطان، ما اختلف علي منهم أحد وفي رواية فقلت لهم : هذا السلطان يفعل ما ترون (كان هذا في عهد بني أمية) فأدفع إليهم زكاتي ؟ فقالوا كلهم : نعم فادفعها رواها الإمام سعيد بن منصور في مسنده[٢] .

وعن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال : ادفعوا صدقاتكم إلى من ولاه الله أمركم فمن بر فلنفسه ومن أثم فعليها[٢] . رواه البيهقي بإسناد صحيح أو حسن .

---

(١) المجموع ج ٦ ص ١٦٨

(٢) نسبه في المنتقى إلى أحمد – المرجع السابق .

وعن المغيرة بن شعبة أنه قال لمولى له وهو على أمواله بالطائف ـ كيف تصنع في صدقة مالي ؟ .

قال : منها ما أتصدق به ، ومنها ما أدفع إلى السلطان .

قال : وفيم أنت من ذلك ؟ (أنكر عليه أن يفرقها بنفسه) .

فقال : إنهم يشترون بها الأرض ويتزوجون بها النساء .

فقال : إدفعها إليهم فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أمرنا أن ندفعها اليهم ـ رواه البيهقي في السنن الكبرى[1] .

هذه الأحاديث الصريحة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذه الفتاوى الحاسمه عن صحابته الكرام ، تجعلنا ندرك بل نوقن ، أن الأصل في شريعة الإسلام أن تتولى الحكومة المسلمة أمر الزكاة ، فتجبيها من أربابها ، وتصرفها على مستحقيها ، وأن على الأمة أن تعاون أولياء الأمر في ذلك ، إقراراً للنظام ، وارساء لدعائم الإسلام ، وتقوية لبيت مال المسلمين .

من أسرار هذا التشريع :

وربما قال قائل : إن الشأن في الأديان أن توقظ الضمائر ، وتحيي القلوب ، وتضع أمام أنظار الناس مثلا أعلى ، ثم تحاول أن تقودهم بزمام الشوق إلى مثوبة الله ، أو تسوقهم بسوط الخشية من عقابه ، تاركة لأصحاب السلطان أن يحددوا ، وينظموا ، ويطالبوا ، ويعاقبوا ، فهذا من شأن السلطة السياسية وليس من مهمة التوجيه الديني .

والجواب إن هذا قد يصح في أديان أخرى ، ولكن لا يصح أبدا في الإسلام ، فإنه عقيدة ونظام ، وخلق وقانون ، وقرآن وسلطان .

ليس الإنسان مشطوراً في الإسلام شطرين : شطراً منه للدين ، وشطراً آخر للدنيا ، وليست الحياة مقسومة قسمين : بعضها لقيصر ، وبعضها لله ، وإنما الحياة كلها ، والإنسان كله ، والكون كله لله الواحد القهار . جاء الإسلام رسالة شاملة هادية ، فجعلت من هدفها تحرير الفرد وتكريمه ، وترفيه المجتمع واسعاده ، وتوجيه الشعوب

---

(١) هذه الأحاديث ذكرها الإمام النووي في المجموع جـ ٦ ص ١٦٢ - ١٦٤

والحكومات الى الحق والخير ، ودعوة البشرية كلها إلى الله ، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، ولا يتخذ بعضهم بعضاً أربابا من دون الله .

وفي هذا الإطار جاء نظام الزكاة ، فلم تُجعل من شئون الفرد ، بل من وظيفة الحكومة الإسلامية ، فوكل الإسلام جبايتها وتوزيعها على مستحقيها إلى الدولة ، لا إلى ضمائر الأفراد وحدها ، وذلك لجملة أسباب لا يحسن بشريعة الإسلام أن تهملها :

أولا : إن كثيرا من الأفراد قد تموت ضمائرهم ، أو يصيبها السقم والهزال ، بسبب حب الدنيا ، أو حب الذات ، فلا ضمان للفقير إذا ترك حقه لمثل هؤلاء .

ثانيا : إن في أخذ الفقير حقه من الحكومة ، لا من الشخص الغني ، حفظا لكرامته ، وصيانة لماء وجهه أن يراق بالسؤال ، ورعاية لمشاعره أن يجرحها المن والأذى .

ثالثا : إن ترك هذا الأمر للأفراد يجعل التوزيع فوضى ، فقد ينتبه أكثر من غني لإعطاء فقير واحد على حين يغفل عن آخر فلا يفطن له أحد ، وربما كان أشد فقرا .

رابعا : إن صرف الزكاة ليس مقصورا على الأفراد من الفقراء والمساكين وأبناء السبيل . فمن الجهات التي تصرف فيها الزكاة مصالح عامة للمسلمين لا يقدرها الافراد ، وإنما يقدرها أولو الأمر وأهل الشورى في الجماعة المسلمة مثل : إعطاء المؤلفة قلوبهم ، وإعداد العدة والعدد للجهاد في سبيل الله ، وتجهيز الدعاة لتبليغ رسالة الإسلام في العالمين .....

بيت مال الزكاة :

ومن هنا نعلم أن الأساس في النظام الإسلامي أن يكون للزكاة ميزانية خاصة ، وحصيلة قائمة بذاتها ، ينفق منها على مصارفها المحدودة ، وهي مصارف إنسانية وإسلامية خاصة ، ولا تضم إلى ميزانية الدولة العامة الكبيرة ، التي تتسع لمشروعات مختلفة ، وتصرف في مصارف شتى .

ولقد أشارت آية مصارف الزكاة من سورة التوبة إلى هذا المبدأ ، حين قررت أن العاملين عليها يأخذون مرتباتهم منها . فمعنى هذا أن يكون لها ميزانية مستقلة ، وينفق على إدارتها منها ، وذلك ما فهمه المسلمون من أقدم العصور ؛ فقد جعلوا للزكاة بيت

مال قائما بذاته ، إذ قسموا بيوت المال في الدولة الإسلامية إلى أربعة أقسام :

أولها : بيت المال الخاص بالزكاة ، وفيه تكون حصيلتها ونظام العمل على جمعها ، وتوزيعها على مصارفها حسب شدة الحاجة .

الثاني : بيت المال الخاص بحصيلة الجزية والخراج . (والجزية) مال يؤخذ من غير المسلمين الذين يقيمون بين المسلمين ، على أن يكون لهم ما لهم ، وعليهم ما عليهم ، وهو يؤخذ منهم في مقابل ما يؤخذ من المسلمين في الزكاة وغيرها من الصدقات الأخرى ، كصدقة الفطر ، وكفارات الذنوب ، والتقصير في العبادات ، وفي مقابل حمايتهم ، والدفاع عنهم ، دون أن يكلفوا المشاركة في الخدمة العسكرية ، والخراج ضريبة سنوية تفرض على رقبة الأرض حسب طاقتها ، كالذي فرضه عمر على سواد العراق وغيره .

الثالث : بيت المال الخاص بالغنائم والركاز (عند من يقول إنه ليس من الزكاة ولا يصرف في مصارفها) .

الرابع : بيت المال الخاص بالضوائع وهي الأموال التي لا يعرف لها مالك ، ومنها الأموال التي لا وارث لها)[1] . ا.هـ

٩ ـ ومن العجيب أن بعض الناس كفروا بالإسلام ، ولم يعودوا مسلمين ، أو استخفوا به ، لدرجة أنهم بدلا من أن يحاربوا من لا يقيمه ، يدافعون عن تصرفاته الباطلة ، ولو بتهديم الإسلام .

أمثال هؤلاء يقولون بعد سماعهم أمثال ما تقدم، وهل تستطيع الدولة أن تجبي الزكاة ؟ هم يسألون هذا السؤال في عصرنا الذي تقوم به الدول بفرض ضرائب الدخل ، والضريبة التصاعدية وغيرها وغيرها ، ولا تعجزها جبايتها ؛ ينسون هذا كله ، ليقرروا بكل غباء ، أن الدولة لا تستطيع جباية الزكاة جباية ممكنة ، لذلك كان لا بد أن نقرر بعض القضايا :

---

(١) انظر المبسوط جـ ٣ ص ١٨ والبدائع جـ ٣ ص ٩٨ ، ٦٩

١ ـ باستطاعة الدولة أن تخصص شهرا في السنة لجباية زكاة النقود والعروض والسوائم .

أما السوائم فما أسهل رؤيتها ومعرفتها وجبي زكاتها .

وأما عروض التجارة فهي موجودة في المصانع والحوانيت فما أسهل تخمينها وجبي زكواتها .

وأما النقود فباستطاعة الدولة أن تلجأ إلى نظام بسيط يجعل كل إنسان مضطرا داخل الدولة لدفع الزكاة .

هذا النظام هو :

إن كل إنسان عنده نقد ، عليه أن يقدمه لمصارف خاصة ، ليدفع زكاته وتختم له هذه المصارف على أوراقه ختما معينا ، يتبدل كل عام ، وأي ورقة ماليه بعد شهر جباية مال الزكاة لا تكون موقعة تفقد نصف قيمتها الشرائية أخذا من الحديث (ومن منعها فإنا آخذوها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا لا يحل لآل محمد منها شيء) .

وطبعا ينظم الأمر بحيث تراعى قضية الأموال الموجودة خارج حدود الدولة ، ويوضع لذلك نظام ، وتؤخذ الإحتياطات ، حتى لا يشتري الناس بأوراقهم المالية ذهبا يخزنونه .

وهذا كله سهل ، إذ تقدم وسائل الدولة في تنفيذ مخططاتها جعل مثل هذه الأمور سهلة الحل .

٢ ـ أما بالنسبة لزكوات الزروع والثمار والمعدن فهذه أمرها ظاهر ، وطرق جبايتها سهلة ومختلفة ، وما نظن أن الأمر يحتاج إلى نقاش .

تبقى نقطة نحب أن نشير إليها :

إن الطريقة التي افترضناها كطريقة لجباية زكوات النقود ، ليست هي الطريقة الوحيدة الممكنة ، بل هناك طرق كثيرة يمكن أن تلجأ لها الدولة ، غير أن هذه الطريقة ، قد تفيد بشكل آخر وهو تحريك السوق التجارية خلال فترة الجباية السنوية ، لأن كثيرين من الناس قد يشترون بما يملكون من أوراق مالية حاجيات تلزمهم لسنة قادمة ، وكثيرين يرغبون بالتخلص من أوراقهم المالية بشكل من الأشكال ، وهذا كله يفيد الحياة الإقتصادية .

١٠ – واخيرا يقول الأستاذ القرضاوي :

وقد جعل القرآن الزكاة – مع التوبة من الشرك وإقامة الصلاة – عنوان الدخول في دين الإسلام واستحقاق أخوة المسلمين والانتماء إلى المجتمع الإسلامي . قال تعالى في شأن المشركين المحاربين « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم[١] » وقال سبحانه « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين »[٢] .

فلا يتحقق لكافر الدخول في جماعة المسلمين ، وتثبت له أخوتهم الدينية التي تجعله فردا منهم : له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، وتربطه بهم رباطا لا تنفصم عراه ، إلا بالتوبة عن الشرك وتوابعه ، وإقامة الصلاة التي هي الرابطة الدينية الاجتماعية بين المسلمين ، وإيتاء الزكاة التي هي الرابطة المالية الاجتماعية بينهم .

ومنهج القرآن الكريم ، والسنة المطهرة أن يقرنا الصلاة بالزكاة دائما ، دلالة على قوة الإتصال بينهما وأن إسلام المرء لا يتم إلا بهما . فالصلاة عمود الإسلام ، من أقامه فقد أقام الدين ومن هدمه فقد هدم الدين ، والزكاة قنطرة الإسلام ، من عبر عليها نجا ، ومن تجاوزها هلك . قال عبد الله بن مسعود : (أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ومن لم يزك فلا صلاة له)[٣] .

وقال جابر بن زيد : (افترضت الصلاة والزكاة جميعا . لم يفرق بينهما . وقرأ : « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين » . وأبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة . وقال : رحم الله أبا بكر ما كان أفقهه يعني بذلك قوله : (والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة) .

لقد جعل القرآن إيتاء الزكاة من اوصاف المؤمنين والمحسنين الأبرار المتقين . وجعل منعها من خصائص المشركين والمنافقين . فهي محك الإيمان . وبرهان الإخلاص كما جاء في الصحيح (الصدقة برهان) وهي فيصل التفرقة بين الإسلام والكفر ، وبين الإيمان والنفاق ، وبين التقوى والفجور .

فبغير إيتاء الزكاة لا ينتظم المرء في عقد المؤمنين الذين كتب الله لهم الفلاح ،

---

(١) سورة التوبة الآية ٥
(٢) نفس السورة – ١١
(٣) تفسير الطبري جـ ١٤ ص ١٥٣ المعارف .

وضمن لهم ميراث الفردوس ، وجعل لهم الهدى والبشرى . قال تعالى : « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون[1] . وقال سبحانه « هدى وبشرى للمؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة »[2] .

– وبدون الزكاة لا يدخل في زمرة المحسنين « الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون »[3] .

– وبدون الزكاة لا يكون من الأبرار الصادقين المتقين .

قال تعالى « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال – على حبه – ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة (إلى أن قال) أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون »[4] . وبدون الزكاة لا يفارق المشركين الذين وصفهم القرآن بقوله « وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون »[5] .

وبغير الزكاة لا يتميز المنافقون الذين وصفهم الله بأنهم « يقبضون أيديهم » أي عن الإنفاق وبأنهم « لا ينفقون إلا وهم كارهون »[6] .

وبغير الزكاة لا تستحق رحمة الله التي أبى أن يكتبها إلا للمؤمنين المتقين المؤتين للزكاة قال تعالى « ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون »[7] وقال عز وجل « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله »[8] .

---

(١) سورة المؤمنون الآية ١ – ٤
(٢) النمل الآية ٢ – ٣
(٣) النمل الآية ٣
(٤) البقرة الآية ١٧٧
(٥) فصلت الآية ٧
(٦) التوبة الآية ٥٤
(٧) الاعراف الآية ١٥٦
(٨) التوبة الآية ٧١

وبدون الزكاة لا تستحق ولاية الله ولا رسوله ولا المؤمنين قال تعالى « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون »[1] .. وبدون إيتاء الزكاة لا يستحق نصر الله الذي وعد به من نصره .

« ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز . ألذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور »[2] .

ولقد توعد الإسلام بالعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة كل من منع هذه الزكاة . ففي عقوبة الآخرة يقول الله تعالى مهددا للكانزين للذهب والفضة الذين لا يؤدون منها حق الله : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون »[3] .

ويروي البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه (يعني بشدقيه) ثم يقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم الآية : (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم . بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة »[4] .

وفي العقوبة الدنيوية يقول عليه الصلاة والسلام : (ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين)[5] (أي بالقحط والمجاعة) وفي حديث ثان : (ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا)[6] . وفي حديث آخر (ما خالطت الصدقة[7] — أو قال الزكاة — مالا إلا أفسدته[8]. ومعنى هذا أن تترك الزكـــاة في المال ولا تخرج منه فتهلكه .

---

(١) المائدة الآية ٥٥
(٢) الحج الآية ٤٠ — ٤١
(٣) التوبة الآية ٣٤ — ٣٥
(٤) آل عمران الآية ١٨٠
(٥) رواه الطبراني في الاوسط — ورواته ثقات
(٦) رواه ابن ماجه والبزار والبيهقي واللفظ له
(٧) رواه البزاز والبيهقي
(٨) رواه أحمد والنسائي وابو داود .

وهذا كله في العقوبة الكونية القدرية أي التي يتولاها القدر الأعلى .. وهناك عقوبة دنيوية أخرى هي عقوبة شرعية قانونية ، وهي التي يتولاها أولو الأمر في المجتمع الاسلامي ، وفي هذه العقوبة جاء حديثه صلى الله عليه وسلم في الزكاة (من أعطاها مؤتجرا (أي طالب الأجر) فله أجرها ومن منعها فإنا آخذوها وشطر ماله (أي نصفه) عزمة من عزمات ربنا لا يحل لآل محمد منهاشيء) .

وهذا الحديث الشريف يجيز لولي الأمر مصادرة نصف مال من امتنع عن أداء زكاته وهو نوع من العقوبة المالية التي يتخذها الحاكم عند الحاجة ليؤدب بها المتمنعين والمتهربين ، وليس ذلك عقوبة لازمة ولا دائمة ، وإنما هو من العقوبات التعزيرية التي تخضع لتقدير أولي الأمر ، واجتهاد أهل الحل والعقد في المجتمع المسلم .

ولم تقف عقوبة مانع الزكاة عند الغرامة المالية فحسب ، بل يجوز لولي الأمر أن يستعمل العقوبة البدنية ، والحبس وغيرها حسب المصلحة والحاجة ..

وأكثر من ذلك . إن الإسلام يشرع سل السيوف . وإعلان القتال على الممتنعين المتمردين عن أداء الزكاة ، ولهذا قاتل الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، ومعه الصحابة رضي الله عنهم ما نعي الزكاة ، وقال كلمته المشهورة : (والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لئن منعوني عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه[1] .

قال ابن حزم : (وحكم مانع الزكاة إنما هو أن تؤخذ منه أحب أم كره ، فإن مانع دونها فهو محارب ، فإن كذب بها فهو مرتد ، فإن غيبها ولم يمانع دونها فهو آت منكرا فوجب تأديبه أو ضربه حتى يحضرها ، أو يموت قتيل الله تعالى إلى لعنة الله) كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رأى منكم منكرا فليغيره بيده إن استطاع) وهذا منكر ففرض على من استطاع أن يغيره[٥] .. وكل هذه النصوص تؤكد لنا درجة الإلزام العالية التي تتمتع بها الزكاة . فليست مجرد واجب عادي ، بل هي – كما بينا – إحدى الدعائم الخمس التي قام عليها بنيان الإسلام .. وأصبح معلوما بالضرورة ، أنها أحد أركان الإسلام ، وتناقل ذلك الخاص والعام .. ولم تعد فرضيتها في حاجة إلى إقامة دليل ، فقد ثبت ثبوتا مؤكدا بالآيات القرآنية الصريحة

---

(١) رواه الشيخان

(٢) المحلى لابن حزم جـ ١١ ص ٣١٣

المتكررة ، وبالسنة النبوية المتواترة ، وبإجماع الأمة كلها خلفا عن سلف ، وجيلا إثر جيل .

قال ابن قدامه : فمن أنكر وجوبها جهلا به ، وكان ممن يجهل ذلك ، إما لحداثة عهده بالإسلام ، أو لأنه نشأ ببادية نائية عن الأمصار عُرّف بوجوبها ولا يحكم بكفره لأنه معذور .

وإن كان مسلما ناشئا ببلاد الإسلام بين أهل العلم فهو مرتد تجري عليه أحكام المرتدين ويستتاب ثلاثا فإن تاب وإلا قتل لأن أدلة وجوب الزكاة ظاهرة في الكتاب والسنة وإجماع الأمة . فلا تكاد تخفى على أحد ممن هذه حاله فإذا جحدها فلا يكون إلا تكذيبه الكتاب والسنة وكفره بهما)[1] .

الزكاة حق معلوم :

والزكاة في النظرة الإسلامية حق أو دين في أعناق الأغنياء ، للفئات الضعيفة والمستحقة ، وهي كذلك حق معلوم أي محدد النسبة والمقدار ، علمه الذين تجب عليهم الزكاة ، وعلمه الذين تصرف لهم الزكاة ، والذي قرر هذا الحق وحدده هو الله تعالى الذي وصف المتقين المحسنين من عباده بقوله « وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » وفي سورة أخرى وصف الأخيار من عباده الذين يستحقون الإكرام في جناته فقال : « والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » .

ولا غرابة في تقرير هذا الحق وتحديده ، إذا عرفنا حقيقة تملك الإنسان للمال في النظرية الاسلامية التي عرفت بنظرية (الإستخلاف) والتي يدل عليها قوله تعالى «وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » وغيرها من الآيات .

فالإنسان ليس هو المالك الحق للمال ، وإنما هو أمين عليه من قبل مالكه الأصلي وهو الله تعالى ، مالك المال وواهبه وخالقه ورازقه .. ومن واجب الإنسان أن يذعن لما يأمر به هذا الخالق الرازق ، وما يعينه من حق في هذا المال قل أو كثر .

وإذا كانت الزكاة حقا معلوما أوجبه الله تعالى للفقراء والمساكين وسائر المستحقين ،

---

(١) المغني ج ٢ ص ٥٧٣ ط ثالثه المنار

فمن مقتضى ذلك ، ألا تسقط — وقد وجبت ولزمت — بمرور عام أو أكثر دون أدائها وإيتائها أهلها .

وفي هذا يقول أبو محمد بن حزم : من اجتمع في ماله زكاتان فصاعدا وهو حي تؤدى لكل سنة على عدد ما وجبت عليه في كل عام ، وسواء كان ذلك لهروبه بماله ، أو لتأخر الساعي (محصل الزكاة من قبل الدولة) أو لجهله ، أو لغير ذلك ، وسواء في ذلك العين (النقود) والحرث والماشية ، وسواء أتت الزكاة على جميع ماله أو لم تأت ، وسواء رجع ماله بعد أخذ الزكاة منه إلى ما لا زكاة فيه ، أو لم يرجع ، ولا يأخذ الغرماء شيئاً حتى تستوفى الزكاة[1] .

فإذا كانت الضريبة تسقط بالتقادم ، ومرور سنوات تقل أو تكثر — حسب تحديد القانون — فإن الزكاة تظل دينا في عنق المسلم لا تبرأ ذمته ، ولا يصح إسلامه ، ولا يصدق إيمانه إلا بأدائها ، وإن تكاثرت الأعوام وهي — كما يرى ابن حزم وغيره — دين ممتاز ، مقدم على سائر الديون لما اجتمع لها من صفات ، وما توافر لها من خصائص ، فهي حق الله ، وحق الفقير ، وحق المجتمع جميعا .

وكذلك لا تسقط الزكاة بموت رب المال ، وتخرج من تركته ، وإن لم يوص بها . هذا قول عطاء والحسن والزهري وقتاده ومالك والشافعي وأحمد وإسحاق وأبي ثور وابن المنذر[1] .. وهذا القول هو الصحيح . لقول الله تعالى في المواريث « من بعد وصية يوصى بها أو دين » فعم سبحانه وتعالى الديون كلها والزكاة (كما قال ابن حزم) دين قائم لله تعالى ، وللمساكين والفقراء والغارمين ، وسائر من فرضها تعالى لهم في نص القرآن .

واستدل ابن حزم على تقديم دين الزكاة على ديون الناس ، بما رواه مسلم في صحيحة عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن أمي ماتت وعليها صوم شهر فأقضيه عنها ؟ فقال : لو كان على أمك دين أكنت قاضيه عنها ؟ قال نعم . قال فدين الله أحق أن يقضى) .

من هنا نتبين أن موت المكلف بالزكاة لا يسقطها عنه ، ولو كان موته عن طريق

---

(١) المحلى ج ٦ صفحة ٨٧

(٢) المغني : لابن قدامه ج ٢ صفحة ٦٨٣

القتال والشهادة في سبيل الله لما روى مسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (يغفر للشهيد كل ذنب الا الدّين) .

ومن ذلك دين الزكاة إذا أخرها حتى استشهد وهي في ذمته ، كما ذكر ابن تيمية وغيره من العلماء[1] . وبهذا كله يتأكد لنا أن الزكاة في الإسلام حق أصيل ثابت لا يسقطه تقادم ولا موت ، وأنها تؤخذ من التركة وتقدم – في أرجح الأقوال – على كل حق وكل دين سواها . فالإسلام جعل الزكاة حقا من حقوق الله على عباده ، وحقا من حقوق الإنسان على أخيه الإنسان .

فهي حق الله باريء الإنسان ورازقه ، وخالق المال وواهبه ، ومسخر ما في الكون لخدمة الإنسان بأمره سبحانه .

وهي حق الفقير المحتاج على أخيه الغني ، بمقتضى الأخوة المشتركة بينهما .

٢ – مختارات من نصوص الزكاة :

روى الستة عن أبي هريرة قال : لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر ، وكفر من كفر من العرب . قال عمر كيف نقاتل الناس ؟ وقد قال رسول الله ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله . فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله . فقال أبو بكر والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها . قال عمر فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق .

عن الستة إلا الترمذي وهو بلفظ مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره ، كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله إما إلى الجنة واما إلى النار . قيل يا رسول الله فالإبل ؟ قال : ولا صاحب إبل لا يؤدي منها

---

(١) منار السبيل جـ ١ ص ٢٨٥

حقها ومن حقها حلبها يوم وردها ، إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلا واحدا تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها ، كلما مر عليه أولاها رد عليها أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار . قيل يا رسول الله فالبقر والغنم؟ قال ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي حقها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئاً ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما مرت عليه أولاها رد عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار . قيل يا رسول الله فالخيل؟ قال : ثلاثة : هي لرجل أجر ، ولرجل ستر ، ولرجل وِزر . أما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال لها في مرج أو روضة فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات ، ولو أنه انقطع طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين كانت له آثارها وأرواثها حسنات ، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقيها كان ذلك حسنات له ، فهي لذلك الرجل أجْر . ورجل ربطها تغنيا وتعففا ثم لم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها ، فهي لذلك ستر ، ورجل ربطها فخرا ورياء ونواء لأهل الإسلام ، فهي على ذلك وزْر . وسئل ﷺ عن الحمر فقال : ما أنزل علي فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة: « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

(في الأوسط عن بريدة عن رسول الله ﷺ ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين) . روى أبو داود عن الحارث الأعور عن علي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا كانت لك مائتا درهم وحال عليها الحول ففيها خمسة دراهم ، وليس عليك شيء في الذهب حتى يكون لك عشرون دينارا ، فاذا كانت لك عشرون دينارا. وحال عليها الحول ، ففيها نصف دينار ، فما زاد فبحساب ذلك . قال فلا أدري أعلي يقول بحساب ذلك أم رسول الله ﷺ . وليس في مالٍ زكاة حتى يحول عليه الحول) .

(روى البخاري والنسائي وأبو داود عن أنس : أن أبا بكر كتب له حين وجهه إلى البحرين هذا الكتاب ، وكان نقش الخاتم ثلاثة أسطر : (محمد) سطر ، و(رسول) سطر ، و (الله) سطر : بسم الله الرحمن الرحيم هذه فريضة الصدقة التي فرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين ، والتي أمر الله بها رسوله . فمن سألها

من المسلمين على وجهها فليعطها ، ومن سأل فوقها فلا يعط : في أربع وعشرين من الإبل . فما دونها من الغنم في كل خمس شاة ، فإذا بلغت خمسا وعشرين إلى خمس وثلاثين ففيها بنت مخاض ، فإن لم تكن بنت مخاض فابن لبون ، فإذا بلغت ستا وثلاثين إلى خمس وأربعين ففيها بنت لبون ، فإذا بلغت ستا وأربعين إلى ستين ففيها حقة طروقة الجمل . فإذا بلغت واحدة وستين إلى خمس وسبعين ففيها جذعة ، فإذا بلغت ستا وسبعين إلى تسعين ففيها بنتا لبون ، فإذا بلغت إحدى وتسعين إلى عشرين ومائة ففيها حقتان طروقتا الجمل ، فإذا زادت على عشرين ومائة ففي كل أربعين إبنة لبون ، وفي كل خمسين حقة ، ومن لم يكن معه إلا أربع من الإبل فليست فيها صدقة ، إلا أن يشاء ربها ، فإذا بلغت خمسا ففيها شاة ، وصدقة الغنم في سائمتها إذا كانت أربعين إلى عشرين ومائة شاة ، شاة ، فإذا زادت على عشرين ومائة إلى مائتين ففيها شاتان ، فإذا زادت على مائتين إلى ثلاثمائة ففيها ثلاث شياه . فإذا زادت على ثلاثمائة ففي كل مائة شاة ، فإذا كانت سائمة الرجل ناقصة من أربعين شاة واحدة فليس فيها صدقة إلا أن يشاء ربها ، فلا يجمع بين متفرق ولا يفرق بين مجتمع خشية الصدقة .

وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية ، ولا تخرج في الصدقة هرمة ولا ذات عوار ، ولا تيس إلا أن يشاء المصدق ، وفي الرقة ربع العشر ، فإن لم يكن إلا تسعين ومائة فليس فيها صدقة إلا أن يشاء ربها . ومن بلغت عنده من الإبل صدقة الجذعة ، وليست عنده ، وعنده حقة ، فإنها تقبل منه الحقة ، ويجعل معها شاتين او عشرين درهما ، ومن بلغت عنده صدقة الحقة وليست عنده ، وعنده الجذعة ، فإنها تقبل منه ويعطيه المصدق عشرين درهما أو شاتين ، ومن بلغت عنده صدقة الحقة وليست عنده إلا ابنة لبون ، فإنها تقبل منه ابنة لبون ، ويعطي شاتين أو عشرين درهما ومن بلغت صدقته بنت لبون وعنده حقة ، فإنها تقبل منه الحقة ويعطيه المصدق عشرين درهما أو شاتين ، ومن بلغت صدقته بنت لبون وليست عنده ، وعنده بنت مخاض فإنها تقبل منه بنت مخاض ويعطي معها عشرين درهما أو شاتين ، ومن بلغت صدقته بنت مخاض وليست عنده ، وعنده بنت لبون ، فإنها تقبل منه ، ويعطيه المصدق عشرين درهما أو شاتين ، فإن لم تكن عنده بنت مخاض على وجهها وعنده ابن لبون فإنه يقبل منه وليس معه شيء) .

(روى الستة واللفظ لأبي داود عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : ليس في الخيل والرقيق زكاة إلا أن زكاة الفطر في الرقيق) .

(روى مالك عن سفيان بن عبد الله : أن عمر بعثه مصدقا ، فكان يعد على الناس بالسخل ، فقالوا تعد بالسخل ولا تأخذ منها شيئاً ، فلما قدم على عمر ذكر ذلك له فقال تعد عليهم السخلة يحملها الراعي ولا تأخذها ، ولا تأخذ الأكولة والربى ولا الماخض ولا فحل الغنم ، وتأخذ الجذعة والثنية وذلك عدل بين غذاء المال وخياره) .

(في الأوسط عن أنس قال : فرض محمد ﷺ في أموال المسلمين في كل أربعين درهما درهم وفي أموال أهل الذمة من كل عشرين درهما درهم وفي أموال من لا ذمة لهم في كل عشرة دراهم درهم) .

(روى البخاري وأصحاب السنن عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ : فيما سقت السماء والعيون أو كان عشريا العشر وما سقي بالنضح نصف العشر) .

(روى مالك في الموطأ عن الصائب بن يزيد : أن عثمان كان يقول هذا شهر زكاتكم فمن كان عليه دين فليؤد دينه حتى تحصل أموالكم فتؤدون منه الزكاة) .

(عن الستة إلا أبي داود عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : العجماء جبار والبئر جبار والمعدن جبار وفي الركاز الخمس) .

(روى أبو داود عن سمرة بن جندب : أن رسول الله ﷺ كان يأمرنا أن نخرج من الذي نعده للبيع) .

(عن الستة بلفظ البخاري عن ابن عمر قال : فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر صاعا من تمر أو صاعا من شعير على العبد والحر والذكر والأنثى والصغير والكبير من المسلمين وأن تؤدى قبل خروج الناس إلى المصلى) .

(وفي رواية وكان ابن عمر يؤديها قبل ذلك بيوم أو بيومين) .

(عن الستة عن أبي سعيد قال : كنا نخرج زكاة الفطر ورسول الله ﷺ فينا عن كل صغير وكبير حر ومملوك من ثلاثة أصناف صاعا من تمر ، صاعا من اقط ، صاعا من شعير ، فلم نزل نخرجه حتى كان معاوية فرأى مدّين من بر يعدل صاعاً من تمر . فأما أنا فلا أزال أخرجه كما كنت أخرجه ما عشت) .

عن ابن عباس قال : فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين من أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات) .

(روى الشيخان وأبو داود عن ابن حميد الساعدي قال : استعمل النبي ﷺ رجلا من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة فلما قدم قال هذا لكم وهذا أهدي إلي فقام النبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فإني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله فيأتي فيقول هذا لكم وهذا هدية أهديت لي أفلا جلس في بيت أبيه وأمه . حتى تأتيه هديته إن كان صادقا والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقي الله يحمله يوم القيامة فلا أعرفن أحدا منكم لقي الله يحمل بعيرا له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ثم رفع يديه حتى رؤي بياض إبطيه يقول اللهم هل بلغت) .

(روى مسلم وأبو داود عن عدي بن عميرة الكندي عن الرسول صلى الله عليه وسلم : قال من استعملنا منكم على عمل فكتمنا مخيطا فما فوقه كان غلولا يأتي به يوم القيامة فقام إليه رجل فقال يا رسول الله إقبل عني عملك قال ومالك ؟ قال سمعتك تقول كذا وكذا فقال وأنا أقوله ألا من استعملناه منكم على عمل فليجيء بقليله وكثيره فما أوتي منه أخذه وما نهي عنه انتهى) .

(روى أبو داود عن إبراهيم بن عطاء مولى عمران بن حصين عن أبيه : قال : إن زيادا أو بعض الأمراء بعث عمران بن حصين على الصدقة فأخذها من الأغنيـــاء وردها على الفقراء فلما رجع قال لعمران أين المال ؟ قال وللمال أرسلتني ؟ أخذناها من حيث كنا نأخذها على عهد رسول الله ﷺ ووضعناها حيث كنا نضعها على عهده).

(روى أبو داود عن بشير بن يسار قال : زعم أن رجلا من الأنصار يقال له سهل بن أبي حثمة أن النبي ﷺ وداه مئة من إبل الصدقة يعني دية الأنصاري الذي قتل بخيبر) .

(روى مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : بينما رجل في فلاة من الأرض فسمع صوتا في سحابة إسْقِ حديقة فلان فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة فإذا شرجة من تلك الشراج وقد استوعبت ذلك الماء كله فتتبع الماء فإذا رجل قائم في حديقة يحول الماء بمسحاته فقال يا عبد الله ما اسمك ؟ قال فلان للإسم الذي سمع في السحابة فقال يا عبد الله لم سألتني عن إسمي قال سمعت صوتا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول إسق حديقة فلان باسمك فما تصنع فيها ؟ قال أما إذا قلت هذا فاني أنظر إلى ما يخرج منها فاتصدق بثلثه وآكل أنا وعيالي ثلثه وأرد فيه ثلثه) .

(روى النسائي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : سبق درهم مئة الف درهم قالوا وكيف ؟ قال كان لرجل درهمان فتصدق بأجودهما وانطلق رجل إلى عرض ماله فأخذ منه مئة ألف درهم فتصدق بها) .

(روى الشيخان وأبو داود والنسائي عن أبي سعيد قال : إن أعرابياً قال يا رسول الله أخبرني عن الهجرة قال ويحك إن شأن الهجرة شديد فهل لك من إبل ؟ قال نعم قال فهل تؤدي صدقتها ؟ قال نعم قال فاعمل من وراء البحار فإن الله لن يترك من عملك شيئاً) .

(في الكبير عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ : صنائع المعروف تقي مصارع السوء وصدقة السر تطفيء غضب الرب وصلة الرحم تزيد في العمر) .

* * *

الركن الرابع : الصّـــوم

(أ) نظرات عامة في الصوم :

١ ــ إن ضبط النفس لا غنى للبشرية عنه ، فما من إنسان فيه عقل إلا ويدرك أنه لو أطلق كل إنسان لأهوائه العنان في كل مجال ،واستطاع أن يحققها فإن البشرية تنتهي في لحظات ، أو في أيام ، أو أن الحياة تصبح لا تطاق ، والواقع الحالي للبشر يرينا كم يعاني البشر من تعاسة نتيجة لعدم تقيدهم بالحدود التي ينبغي أن يتقيدوا بها ، والتي هي الحدود التي حدها الله للبشر في علاقاتهم بعضهم ببعض ، إذ لله وحده حق الإلزام ، لأنه وحده صاحب الأمر والنهي والحكم ، لأنه وحده الأعلم والأحكم والأرحم .

ودين الله الذي هو الإسلام ، إنما هو الصيغة الوحيدة للإنسان التي ينبغي أن تصاغ عليها نفسه ، وأن تضبط بها شهواته وأهواءه ، وبها حياة الناس ، وهي الطريق المستقيم المنير الوحيد الذي لهم ، وعليهم أن يسلكوه :

« أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثلـــه في الظلمات ليس بخارج منها » .

٢ ــ والرمز العملي لضبط النفس في دين الله ، هو الصوم المفروض ، ولذلك كان من أركان هذا الدين ، ولذلك كان طريقا من طرق الوصول إلى حقيقة التقوى التي هي التعبير العملي عن أخـــذ المسلم نفسه بالاسلام : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » ولعلنا نفهم من الآية سر وجود فكرة الصوم على اختلاف تطبيقاتها العملية عند كل الاديان الكبيرة في

العالم ، النصرانية ، واليهودية ، والبرهمية[1] .. وإنما كان هذا كأثر من آثار فرض الله الصوم على كل أمة أرسل لها رسول ، وكل أمة كما رأينا قد أرسل لها رسول . فوجود مثل هذه الفكرة ، إنما هو من بقايا دين كان الله أنزله ، ثم حرف ونسخ وعلى كل فالآية بينت أن الصيام فريضة الله في كل دين أنزله الله ، ودين الله في صيغته الأخيرة الخاتمة والناسخة ، قد فرض فيه الصوم بصيغة نهائية ، وخاتمة وناسخة ، ولذلك كان صوما ما شئت أن ترى من واقعيته ، إلا رأيت ، ومن سهولته إلا رأيت ، ومن نفعه إلا رأيت ، ومن آثاره الطيبة على الحياة البشرية ، اجتماعيا ، وسلوكيا ، وعمليا إلا رأيت ، ومظهر هذه المعاني ما تراه عنه في الفقرات التالية :

٣ ـ الصيام المفروض علينا إستقلالا ، هو صيام شهر رمضان ، الشهر القمري ، وفي ذلك معان كثيرة :

ففي شهر رمضان نزل القرآن ففيه كان بدء الدعوة الإسلامية ، وبدء نزول كتابها فيه ، فصيام هذا الشهر تخليد لذكرى ينبغي أن تبقى حية في نفس المسلم شعوريا وعمليا.

واختيار الشهر القمري الذي له علامته الكونية الكبيرة ، القمر بدءاً وانتهاءاً ، يحمل في طياته عوامل الوضوح والثبات ، والاستعصاء على التحريف او التزوير او التدجيل ، فلا تستطيع سلطة ولا جماعة أن تحرف المسلمين عنه .

يقول عليه السلام: (صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته (أي الهلال) فإن غُمّ عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين) رواه البخاري .

واختيار الشهر القمري فيه كذلك حكم كثيرة منها :

إن السنة القمرية أقل من السنة الشمسية بحوالي عشرة أيام ، فعلى هذا يتقدم شهر رمضان كل عام عنه في السنة الماضية عشرة أيام بالنسبة للسنة الشمسية ، وعلى هذا ففي خلال ستة وثلاثين عاما لا يبقى يوم من أيام السنة إلا وقد صامه المسلم .

اليوم القصير في السنة واليوم الطويل ، اليوم الحار ، واليوم البارد ، وبذلك يتساوى المسلمون في كل أقطارهم في مقدار الصيام ، وشدته ، كل دورة من هذه الدورات ،

---

(١) راجع كتاب الأركان الأربعة للأستاذ أبي الحسن الندوي .

ولولا هذا لكان نصيب أهل المناطق الحارة أشد من نصيب أهل المناطق الباردة في شهر شمسي واحد ثابت ، وناس يصومون يوما طويلا أبد الدهر وناس يصومون يوما قصيرا ، أما بهذا فكل منهم خلال دورة واحدة قد أصابه من شدة الصوم ما أصاب غيره . إن للفواكه مواسم معينة ، ولأنواع من الطعام مواسم معينة ، كذلك والصيام على الشهر القمري يعود الإنسان على الامتناع خلال أوقات معينة عن كل نوع خلال الدورة الكاملة التي تحدثنا عنها ، وفي المقابل فإنه لا يحرمه أبد الدهر من التمتع بنوع واحد خلال وقت الصوم .

وفي تعيين شهر رمضان بالذات ، شهرا للصوم ، دون ترك التعيين للإنسان ليختار شهرا معينا لنفسه من السنة ، فيما عدا ما ذكرنا حكمه الأخرى من إشعار المسلمين بوحدتهم ، ومن تعويد النظام والانضباط والاستسلام لله ، ومن فتح الباب لاعمال موحدة من الخير ينال كل من المسلمين فيها نصيبه ، ولذلك نرى أن أكثر أئمة الاجتهاد ذهب إلى أنه متى ثبتت روية الهلال في قطر من أقطار المسلمين فقد وجب على كل المسلمين الصوم ، ولم يخالف في ذلك إلا الشافعية ، وفي ذلك توكيد لدخول المسلمين جميعا في يوم واحد مدرسة واحدة ، هي مدرسة رمضان بما فيها من معان عظيمة .

٤ ــ والصيام المفروض هو الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، مع نية الصيام لله تعالى . فلا صيام إذا لم تكن نية الصائم أنه يفعل هذا لوجه الله ، إيمانا به وبرسوله وبكتابه وشريعته ، وإخلاصا له في العمل وقد ورد في الحديث (من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه) .

والمفطرات هي كل ما يدخل الجوف من طعام وشراب وغيرهما والجماع أو الإنزال بسحاق أو استمناء ...

فالشيء الأساسي إذن في الصيام هو الامتناع عن شهوتي البطن والفرج ، وهما أعتى شهوات الإنسان ، فمن استطاع أن يحفظ نفسه خلال فترة الصوم عن هاتين الشهوتين ، كان على غيرهما أقدر ، وكان على تنظيمها بعد ذلك ، بحيث لا يخرج فيها عن حدود الحلال مستطيعا ، وإذا استطاع ذلك كان على طريق الجنة سائرا وفي الحديث :

(من يضمن لي ما بين لحييه وما بين فخذيه اضمن له الجنة) .

ولا ينضبط اللسان بشيء كانضباطه بالصيام ، وهذه نقطة هامة : إن الشبع الدائم للإنسان يجعل أعضاءه في كامل طاقتها ، ويجعل نفسه كذلك ، ومن هنا فإن لسانه ينطلق وقد لا يستطيع ضبطه ، واللسان أداة التعبير عن النفس ، فمهما كان في النفس من شرود عن طريق الله ، ظهر في اللسان ، وفي اليد ، وفي الرجل ، وفي السلوك ، وفي العمل ، فحبس النفس عن شهوة الطعام ، إضعاف بالتالي لها عن الإنطلاق في أي طريق ، وترويض لها على الانضباط على الطريق الصحيح .

وهذا هو الجانب السلبي في الموضوع ، والذي مظهره كف النفس عما ينبغي قال عليه السلام :

(إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب وإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم) وقال (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه) وما لم يحقق الإنسان من صيامه هذا الجانب فهو كما قال عليه السلام (رب صائم ليس له من صيامه إلا الظمأ ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر) .

إن تطهير النفس شيء أساسي في الصوم ، وقال عليه السلام إذ أقبل رمضان (مرحبا بالمطهر) (أتاكم رمضان شهر بركة يغشاكم الله فيه فينزل الرحمة ويحط الخطايا ويستجيب الدعاء .. فأروا الله من أنفسكم خيرا فإن الشقي من حرم فيه رحمة الله)

وأما الجانب الإيجابي :

فإن الصوم ترويض للنفس على الصبر ، وقوة الإرادة ، والطاعة لله ، ووقت الصوم يمتد من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، ويختلف هذا باختلاف الزمان والمكان ، ولكن كما قلنا ما زاد اليوم نتيجة لفصل كذا ومكان كذا سينقص في صيام آخر ، نتيجة لكون الصيام مرتبطاً بالأشهر القمرية .

ويلاحظ في توقيت الصوم أنه علق على علامتين سماويتين يسهل تمييزهما ، هما الفجر ، وغروب الشمس وفي ذلك ضبط للوقت ، يستطيعه أي إنسان في أكثر مناطق العالم . ولا بد هنا من الإشارة إلى حالتين :

الأولى : حالة القطبين إذ يمتد بهما النهار والليل إلى ستة أشهر ، فلو كان الإنسان

في مثل هذه المناطق فكيف يكون صومه ؟ .

الثانية : أن هناك مناطق بعد القطبين ، قد يكون الليل فيها ٢٣ ساعة ، والنهار ساعة او العكس ، النهار ٢٣ ساعة والليل ساعة واحدة ، ويتناقص هذا ويزيد على حسب البعد من القطبين ، أو القرب منهما ، فكيف يصوم الإنسان في مثل هذه البلاد ؟.

والجواب هو :

قال الشافعية : في البلاد التي ليس فيها فجر وعشاء متميزين عن بعضهما ، يكون صوم الناس فيها صيام أقرب البلاد إليهم التي فيها عشاء متميز ، وفجر متميز ، وكذلك البلاد التي يدوم نهارها أو ليلها أكثر من أربع وعشرين ساعة ، وكذلك يكون حكم الصلاة ، حيث تقدر أوقاتها تقديرا في البلاد التي يدوم ليلها أو نهارها فترة طويلة على الأساس السابق .

وكذلك البلاد التي غروب الشمس فيها هو بداية فجرها ، فإن وقت العشاء فيها كوقته في أقرب بلد إليهم يغيب فيها شفق العشاء ، ثم تكون فترة يطلع شفق الفجر فيها.

والمهم في هذا كله أنه لا توجد حالة من الحالات يسقط فيها فرض الصوم عن الإنسان في البلاد الواضح فجرها وغروبها ، من الفجر إلى الغروب ، وفي البلاد الأخرى كما رأينا :

يقول عز وجل : « فكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » .

والمقصود بالفجر هنا ، الفجر الثاني ، وهو المستطير يقول عليه السلام : (لا يمنعنكم من سحوركم أذان بلال ولا الفجر المستطيل ولكنه الفجر المستطير في الأفق) .

ويلاحظ في الصوم بهذا الشكل ، أنه أعطى الإنسان وقتا يعوض فيه عن كل ما فقده في صيامه من حاجة الجسد ، طعاما أو شرابا ، أو جنسا ، فتمحض الصيام نفعا خالصا للإنسان ، جسمياً ونفسيا . وإن لم يكن هذا هو الهدف ، بل الهدف هو طاعة الله وتقواه . ولكن أشرنا إلى هذا لأن الذين لا يعلمون يدّعون ان الصيام يضر جسم الإنسان ؛ وللرد عليهم ننقل هذه التجارب العملية التي أجراها اختصاصيون حول هذه القضية ، مع التعليق عليها كما نشرتها مجلة (المسلمون) تحت عنوان : (اثر الصيام

على صحة الإنسان) بقلم الأستاذين بهيئة تدريس كلية الطب ، داكار باكستان وراجعه وعلق عليه الدكتور أ . أ .

مقدمة : يصوم المسلمون في شتى بقاع الأرض الشهر القمري التاسع – رمضان – كل عام ، حيث يحرم عليهم الأكل والشرب ، من طلوع الفجر ، أو ما يقرب من ساعة ونصف قبل شروق الشمس ، حتى مغيبها ، وما بين الإفطار والإمساك يسمح لهم بالأكل والشرب في حدود طاقاتهم .

والصيام فرض على الأصحاء من الرجال عند سن الخامسة عشرة عاما ، أو (البلوغ) والصحيحات من النساء عند سن اثني عشر عاما (أو البلوغ) ، أما المرضى والمسافرون ، فغير ملزمين بالصيام[1] كما تنص الآية : « .. فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ...) (البقرة ١٨٣) . ونسبة لتغير الدورة القمرية ، فإن هنالك تحولا في عدة شهر رمضان من عام لآخر ، حيث يسبق الشهر القمري الشهر الميلادي بأحد عشر يوما سنويا .

ويتراوح الصيام اليومي بين اثنتي عشرة ساعة وتسع عشرة ساعة حسب اختلاف المواقع الجغرافية ، والمواسم المختلفة التي يحل فيها رمضان . ولهذا يأكل الصائم وجبة أو وجبتين أثناء الليل حسبما تقتضي حاجته ، طول مدة الليل حتى مطلع الفجر .

ولقد طال الجدل العلمي حول مدى التأثير الفسيولوجي للصيام على جسم الإنسان . فبينما يرى البعض أنه ضار بالجسم ، يرى البعض الآخر أنه غير ضار ، ما دام التغير الوحيد هو في اختلاف موعد تناول وجبات الطعام . وهذا في حد ذاته لا يؤثر في مجموع الطاقة الحرارية التي يحتاجها الجسم طوال الأربع وعشرين ساعة .

وفي الواقع إن الجسم قد يستهلك كميات أكثر من البروتينات والنشويات والسكريات في رمضان ، ومعنى هذا أن ياخذ الجسم كميات أكثر من الطاقة الحرارية .

بحث : ولقد أجري بحث طبي على ثلاثة عشر متطوع ، من بينهم أنثى حامل في شهرها السادس ، لمعرفة مدى تأثير صوم رمضان على جسم الإنسان ، وللمقارنة

---

(١) – وإنما يجب عليهم قضاؤه .

أجريت تجربة مماثلة على رجل مفطر عمره سبعة وعشرون عاماً ، في نفس الوقت وفي ظروف مشابهة . وقد تضمنت التجربة تأثير الصوم في الوزن ، والحرارة والنبض ، وضغط الدم ، ونسبة التمثيل الأساسي لخلايا الجسم ، وتوازن السوائل في الجسم . كما أجري بحث كيماوي على الدم والبول .

طريقة التجربة : كان من بين الثلاثة عشر متطوعاً : ثلاث نساء أعمارهم على التوالي : ١٧ و ٢٧ و ٤٠ عاماً . وتتراوح أعمار الرجال بين ٢٢ و ٦٩ بمتوسط عمر ٣٣ عاماً . وجميع المتطوعين ينتمون للطبقة المتوسطة ، والتي يتراوح مقدار ما يحصل عليه كل منهم من الطاقة الحرارية بين ٢,٥٠٠ و ٣,٠٠٠ وحـــدة حرارية . وجميعهم بحالة صحية جيدة ، وكلهم خال من الأمراض العضوية والطفيليات .

وقد أجريت كل الأبحاث والتحاليل اللازمة على جميع المتطوعين قبل بدء رمضان بمدة أسبوع ، لإمكان المقارنة بين حالتهم قبل الصوم وبعده . وقد أخذت العينات التي أجري عليها البحث قبل تناول إفطار الصباح . أما في رمضان فقد أخذت العينات بعد أن يتناول كل منهم جرعة من الماء فقط عند موعد الإفطار . وقد أعيد إجراء هذه التجارب في اليوم الأول ، والعاشر ، والاخير من رمضان وبعد شهر من انتهاء رمضان .

وقد أجريت الأبحاث على أدق الطرق العلمية الحديثة .

وإليك أيها القارىء الكريم النتائج التي حصلنا عليها من هذه الأبحاث :

النتائج : ١ ـ الوزن : كانت تأثيرات الصيام على وزن الجسم هي كما يرى من الجدول الموضح (جدول رقم ١)

(١) جدول لبيان أثر الصوم على وزن الجسم (بالأرطال) :

	قبل الصوم	رمضـــــان			بعد الصوم
	أ	ب	ج	د	هـ
المقارن « المتطوع الفاطر »	١٤٢	١٤٠	١٤٠	١٤٢	١٤٢
متوسط وزن الصائمين	١٢٢	١٢٢	١٢١	١١٩	١٢١
وزن المرأة الحامل	١٠٦	١٠٦	١٠٨	١١٠	١١٧

حيث : (أ) تعني قبل رمضان

(ب ج د) تعني اليوم الأول والعاشر والأخير من رمضان

(ه) بعد مضي شهر من رمضان .

ويلاحظ من التجربة أنه لم يكن هنالك تغير ملحوظ في وزن الرجل المفطر ، وباستثناء اثنين من المتطوعين ، فقد كان هنالك نقص بسيط في وزن الصائمين أقصاه سبعة أرطال خلال رمضان . وفي حالة واحدة ظل الوزن كما كان قبل الصيام ، كما زاد وزن المرأة الحامل حوالي أربعة أرطال خلال فترة الصيام ، ونصف العدد تقريباً عاد وزنهم كما كان قبل الصيام في التجربة التي أجريت بعد شهر من انتهاء الصوم .

٢ ــ الجهاز الدموي : لم يكن هنالك تأثير ظاهر على نسبة النبض ، وحرارة الجسم من جراء الصيام . وبقيت حالة الهيموجلوبين عادية ، ويعتقد أن السبب هو أن وقت الصوم غير كاف لإحداث أي تركيز يذكر في الهيموجلوبين . كما لم يكن هنالك تغيير ملحوظ في ضغط الدم عند المتطوعين بصفة عامة ، وإن كان هنالك هبوط بسيط في ضغط الدم في بعض الحالات في الفترة الأولى من رمضان .

(ملاحظة : التمثيل الحراري هو مقدار ما يأخذه الجسم من الأكسجين ، وما يطرده من ثاني أكسيد الكربون ليتمكن من استمرار نشاطه . ووحدته السعر الحراري. والجسم يأخذ عادة ما يعادل حوالي ٣٠٠٠ سعر حراري) .

٣ ــ نسبة التمثيل الحراري للخلايا : لم يكن هنالك تغيير ملحوظ في نسبة التمثيل الأساسي في خلال الجسم ، طوال فترة الصوم ، غير أنه في حالة المرأة الحامل ، كان مرتفعا ، ويتراوح بين +١٥,١ سعرا (أكثر من المعتاد) في أيام الصيام الأولى و+ ٢٦,١٥ سعرا بعد مضي شهر من رمضان وهذه النتيجة في حدود طاقة الجسم إذا ما أعطي اعتبار لكونها حامل .

٤ ــ نسبة السكر في الدم : (جدول رقم ٢) نرى في الجدول الموضح مدى التغيير في مستويات كمية السكر في الدم .

جدول يوضح أثر رمضان على سكر الدم : (مليجرام – ١٠٠ مم في الدم) .

	أ	ب	ج	د	ه
– المقارن (المفطر)	٩٢	٨٧	٩٠	٨٨	٩٣
– متوسط مستوى سكر الدم بالنسبة المئوية عند الصائمين	٨٤	٨٠	٨٠	٧٤	٨٦
– المرأة الحامل[١]	٨٨	٨٤	٧٢	٦٨	٨١

المفتاح : (أ) قبل رمضان

(ب ج د) : اليوم الأول والعاشر والأخير من رمضان

(ه) : بعد مضي شهر من رمضان .

ومن هذا الجدول يلاحظ أنه كان هناك هبوط واضح في مستويات كمية السكر في الدم . وفي عشر حالات فردية للمتطوعين كانت النسبة أقل من ٧٠ مليجرام في المائة ويعتبر هذا الحد هو الحد الأدنى للحالة الطبيعية عند الإنسان . ولم يحدث إطلاقا أن ارتفعت نسبة سكر الدم أكثر من ١٠٤ مليجرام في المائة في كل حالات البحث .

٥ – درجة استهلاك السكر : كما أجريت تجربة على أربعة من المتطوعين – من بينهم إمرأة – قبل رمضان مرة ، ثم في اليوم الأخير منه مرة أخرى ، لمعرفة مدى التغير في سرعة استهلاك السكر في الدم عند الصيام .

الغلوكوز : ويلاحظ من الجـــدول المرفق . أنه لم يكن هنالك تغير ملحوظ عن النسبة المعتادة عند المفطر كما رأينا في الجـــدول رقم ١ . ولوحظ أن محتويات الدم وعناصره بقيت في الحدود العادية طوال مدة الصوم ، كما لوحظ أن وظيفة الكبد ظلت طبيعية .

٦ – توازن السوائل : يلاحظ أن كمية ما يأخذه المتطوع من السوائل كان كافيا

(١) – يلاحظ أنه أبيح للمرأة الحامل أن تفطر في رمضان إذا خشيت على نفسها أو ابنها من الصيام بإخبار طبيب مسلم عدل .

للجسم عند معظمهم ، وكان عند البعض أعلا نسبيا ، بحيث يصل ٢,٤ لترا في الأربع وعشرين ساعة . ونسبة التبول كانت كما هو موضح في الجدول رقم ٣ . وفي غضون الأربع وعشرين ساعة كانت بصفة عامة ، في الحدود العادية ، وإن سجلت نسبة أقل من وقت لآخر بالنسبة للصائمين كما سجلت نفس النتيجة للرجل المفطر ، وهي بلا شك نتيجة لتقلبات الطقس ، وتبخر الماء عن طريق مسام الجسم ، وليست نتيجة للصيام ، والدليل على ذلك أن نفس النتيجة وجدت عند الصائم والمفطر سواء بسواء.

(جدول رقم ٣) جدول يوضح أثر رمضان على كمية التبول .

(لترات في اليوم)

	أ	ب	ج	د	هـ
المقارن (الرجل المفطر)	١٠٢	١٠١	١٠٥	١٠٤	١٠٠
متوسط تبول الصائمين	١٠٤	١٠٧	١٠٢	١٠٢	١٠٤
المرأة الحامل	١٠٤	١٠٣	١٠٣	١٠٨	١٠٤

حيث (أ) : قبل رمضان

(ب ج د) : اليوم الأول والعاشر والأخير من رمضان

(هـ) : بعد مضي شهر من رمضان .

ويستنتج من ذلك أنه لم يكن هنالك أي تغير في وظيفة الكليتين أثناء الصوم ، إذ لوحظ أن مركبات البول كانت طبيعية في كل التجارب .

والنتيجة الواضحة لذلك : أثبتت الأبحاث الطبية السالفة بأن الصيام ليس ذا أثر يذكر على تدهور صحة الإنسان — لو صح أن هنالك تدهور على الإطلاق — . وفي معظم الحالات يلاحظ نقصان بسيط في الوزن ، وانخفاض ضئيل في مستوى كمية سكر الدم عند الغروب نتيجة لطول اليوم ، ولكنه في حدود طاقة الجسم وفي المستوى الفسيولوجي الطبيعي . ويجدر أن نذكر هنا أن الملاحظات الآنفة الذكر ، انطبقت على أناس أصحاء . وليس معنى هذا أنها يمكن أن تنطبق على المرضى ، أو ذوي العاهات . ومن المصلحة أن يعرف مدى تأثير رمضان على المصابين بالسكر أو أي أمراض مستعصية .

وقد لوحظ ان هنالك فتورا عاما عند الصائمين خصوصا في الساعات الأخيرة من اليوم ، وربما كان ذلك نتيجة لانخفاض مستويات كمية السكر في الدم ، ولكن سرعان ما يدب النشاط بعد تناول الإفطار .

تعليق الدكتور أ.أ

أثبت هذا البحث الحديث الذي أجراه عالمان مسلمان على أسس علمية سليمة . أن الصوم ليس له تأثير ضار بالجسم . بل بالعكس أود أن أضيف إلى ذلك أن للصوم فوائد ، أثبتها العلم أيضا . أهمها :

١ ــ راحة الجهاز الهضمي ساعات كل يوم ، والمعروف عــن الجهاز الهضمي كغيره من الأحشاء الداخلية ، أنه آلة تعمل بلا انقطاع ، من ساعة أن يرضع الطفل لأول مرة من ثدي أمه ، إلى أن يموت . ومن الأمور الطبيعية في علاج كثير من المرضى الصوم عن الطعام لساعات معلومة ، وخاصة منها التحضير للعمليات الكبيرة . إذ يشترط فيها خلو المعدة من الطعام خلوا تاما قبل إعطاء البنج . بل وفي العمليات المستعجلة ربما اضطر الجراح إلى تفريغ المعدة قبل إعطاء البنج .

(المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء) . (من كلام طبيب العرب الحارث بن كلدة)

٢ ــ المعروف علميا أن القليل من الطعام خير من الكثير ، بل إن الأكل في مواعيد ثابتة لا يتخللها أكلات خفيفة ، مع أخذ الوجبات بحيث تكفي الطاقة اللازمة للجسم ، هو أفضل بكثير من ملء المعدة وحشوها بما يفيد وما لا يفيد ، وهذه في ذاتها إحدى فضائل الصوم الجسمانية حيث يكتفي الصائم بالقليل من الطعام عند إفطاره ، وهذه هي سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم عند صومه ... « وما آتاكم الرسول فخذوه ».

٣ ــ ثابت علمياً أيضا أن الإكثار من الطعام له مضار ظاهرة ، بل وأمراض محددة لها علاقة مباشرة بالإكثار من الطعام ، كبعض الأمراض الروماتزمية ، وأمراض القلب ، وضغط الدم ، والبول السكري . فلا غرو إن كان في الصوم راحة للجسم لمدة محددة كل عام هي $\frac{١}{١٢}$ من عمر المريض .

ويلاحظ انتشار مثل هذه الأمراض بنسبة أعلا منها في البلاد حيث الصوم مفروض ومؤدى .

وبعد فهذه تجربة جريئة لكي يرى من لم يكن قد رأى أثر الصوم في المسلم، وفي تعوده على الشدة، وكبح جماع شهوة البطن، وهي أقوى الشهوات. وفي تكوين الفرد الصلب، الذي لا يلين. وأن ثلاثة عشر قرنا أو تزيد لشاهدة على تكوين هذا المثل الدائم، لأثر الصوم، لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد). اهـ.

وعلى كل حال فليس إثبات مثل هذه الأبحاث إلا من أجل الذين في قلوبهم مرض أما المؤمنون فإنهم يطيعون الله، بصرف النظر عن أي موضوع آخر، إذا تأكد لهم أن رضى الله في شيء ثابت الورود عنه، أو عن رسوله عليه الصلاة والسلام.

٤ ــ ورمضان في الحقيقة مدرسة، إذا أحسن المنتسبون إليها أدبهم معها خرجوا وهم بشر جدد غير الذين كانوا في الأمس. فرمضان هو المدرسة التي يجدد فيهـا المسلم ماوهى من عرى الاسلام عنده. ويأخذ ما قصر في أخذه من قبل، ودورة يقبل بها المسلمون على عالم جديد، ويخلفون وراءهم عالما آخر. عالما ملؤه همـة جديدة، وروح جديد، وانتعاش جديد، وأمل يرتفعون به عن أن تكون الدنيا أكبر همتهم، ويتذكرون فيه أن الآخرة ورضوان الله فيها هي الهدف الكبير الذي لا ينبغي أن يغيب عن قلب المسلم.

والقصة هي كما يلي: في كتابنا «جند الله ثقافة وأخلاقاً» رأينا أهمية التقوى وماهيتها وأنها الخلق الذي علق الله عليه فلاح المسلم في دنياه وآخرته:

«إن المتقين في جنات ونعيم».

«واعلموا أن الله مع المتقين» وقال: «والله يحب المتقين».

وأن هذه التقوى حتى يستجمعها المسلم في قلبه فتكون له خلقا. لا بد أن يسلك لها طريقها وأهم الطرق المؤدية إلى التقوى الصيام، والقيام، والأذكار، والدعاء، وقراءة القرآن، والإنفاق في سبيل الله، والاعتكاف، والصبر، والاستغفار.

فقد قال الله عن الصيام: «كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون» وقال عن القرآن: «كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون» وقال: «إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين» وقال: «وان الله لمع الصابرين».

وقال عليه السلام في الحديث القدسي (وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه) (وأنا معه إذا ذكرني) .

وشهر رمضان هو الشهر الذي يسير به المسلم في كل طرق التقوى بشكل عفوي ، إذا أقام به ما سنه لنا رسول الله ﷺ فما من طريق يحقق التقوى في قلب المسلم ، إلا ويؤديه المسلم الحقيقي في رمضان بشكل عفوي ، فما ينتهي شهر الصوم ، إلا وقد امتلأ قلب المسلم نورا وايمانا وتقوى ، فمن سنن الصيام السحور وهو الأكلة ما بين منتصف الليل إلى الفجر . يقول عليه السلام فيه : (تسحروا فإن في السحور بركة) فالسحور معناه أن يكون المسلم قبل الفجر مستيقظا ، ومن سنن هذه الحالة.الوضوء ، والصلاة ، والاستغفار ، والتوجه بعد الفجر إلى المسجد لصلاة الفجر ؛ ومن سنة صلاة الفجر ، أن يذكر المسلم الله فيها وبعدها ، بأذكار مأثورة واردة ، ومن سنن الصيام الدعاء عند الفطور فللصائم دعوة مستجابة ؟

(اللهم لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت ، وعليك توكلت ، وبك آمنت ، ذهب الظمأ ، وابتلت العروق ، وثبت الأجر يا واسع الفضل اغفر لي ، الحمد لله الذي أعانني فصمت ، ورزقني فأفطرت) ومن سنن الصيام صلاة التراويح التي يصليها المسلمون جماعة بعد العشاء ، فيجمعون بها ذكرا وقراءة قرآن ، وركوع وسجود وتبتل .

ومن سنن رمضان اعتكاف العشر الأواخر من رمضان ، والاعتكاف قطع لقلب المسلم عن كل ما له علاقة في الدنيا ، وتفرغ لكل أعمال الآخرة .

ومن سنن رمضان أن يكثر المسلم من قراءة القرآن ، وأقل ذلك أن يقرأ القرآن مرة ، ومن سنن هذه القراءة المدارسة المشتركة ، فقد كان جبريل يساجل رسول الله القرآن في رمضان .

ومن سنن رمضان الإنفاق في سبيل الله ، فقد كان رسول الله ﷺ في رمضان أجود من الريح المرسلة . ومن سنن رمضان وواجباته صدقة الفطر التي يخرجها المسلم عن نفسه وأولاده الصغار ، غير البالغين ، قال عليه السلام في خطبة قبل يوم الفطر بيوم أو يومين (أدوا صاعا من بر أو قمح أو صاعا من تمر أو شعير عن كل حر أو عبد صغير أو كبير) .

وقال ابن عباس : (فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو

والرفث وطعمة للمساكين) وقال عليه السلام (أما غنيكم فيزكيه الله وأما فقيركم فيرد الله عليه أكثر مما أعطى) .

والمسلمون في رمضان تعمر مساجدهم بحلقات العلم والوعظ والتذكير ، فيتعلم من كان جاهلا ، ويتعظ من كان سادرا ، ويتذكر من كان غافلا ، وفي رمضان تتلقى أجيال المسلمين كلها الإسلام :

تتلقاه في اجتماع الأسرة قبل الفجر ، وتتلقاه في تحلقها قبل المغرب بانتظار الفطر ، وتتلقاه بالتطبيق العملي إذ يعتبر كثير من فقهاء المسلمين أن من واجب الأولياء أمر ابن السابعة بالصوم ، وضربه عليه اذا بلغ عشرا ، والرسول عليه السلام في العشر الأخير من رمضان ، كان يوقظ أهله في الليل ليأخذوا حظهم من عبادة الله .

ورمضان بعد هذا كله شهر الصبر الذي يعيشه المسلمون في أقطار الدنيا ، فيأخذون منه الدرس الكبير ، ولعل الصبر هو نصف ما يحتاجه الإنسان في هذه الدنيا كلها .

إن رمضان مدرسة تظهر آثار تربيتها في كل شيء ، في الفرد ، وفي الأسرة ، وفي الأمة سياسيا ، وعسكريا ، واقتصاديا ، ونفسيا ، وتربويا ، لتحيي الإسلام في كل شيء .

ب ـ مختارات من نصوص الصوم

(روى البخاري وأبو داود عن أبي هريرة : أن الرسول ﷺ كان يعتكف في كل رمضان عشرة أيام ، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين) .

(روى الستة عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يكون معتكفا في المسجد فيناولني رأسه من خلل الحجرة فأغسل رأسه وأنا حائض) .

(وفي رواية : وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان) .

وفي رواية أخرى : كان يمر بالمريض وهو معتكف فيمر ولا يعرج يسأل عنه).

(وفي أخرى : قالت والسنّة للمعتكف أن لا يعود مريضا ، ولا يشهد جنازة ، ولا يمس امرأة ، ولا يباشرها ، ولا يخرج لحاجة إلا لما لا بد منه . ولا اعتكاف إلا بصوم ،

ولا اعتكاف إلا في مسجد جامع) .

(روى الشيخان وأبو داود عن صفية قالت : كان النبي ﷺ معتكفا ، فأتيته أزوره ليلا فحدثته ، ثم قمت لانقلب فقام معي ليقلبني ، وكان مسكنها في دار أسامة ، فمر رجلان من الأنصار فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا فقال على رسلكما إنها صفية بنت حيي ، فقالا سبحان الله يا رسول الله ، فقال : إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرا أو قال شيئا) .

(روى القزويني عن ابن عمر قال : إن النبي ﷺ كان إذا اعتكف طرح له فراشه ، أو يوضع له سريره وراء أسطوانة التوبة) .

(روى القزويني عن أنس قال : دخل رمضان فقال النبي ﷺ إن هذا الشهر قد حضركم وفيه ليلة خير من ألف شهر ، من حرمها فقد حرم الخير كله ، ولا يحرم خيرها إلا محروم) .

(روى مالك عن ابن شهاب : أن أبا هريرة وابن عباس اختلفا في قضاء رمضان ، فقال أحدهما : يفرق بينه وقال الآخر لا يفرق) .

(روى الستة عن عائشة قالت : كان يكون علي الصوم من رمضان فما أستطيع أن اقضي إلا في شعبان ، وذلك لمكان رسول الله ﷺ)

(روى مالك والترمذي وأبو داود عن عائشة قالت : كنت أنا وحفصة صائمتين ، فأهدي لنا طعام فأكلنا منه ، فدخل رسول الله ﷺ فقالت حفصة : وبدرتني وكانت بنت أبيها يا رسول الله إني أصبحت أنا وعائشة صائمتين متطوعتين فأهدي لنا طعام فأفطرنا عليه فقال اقضيا مكانه يوما) .

(روى الستة إلا النسائي عن أبي هريرة قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل فقال يا رسول الله : هلكت . قال : مالك ؟ قال وقعت على امرأتي وأنا صائم فقال هل تجد رقبة تعتقها ؟ قال لا . قال : فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟ قال لا . قال : هل تجد إطعام ستين مسكينا ؟ قال لا . قال : إجلس فأتى النبي ﷺ بعرق فيه تمر قال : اين السائل ؟ قال : أنا . قال : خذ هذا فتصدق به . فقال : أعلى أفقر مني يا رسول الله ، فوالله ما بين لابتيها — يريد الحرتين — أهل

بيت أفقر من أهل بيتي فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه ثم قال أطعمه أهلك) .

(وفي رواية زاد : وصم يوما واستغفر الله) .

(روى مالك أنه بلغه : أن أنسا كبر حتى كان لا يقدر على الصوم فكان يفتدي).

(لأحمد والأوسط عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : من أدركه رمضان وعليه من رمضان شيء لم يقضه فإنه لم يقبل منه ومن صام تطوعا و عليه من رمضان شيء لم يقضه فإنه لا يقبل منه حتى يصومه) .

روى الستة عن عائشة قالت : أن رسول الله ﷺ : كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله ثم اعتكف ازواجه بعده) .

(روى الترمذي عن أبي سعيد قال : بلغ النبي ﷺ عام الفتح مر الظهران ، فآذنا بلقاء العدو ، فأمرنا بالفطر فأفطرنا أجمعين) .

(روى الشيخان والنسائي عن أنس قال : كنامع رسول الله ﷺ فمنا الصائم ومنا المفطر ، فنزلنا منزلا في يوم حار أكثرنا ظلا صاحب الكساء فمنا من يتقي الشمس بيده فسقط الصوام وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب فقال ﷺ ذهب المفطرون اليوم بالأجر) .

(روى الشيخان وأبو داود والنسائي عن جابر قال : كان النبي ﷺ في سفر فرأى رجلا قد اجتمع الناس عليه ، وقد ظلل عليه فقال : ماله ؟ فقالوا : رجل صائم فقال ليس البر أن تصوموا في السفر) .

(روى أصحاب السنن عن رسول الله ﷺ : إن الله وضع شطر الصلاة عن المسافر ، وأرخص له في الإفطار ، وأرخص فيه للمرضع والحبلى اذا خافتا على ولديهما) .

(روى مسلم وأصحاب السنن عن أبي سعيد قال : كنا نسافر مع رسول الله ﷺ فمنا الصائم ومنا المفطر ، فلا يجد المفطر على الصائم ولا الصائم على المفطر وكانوا يرون أنه من وجد قوة فصام فحسن . ومن وجد ضعفا فأفطر فحسن) .

(روى الستة عن عائشة قالت : إن حمزة بن عمرو الأسلمي قال للنبي ﷺ : أأصوم

في السفر ؟ وكان كثير الصيام فقال إن شئت فصم وإن شئت فافطر) .

(روى أبو داود والنسائي عن حمزة بن عمرو الأسلمي : أنه قال للنبي ﷺ إنه صاحب ظهر يسافر عليه ، وربما صادفه رمضان قويا شاتيا. الصوم أهون عليه من أن يؤخره فيكون دينا وقال : أفأصوم يا رسول الله أعظم لأجري أو أفطر ؟ فقال أي ذلك شئت يا حمزة) .

(روى البخاري وأبو داود والترمذي واللفظ له عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ (من أفطر يوما من رمضان من غير رخصة ولا مرض لم يقضه صوم الدهر كله وإن صـــامه) .

(روى مالك عن سليمان بن يسار قال : إن رسول الله ﷺ نهى عن صوم أيام التشريق) .

(روى مسلم عن نبيشة الهذلي عن رسول الله ﷺ قال : أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله) .

(روى أصحاب السنن عن صلة بن زفر : كنا عند عمار في اليوم الذي يشك من شعبان أو رمضان ، فأتينا بشاة مصلية فتنحى بعض القوم فقال : إني صائم فقال عمار : من صام هذا اليوم فقد عصى أبا القاسم ﷺ) .

(روى مالك : سمعت أهل العلم ينهون عن صوم اليوم الأول الذي يشك فيه أنه من شعبان أو من رمضان إذا نوى به الفرض ويرون أن على من صامه لغير رؤية ثم جاء الثبت أنه رمضان القضاء ، ولا يرون في صيامه تطوعا بأسا) .

(روى أبو داود والترمذي عن أبي هريرة عـــن رسول الله ﷺ : إذا انتصف شعبان فلا تصوموا) .

(روى أبو داود والترمذي والشيخان والنسائي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : لا يتقدمن أحدكم رمضان بصوم يوم أو يومين إلا أن يكون رجلا يصوم صومـــاً فليصمه) .

(روى الشيخان عن ميمونة : أن الناس شكوا في صيام رسول الله ﷺ يوم عرفه

فأرسلت إليه بحلاب وهو واقف فشرب والناس ينظرون) .

(روى الشيخان وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : لا تخصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي ، ولا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام ، إلا أن يكون في صوم يصومه أحدكم)

(للكبير عن كريب قال : أرسلني ناس إلى أم سلمة أسألها أي الأيام كان رسول الله ﷺ أكثر لها صوما ؟ فقالت السبت والأحد ويقول هما يوما عيد للمشركين فأحب ان أخالفهم) .

(روى القزويني عن محمد بن عباد بن جعفر قال : سألت جابرا وأنا أطوف بالبيت أنَهَى النبي ﷺ عن صيام يوم الجمعة ؟ قال نعم ورب هذا البيت) .

(روى القزويني عن ابن مسعود قال : قلما رأيت رسول الله ﷺ يفطر يوم الجمعة) .

(روى النسائي والترمذي عن عائشة قالت : إن رسول الله ﷺ كان يتحرى صيام يوم الإثنين والخميس) .

(روى الترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ تعرض الأعمال على الله يوم الإثنين ويوم الخميس فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم) .

(روى الترمذي وأبو داود عن مسلم القرشي قال : سألت أو سئل رسول الله ﷺ عن صيام الدهر فقال إن لأهلك عليك حقا فصم رمضان ، والذي يليه ، وكل أربعاء وخميس ، فإذا أنت قد صمت الدهر كله) .

(روى الترمذي وأبو داود عن معاذة العدوية : سألت عائشة : أكان رسول الله ﷺ يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ؟ قالت نعم قلت من أي الشهر كان يصوم ؟ قالت لم يكن يبالي من أي الشهر كان يصوم) .

(روى مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي قتاده قال : سئل رسول الله عن صوم الاثنين قال : ذاك يوم ولدت فيه ويوم بعثت أو أنزل علي فيه) .

(لأصحاب السنن عن ابن مسعود : كان رسول الله ﷺ يصوم من غرة كل شهر ثلاثة أيام) .

(روى الشيخان والترمذي وأبو داود عن أبي سعيد : أن رسول الله ﷺ نهى عن صيام يومين يوم الفطر ويوم النحر) .

(لأبي داود والترمذي وللشيخين مطولا عن أبي عبيد مولى ابن أزهر : شهدت عمر في يوم نحر بدأ بالصلاة قبل الخطبة ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن صوم هذين اليومين ، أما يوم الفطر ففطركم من صومكم وعيد المسلمين وأما يوم الأضحى فكلوا من لحوم نسككم) .

(روى مسلم وأصحاب السنن عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ، وأفضل الصلاة بعد المفروضة الصلاة في جوف الليل) .

(روى الترمذي عن أبي قتادة عن رسول الله ﷺ : صيام يوم عاشوراء إني أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله) .

(روى مسلم وأبو داود عن ابن عباس قال : حين صام رسول الله ﷺ يوم عاشوراء وأمر بصيامه قالوا يا رسول الله : إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى فقال : فإذا كان العام المقبل إن شاء الله صمت اليوم التاسع فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله ﷺ) .

(ولرزين : صوموا التاسع والعاشر وخالفوا اليهود) .

(روى الشيخان والنسائي عن ابن عباس : ما صام رسول الله ﷺ شهراً كاملا قط غير رمضان ، وكان يصوم حتى يقول القائل لا والله ما يفطر ، ويفطر حتى يقول القائل لا والله ما يصوم) .

(وللستة عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول لا يفطر ، ويفطر حتى نقول لا يصوم ، وما رأيته استكمل صيام شهر قط إلا شهر رمضان وما رأيته في شهر أكثر منه صياما في شعبان) .

(روى النسائي عن أسامة قال : قلت يا رسول الله : لم أرك تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان . قال : ذاك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان وهو شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين فأحب أن يرفع عملي وأنا صائم) .

(روى أبو داود : كان رسول الله ﷺ يفطر قبل أن يصلي على رطبات فإن لم يجد فتميرات فإن لم تكن حسا حسوات من ماء) .

(روى أبو داود عن ابن عمر قال : كان رسول الله ﷺ إذا أفطر قال ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله) .

(روى البخاري وأبو داود والترمذي عن عامر بن ربيعة قال : رأيت رسول الله ﷺ يستاك وهو صائم ما لا أعد ولا أحصي) .

(روى البخاري في ترجمة عن ابن عمر قال : يستاك الصائم أول النهار وآخره).

(روى الشيخان وأبو داود ومالك عن ابن عمر قال : إن النبي ﷺ نهى عن الوصال قالوا إنك تواصل قال إني لست كهيئتكم إني أُطعم وأُسقى) .

(روى البخاري وأبو داود عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ قال : لا تواصلوا فأيكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر قالوا فإنك تواصل .... بنحوه) .

(روى مسلم والترمذي وأبو داود عن أبي أيوب الأنصاري عن رسول الله ﷺ قال من صام رمضان ثم أتبعه بست من شوال كان كصيام الدهر) .

(وللدارمي عن ثوبان عن رسول الله ﷺ قال : صيام شهر بعشرة أشهر وستة أيام بعده بشهرين فذلك تمام السنة) .

(روى ابو داود والنسائي عن هنيدة بن خالد عن امرأته عن بعض أزواج النبي ﷺ قالت كان النبي ﷺ يصوم تسع ذي الحجة ويوم عاشوراء وثلاثة أيام من كل شهر أول إثنين من الشهر والخميس) .

(روى الترمذي عن أبي قتادة عن رسول الله ﷺ : صيام يوم عرفة إني أحتسب على الله أن يكفر السنة التي بعده والسنة التي قبله) .

(روى الشيخان وأبو داود والنسائي عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ قال : لا يمنعن أحدكم أذان بلال من سحوره فإنه يؤذن أو قال ينادي بليل ليرجع قائمكم ويوقظ نائمكم وليس الفجر أن يقول هكذا وجمع بعض الرواة كفيه حتى يقول هكذا ومد أصبعيه السبابتين وفي رواية هو المعترض وليس بالمستطيل) .

(روى الشيخان وأبو داود والترمذي عن عمر عن رسول الله ﷺ قال : إذا أقبل الليل وأدبر النهار وغابت الشمس فقد أفطر الصائم) .

(روى الشيخان وأبو داود عن عبد الله بن أبي أوفى قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر في رمضان فلما غابت الشمس قال يا فلان : إنزل فاجدح لنا . قال يا رسول الله: إن عليك نهارا قال إنزل فاجدح لنا فنزل فجدح فشرب ﷺ ثم قال بيده : إذا غابت الشمس من هاهنا وجاء الليل من هاهنا فقد أفطر الصائم) .

(روى الشيخان ومالك والترمذي عن سهيل بن سعد عن رسول الله ﷺ :لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر) .

(روى الترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : قال الله عز وجل أحب عبادي إلي أعجلهم فطرا) .

(روى مسلم وأصحاب السنن عن مالك بن عامر أبو عطية : قلت لعائشة رضي الله عنها فينا رجلان من أصحاب النبي ﷺ أحدهما يعجل الإفطار ويؤخر السحور والآخر يؤخر الإفطار ويعجل السحور قالت أيهما الذي يعجل الإفطار ويؤخر السحور ؟ قلت : عبد الله بن مسعود . قالت : كذلك كان يصنع رسول الله ﷺ . وفي رواية : أحدهما يعجل الإفطار ويعجل الصلاة والآخر يؤخر الإفطار ويؤخر الصلاة) .

(روى النسائي عن أبي عبيدة عن رسول الله ﷺ قال : الصوم جنة مالم يخرقها).

(عن أبي أمامة قال : قلت يا رسول الله : مرني بأمر ينفعني الله به قال عليك بالصوم فإنه لا مثل له) .

(روى الشيخان وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله قال : من نسي وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صومه فإنما أطعمه الله وأسقاه) .

(في الأوسط عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : من أكل أو شرب ناسياً في رمضان فلا قضاء عليه ولا كفارة) .

(وفي الأوسط ولأحمد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : من أدركه رمضان وعليه رمضان آخر لم يقضه لم يقبل منه) .

(روى البخاري وأبي داود والترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه) .

(روى الشيخان وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : لا تصم المرأة وبعلها شاهد إلا باذنه) . وهذا في النفل والقضاء .

(روى مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : إذا دعي احدكم إلى طعام فليجب فان كان مفطرا ليطعم وإن كان صائما فليصل قال هشام يريد فليدع لهم) .

(روى الشيخان والترمذي والنسائي عن أنس عن رسول الله ﷺ : تسحروا فإن في السحور بركة) .

(روى الشيخان والترمذي والنسائي عن زيد بن ثابت قال : تسحرنا مع رسول الله ﷺ ثم قمنا إلى الصلاة قال أنس قلت كم بينهما ؟ قال قدر خمسين آية) .
(عن حذيفة عن رسول الله ﷺ قال : لا تقدمـــوا الشهر حتى تروا الهلال أو تكملوا العدة ثم صوموا حتى تروا الهلال أو تكملوا العدة) .

(روى أبو داود عن حسين بن الحارث الجدلي عن الحارث بن حاطب قال : عهد الينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننسك لرؤيته فإن لم نره وشهد شاهدا عدل نسكنا بشهادتهما وقال : إن فيكم من هو أعلم بالله ورسوله مني وقد شهد هذا من رسول الله ﷺ وأومأ إلى ابن عمر فقال : بذلك أمرنا رسول الله ﷺ) .

(روى مسلم وأصحاب السنن عن عائشة قالت : دخل علي النبي ﷺ ذات يوم فقال عندكم من شيء فقلنا لا قال فإني إذاً صائم ثم أتانا يوما آخر فقلنا يا رسول الله أهدي لنا حيس قال أرنيه فقد أصبحت صائما فأكل) .

(وفي رواية : قلت يا رسول الله دخلت علي وأنت صائم ثم أكلت حيسا قال نعم يا عائشة إنما منزلة من صام في غير رمضان أو وفي غير قضاء رمضان في التطوع بمنزلة رجل أخرج صدقة من ماله فجاد منها بما شاء فأمضاه وبخل بما بقي فأمسكه).

(وفي رواية قال الصائم المتطوع أمين أو أمير نفسه فإن شاء صام وإن شاء أفطر) .

(وعن عائشة : قالت : يقبلني رسول الله ﷺ وهو صائم وأنا صائمة) .

(روى أبو داود عن أبي هريرة قال : إن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن المباشرة للصائم فرخص له وأتاه آخر فسأله فنهاه ، فإذا الذي رخص له شيخ وإذا الذي نهاه شاب) . والمقصود بالمباشرة لمس البشرة بالبشرة لا الجماع .

(روى الستة عن عائشة وأم سلمة : قال أبو بكر بن عبد الرحمن : سمعت أبا هريرة يقص يقول في قصصه من أدركه الفجر جنبا فلا يصم فذكرت ذلك لأبي فأنكره فانطلق وانطلقت معه حتى دخلنا على عائشة وأم سلمة فسألهما عن ذلك فكلتاهما قالت :

كان النبي ﷺ يصبح جنبا من غير حلم ثم يصوم فانطلقنا حتى دخلنا على مروان فذكر ذلك له عبد الرحمن فقال مروان ، عزمت عليك إلا ما ذهبت إلى أبي هريرة فرددت عليه ما يقول . فجئنا أبا هريرة فذكر له عبد الرحمن فقال أبو هريرة : أهما قالتاه لك ؟ قال نعم قال هما أعلم ثم رد ما كان يقول إلى الفضل بن عباس فقال سمعت ذلك من الفضل ولم أسمعه من النبي ﷺ فرجع أبو هريرة عما كان يقول) وفي رواية قالتا : إن كان رسول الله ﷺ ليصبح جنباً من جماع غير احتلام في رمضان ثم يصوم) .

(روى الستة عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : قال كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف قال الله تعالى إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به يدع شهوته وطعامه من أجلي للصائم فرحتان فرحة عند فطوره وفرحة عند لقاء ربه ولخلوف فيه أطيب عند الله من ريح المسك) .

(روى الشيخان عن سهل بن سعد عن رسول الله ﷺ قال : في الجنة باب يدعى الريان يدعى له الصائمون فمن كان من الصائمين دخله ومن دخله لم يظمأ أبداً) .

(روى الترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : من فطّر صائما كان له مثل أجره غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيئاً) .

(وفي الأوسط عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : إغزوا تغنموا وصوموا تصحوا وسافروا تستغنوا) .

(روى البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : من صام رمضان إيماناً واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه) .

(روى الشيخان ومالك والنسائي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة وأغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين) .

(روى الترمذي عن أم عمارة بنت كعب الأنصارية عن رسول الله ﷺ قال : الصائم إذا أكلت عنده المفاطير صلت عليه الملائكة) .

(روى مالك والشيخان وأبو داود عن ابن عمر قال : إن رجالا من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر فقال ﷺ أرى رؤياكم تواطأت في السبع الأواخر فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر . وفي رواية في العشر الأواخر) .

الركن الخامس : الحج

(أ) نظرات عامة في الحج

١ ـ الحج مجموعة رموز صيغت بأعمال :

فهو رمز على استسلام الإنسان لله إذا بلغه أمر الله بواسطة رسوله ، إذ ينفذ الأمر بصرف النظر عن المعنى العملي لهذا الأمر . وما الطواف ، والوقوف ، والسعي ، والحلق ، والتقصير وغيرها من اعمال الحج ، إلا رمز استسلام المسلم لأمر الله دون نقاش .

وهو رمز على ارتباط هذه الأمة بأبيها إبراهيم عليه السلام حيث نحيي شعائره ، ونطوف بالبيت الذي بناه .

وهو رمز على وحدة الأمة الإسلامية ، بصرف النظر عن الأجناس والألوان والأوطان ، فوحدة المسلمين نابعة عن عقيدتهم ودينهم وشريعتهم .

٢ ـ والحج مظهر عملي لكثير من قواعد الإسلام :

فهو المظهر العملي للأخوة الإسلامية ، حيث يحس الإنسان بشكل عملي أنه أخ لكل مسلم في العالم .

وهو المظهر العملي للمساواة بين الشعوب اذا دخلت في الاسلام ، وهو المظهر العملي لقوله تعالى « وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » فبه يتم أعظم تعارف بين شعوب العالم .

وهو المظهر العملي لخضوع المسلمين جميعا لسلطة سياسية واحدة .

٣ ـ والحج مدرسة يرتفع بها المسلم إلى آفاق أرقى وأعلى :

يتعلم بها على بذل الجهد مع الصبر « لكن أفضل الجهاد حج مبرور » .

ويتعلم بها أن يعيش في عبادة دائمة .

ويتعلم بها أن يكون لطيفاً مع المؤمنين رحباً بهم .

ويتعلم بها كبح عواطفه ، وإلجام نزواته .
ويتعلم بها دروسا من الإخشيشان والقسوة .
ويتعلم بها دروس العبودية لله .
ويتعلم بها كيف ينفق في سبيل الله دون مقابل .
ويتعلم بها كيف يعظم ما عظمه الله ، وكيف يحقر ما حقره الله .
ويتعلم بها أن يعادي من عادى الله ، وأن يوالي من والاه .
٤ – والحج يحيي في نفس الإنسان مشاعر كثيرة :
يحيي فيه مشاعر العطف على المسلمين ، والانتصار لمأساتهم ، ومشاعر الجيل الإسلامي الأول الذي عاش هنا ، وحياة الاضطهاد من أجل العقيدة التي عاناها .
ومشاعر الولاء لله والرسول والمؤمنين .
ومشاعر التوجه الخالص لله .
ومشاعر التجرد عن الدنيا ، والإقبال على الآخرة .
ومشاعر العزم على فتح صفحة جديدة مع الله .
٥ – وفي كل فعل من أفعال الحج عظات ومعان ، اذا تحسسها الإنسان ولدت معه مفاهيم ربانية أكثر ، وسلوكا إسلاميا أجود ، وتأسيا برسول الله أعلى :
مجمع الناس عرفات قبل طواف الركن ، حيث يجتمع في يومه كل من نوى الحج ، ليبدأ كل الناس منطلقهم منه دفعة واحدة لتعظيم البيت ، ثم يزدلفون منه نحو البيت إلى مزدلفة ، وقد تابوا وأنابوا وأقبلوا على البيت بنفوس أطهر وأكثر شفافية .
ومن مزدلفة ينطلقون إلى منى ، ليرموا الجمار قبل أن يطوفوا معلنين أن عدو الله هو عدوهم ، ويذبحون لله شكرا على أن أباح لهم بهيمة الأنعام ، ويحلقون استعدادا للطواف بنفوس نظيفة ، وثياب نظيفة ، ومنظر حسن .
ثم يطوفون بالبيت معظمين له ، لتعظيم الله إياه « ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب » ثم يسعون بين الصفا والمروة فعل أمهم الصالحة ، يوم ابتدأ أمر التمهيد لبناء بيت الله .
ويخرج الإنسان من هذه الرحلة وقد ولد من جديد ، ويرجع مرة ثانية ليرمي الجمار معلناً الشيطان بالعداء أولاً وآخراً .
٦ – والحج عودة بالمسلمين إلى مراكز الإسلام الأولى ، دين إبراهيم ومحمد عليهما السلام . فتقوي في المسلم رابطته بهذه المراكز ، على أنها وطنه الروحي ، وقبلته

الوحيدة ، ووجهة جسمه ، ومنطلق تطلعاته . وآماله ، فيرجع منه وقد تغيرت كثير من معالم صورة الحياة لديه ، فبعد أن كان ارتباطه بمراكز الإسلام نظريا ، أصبح حقيقة وواقعا ، وحسا وعملا . وفي النصوص التالية إشارات لمن تأمل .

روى الإمام أحمد والطبراني في الكبير عن أبي الطفيل :

قلت لابن عباس يزعم قومك أنه صلى الله عليه وسلم سعى بين الصفا والمروة وأنه سنة . قال : صدقوا أن إبراهيم لما أمر بالمناسك اعترض له الشيطان ، فسابقه فسبقه إبراهيم ، ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة ، فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى ، فرماه بسبع ثم تله للجبين ، وعلى إسماعيل قميص أبيض قال : يا أبت إنه ليس لي ثوب تكفنني فيه غيره ، فاخلعه حتى تكفنني فيه ، فعالجه ليخلعه ، فنودي من خلفه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، فالتفت إبراهيم فإذا هو بكبش أبيض ، أقرن ، أعين ، قال ابن عباس : لقد رأيتنا نتتبع ذلك الضرب من الكباش . قال : ثم ذهب به جبريل إلى الجمرة القصوى فعرض له الشيطان ، فرماه بسبع حتى ذهب ، ثم ذهب به جبريل إلى منى . قال : هذا منى مناخ الناس ، ثم أتى به جمعا قال : هذا المشعر الحرام ، ثم ذهب به إلى عرفة ، هل تدري لم سميت عرفة ؟ قلت : لا قال : إن جبريل قال لإبراهيم هل عرفت ؟ قال نعم فمن ثم سميت عرفه . هل تدري لم كانت التلبية ؟ قلت وكيف كانت ؟ قال : إن إبراهيم لما أمر أن يؤذن في الناس بالحج . خفضت له الجبال رؤوسها ، ورفعت له القرى فأذن بالناس بالحج) .

روى الطبراني في الكبير قال ابن عمرو بن العاص :

طوفوا بهذا البيت ، واستلموا هذا الحجر ، فإنهما كانا حجرين أهبطا من الجنة ، فرفع أحدهما ، وسيرفع الآخر ، فإن لم يكن كما قلت ، فمن مر بقبري فليقل هذا قبر عبد الله بن عمرو الكذاب) .

وروى البزار والطبراني في الكبير عن ابن عمر :

أن النبي ﷺ أتاه في مسجد منى رجل من الأنصار ، ورجل من ثقيف ، فقالا يا رسول الله جئنا نسألك فقال : إن شئتما أخبرتكما بما جئتما تسألاني عنه وإن شئتما أمسك وتسألاني فقالا : أخبرنا يا رسول الله . فقال للأنصاري : جئتني تسألني عن مخرجك من بيتك تؤم البيت الحرام ومالك فيه ، وعن ركعتيك بعد الطواف ومالك فيهما ، وعن طوافك بين الصفا والمروة ومالك فيه ، وعن وقوفك عشية عرفة ومالك

فيه ، وعن رميك الجمار ومالك فيه ، وعن نحرك ومالك فيه ، وعن حلقك رأسك ومالك فيه ، وعن طوافك بالبيت بعد ذلك ومالك فيه . فقال : والذي بعثك بالحق لعنْ هذا جئت أسألك قال : فإنك إذا خرجت من بيتك تؤم البيت الحرام لا تضع ناقتك خفاً ولا ترفعه إلا كتب الله لك به حسنة ، ومحا عنك خطيئة ، وأما ركعتاك بعد الطواف كعتق رقبة من بني اسماعيل ، وأما طوافك بالصفا والمروة كعتق سبعين رقبة ، وأما وقوفك عشية عرفة فإن الله تعالى يهبط إلى سماء الدنيا فيباهي بكم الملائكة . يقول عبادي جاؤني شعثاً وغبرا من كل فج عميق يرجون جنّتي . فلو كانت ذنوبكم كعدد الرمل ، أو كقطر المطر ، وزبد البحر لغفرتّها . أفيضوا عبادي مغفورا لكم وعمن شفعتم له . وأما رميك الجمار فلك بكل حصاة رميتها تكفير كبيرة من الموبقات . وأما نحرك فمدخور لك عند ربك . وأما حلاقك رأسك فلك بكل شعرة حلقتها حسنة ، وتمحي عنك خطيئة . وأما طوافك بالبيت بعد ذلك فإنك تطوف ولا ذنب لك يأتي ملك حتى يضع يديه بين كتفيك فيقول إعمل فيما يستقبل فقد غفر لك ما مضى . للبزار والكبير .

(عن ابن مسعود رفعه : تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة ، وليس لحجة مبرورة ثواب إلا الجنة ، وما من مؤمن يظل يومه محرما إلا غابت الشمس بذنوبه) النسائي والترمذي بلفظه .

(أبو هريرة رفعه : العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة)

(وفي رواية : من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه) للستة إلا أبو داود .

(وعن أبو هريرة رفعه : الحجاج والعمار وفد الله إن دعوه أجابهم ، وإن استغفروه غفر لهم) . للقزويني .

وبعد : فالحج إحياء لأخلد ذكريات ربانية عرفها البشر ، ذكرى الأسرة التي لا تبالي في الله بشيء ، ذكرى الولد الذي يقدم نفسه قرباناً لله ، ذكرى الوالد الذي يقدم ابنه قرباناً لله ، ذكرى الأم التي تثق برعاية الله ثقة لا حد لها ، وتطيعه وتطيع سيدها طاعة لا حد لها . ذكرى التوكل الكامل ، ذكرى العودة الفاتحة الى البيت الذي أخرج من جواره المستضعفون .

والحج ميزان يعرف به المهتمون بأمر المسلمين ، حال المسلمين ، فالأمة الإسلامية

بما فيها من قوة أو خير، من ضعف أو جهل، من ذلة أو فقر، من عزة أو غنى، بما فيها من كل شيء، لا تعرف كما تعرف في الحج.

والحج معول الهدم الأول، في كل حاجز يوضع بين أبناء هذه الأمة، حاجز القومية، والوطنية، والمال، والجاه، والسلطان، والشيطان، كل هذا يزول بضربة واحدة من معول الحج العظيم.

والحج قبل هذا وبعده، طريق من طرق الخلاص من براثن الشيطان، إلى معية الرحمن. فالمسلم الذي يرمي الجمرة قبل طوافه بالبيت، ثم يطوف بالبيت، ثم يرجع ليرمي، لا شك أنه تحقق لو تأمل بقوله تعالى «فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى».

ولا شك أن علماء المسلمين، لو أحسنوا للحج وفي الحج، لكان الحج حلاً لكل مشاكل المسلمين.

(ب) صورة حديثية للحج

قال ابن عباس: (من السنة أن لا تحرم بالحج إلا في أشهر الحج) البخاري.

وقال: وقَّتَ رسول الله ﷺ لأهل المدينة ذا الحليفة، ولأهل الشام الجحفة، ولأهل نجد قرن المنازل، ولأهل اليمن يلَمْلَم. قال: فهن لهن ولمن أتى عليهن من غير أهلهن لمن كان يريد الحج والعمرة فمن كان دونهن فمهلّه من أهله حتى أهل مكة يهلون منها) رواه الستة إلا مالكا.

وروى ابن عمر: (سئل رسول الله ﷺ ما يلبس المحرم؟ قال: لا يلبس المحرم القميص ولا العمامة ولا البرنس ولا السراويل ولا ثوبا مسه وَرْسٌ ولا زعفران ولا الخفين إلا أن لا يجد نعلين فليقطعهما حتى يكونا أسفل من الكعبين) رواه الستة.

وقالت عائشة: كان الركبان يمرون بنا ونحن مع رسول الله ﷺ محرمات فإذا حاذونا سدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها فإذا جاوزونا كشفناه) أبو داود

وللترمذي: أن النبي ﷺ تجرد لإهلاله واغتسل.

ولرزين: (انه أي النبي ﷺ اغتسل لإحرامه ولطوافه بالبيت ولوقوفه بعرفة).

وعن أبي بكر: (أنه خرج حاجا مع رسول الله ﷺ حجة الوداع ومعه امرأته اسماء بنت عميس الخثعمية فلما كانوا بذي الحليفة ولدت أسماء محمد بن أبي بكر

فأتى أبو بكر النبي ﷺ فأخبره فأمره أن يأمرها أن تغتسل ثم تهل بالحج وتصنع ما يصنع الناس إلا أنها لا تطوف بالبيت) النسائي . وقال ابن عمر : الحائض تهل بالحج والعمرة وتشهد المناسك كلها غير أنها لا تطوف بالبيت ولا بين الصفا والمروة ولا تقرب المسجد حتى تطهر) مالك .

لأبي داود عن ابن جبير : قلت لابن عباس يا أبا العباس عجبت لاختلاف أصحاب رسول الله ﷺ في إهلاله حين أوجب فقال : إني لأعلم الناس بذلك إنما كانت من رسول الله ﷺ حجة واحدة، فمن هناك اختلفوا . خرج رسول الله ﷺ حاجا فلما صلى بمسجده في ذي الحليفة ركعتيه ، أوجب في مجلسه فأهل بالحج حين فرغ من ركعتيه ، فسمع ذلك منه أقوام فحفظته عنه ، ثم ركب فلما استقلت به ناقته أهل وأدرك ذلك منه اقوام ، وذلك أن الناس إنما كانوا يأتون أرسالا ، فسمعوه حين استقلت به ناقته يهل فقالوا : إنما أهل حين استقلت به ناقته ، ثم مضى فلما علا على شرف البيداء أهل وأدرك ذلك منه اقوام فقالوا : إنما أهلّ حين علا على شرف البيداء ، وأيم الله لقد أوجب في مصلاه ، وأهلّ حين استقلت به ناقته ، وأهل حين علا على شرف البيداء . قال ابن جبير فمن أخذ بقول ابن عباس أهل في مصلاه إذا فرغ من ركعتيه).

ولأبي داوود والنسائي عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ :

(يلبي المقيم أو المعتمر حتى يستلم الحجر) .

وللستة عن ابن عمر (سمعت رسول الله ﷺ يهل ملبيا يقول: لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك. لا يزيد على هذه الكلمات) .

وروى أبو داوود عن جابر مثل هذا وزاد جابر :

(والناس يزيدون ذا المعارج ونحوه من الكلام والنبي ﷺ يسمع ولا يقول شيئا).

وروى الشيخان وأبو داود والنسائي عن ابن عمر قال :

(تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج فأهدى فساق معه الهدي من ذي الحليفة وبدأ فأهلّ بالعمرة ، ثم أهل بالحج ، وتمتع الناس معه . فكان منهم من أهدى ، ومنهم من لم يهد ، فلما قدم مكة قال للناس من كان منكم أهدى فإنه لا يحل من شيء حرم عليه حتى يقضي حجه ، ومن لم يكن منكم أهدى فليطف بالبيت وبالصفا والمروة وليقصر وليحلل ، ثم ليهل بالحج وليهد ، فمن لم يجد هديا

فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله . وطاف رسول الله ﷺ حين قدم مكة فاستلم الركن أول شيء ثم خب ثلاثة أطواف من السبع ، ومشى أربعة ، ثم ركع حين قضى طوافه بالبيت عند المقام ركعتين ، ثم سلم ، فانصرف فأتى الصفا ، فطاف بالصفا والمروة سبعة أطواف ، ثم لم يحلل من شيء حرم منه حتى قضى حجه ، ونحر هديه يوم النحر ، وأفاض فطاف بالبيت ثم حل من كل شيء حرم منه ، وفعل مثل ما فعل رسول الله ﷺ من أهدى فساق الهدي من الناس) .

وروى مسلم وأبو داوود والنسائي عن جابر قال :

(إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج ثم أذّن في الناس في العاشرة أنه حاج . فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم به ، ويعمل مثل عمله . فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة ، فولدت أسماء بنت عميس محمد بن أبي بكر فأرسلت إلى رسول الله ﷺ كيف أصنع ؟ قال اغتسلي واستثفري بثوب وأحرمي . وصلى رسول الله ﷺ في المسجد ثم ركب القصواء حتى استوت به على البيداء نظرت الى مد بصري بين يديه من راكب وماش ، وعن يمينه مثل ذلك ، وعن يساره مثل ذلك ، ومن خلفه مثل ذلك ، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن وهو يعرف تأويله ، وما عمل به من شيء عملنا به . فأهل بالتوحيد لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك . لا شريك لك ، وأهل الناس بهذا الذي يهلون به فلم يرد عليهم ﷺ شيئا منه ولزم ﷺ تلبيته لسنا ننوي إلا الحج ، لسنا نعرف العمرة ، حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن ، فرمل ثلاثا ، ومشى أربعا ، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم فقرأ «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى» ، فجعل المقام بينه وبين البيت . فكان أُبَيّ يقول ولا أعلمه ذكره إلا عن النبي ﷺ كان يقرأ في الركعتين « قل هو الله أحد» ، و«قل يا أيها الكافرون» ، ثم رجع إلى الركن فاستلمه ، ثم خرج من الباب إلى الصفا ، فلما دنا من الصفا قرأ «إن الصفا والمروة من شعائر الله» ، أبدأ بما بدأ الله به ، فبدأ بالصفا فرقى عليه ، حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال :

لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ثم دعا بين ذلك ، قال هذا ثلاث مرات ، ثم نزل إلى المروة ، حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي رمل ، حتى إذا صعدنا مشى ، حتى إذا أتى المروة ففعل على المروة كما فعل على الصفا ، حتى إذا كان آخر طواف على المروة قال : لو أني استقبلت من

أمري ما استدبرت لم أسُق الهدي ، وجعلتها عمرة ، فمن كان منكم ليس معه هدي فليحل وليجعلها عمرة ، فقام سراقة بن مالك بن جعشم فقال : يا رسول الله ألعامنا هذا أم لأبد ؟ فشبك رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابعه واحدة في الأخرى وقال : دخلت العمرة في الحج هكذا مرتين لا بل للأبد ، وقدم عليٌ من اليمن ببدن النبي صلى الله عليه وسلم ، فوجد فاطمة ممن حل ولبست ثيابا صبيغا واكتحلت ، فأنكر ذلك عليها ، فقالت أبي أمرني بهذا . وكان علي يقول بالعراق فذهبت إلى رسول الله ﷺ محرشا على فاطمة للذي صنعت مستفتيا له فيما ذكرت منه ، فأخبرته أني أنكرت ذلك عليها ، فقالت أبي أمرني بهذا فقال صدقت صدقت ، ماذا قلت حين فرضت الحج ؟ قال قلت اللهم إني أهل بما أهل به رسولك صلى الله عليه وسلم قال : فإن معي الهدي فلا تحل ، قال : فكان جماعة الهدي الذي قدم به عليٌ من اليمن والذي أتى به النبي صلى الله عليه وسلم مئة . فحلّ الناس كلهم وقصّروا إلا النبي ﷺ ومن كان معه هدي ، فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ، ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس ، وأمر بقبة من شعر فضربت له بنمرة ، فسار ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة ، كما كانت قريش تصنع في الجاهلية فأجاز ﷺ حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة ، فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له ، فركب فأتى بطن الوادي فخطب الناس وقال إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا . ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وان أول دم ضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعا في بني سعد ، فقتلته هذيل وربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضع ربانا ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله . واتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وقد تركت فيكم مالن تضلوا بعد إن اعتصمتم به كتاب الله ، وانتم تسألون عني فما أنتم قائلون . قالوا نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت فقال : بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس اللهم اشهد أللهم اشهد . ثلاث مرات ، ثم أذن بلال ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ولم يصل بينهما شيئاً ، ثم ركب حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات ، وجعل جبل المشاة بين يديه . واستقبل القبلة فلم يزل

واقفاً حتى غربت الشمس ، وذهبت الصفرة قليلاً حين غاب القرص . فأردف أسامة خلفه ، ودفع صلى الله عليه وسلم وقد شنق للقصواء الزمام حتى أن رأسها ليصيب مورك رحله . ويقول بيده أيها الناس السكينة السكينة السكينة ، كلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد ، حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ، ولم يسبح بينهما شيئاً . ثم اضطجع حتى طلع الفجر فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان واقامة. ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فرقي عليه ، فاستقبل القبلة ، فحمد الله وكبره وهلله ووحده ، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً ، فدفع قبل أن تطلع الشمس ، وأردف الفضل بن عباس وكان رجلاً حسن الشعر ، أبيض وسيماً ، فلما دفع ﷺ مرت ظعن يجرين فطفق الفضل ينظر اليهن ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على وجه الفضل ، فحول الفضل وجهه من الشق الآخر ينظر ، فحول رسول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل ، فصرف وجهه من الشق الآخر ينظر حتى أتى بطن محسر ، فحرك قليلاً ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج إلى الجمرة الكبرى ، حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة فرماها بسبع حصيات ، يكبر مع كل حصاة ، منها كحصى الخزف ، رمى من بطن الوادي ، ثم انصرف الى المنحر ، فنحر ثلاثاً وستين بدنة بيده ، ثم أعطى عليا فنحر ما غبر ، وأشركه في هديه ، ثم أمر من كل بدنة ببضعة ، فجعلت في قدر ، فطبخت فأكلا من لحمها وشربا من مرقها ، ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأفاض إلى البيت فصلى بمكة الظهر ، فأتى بني عبد المطلب وهم يسقون على زمزم فقال : انزعوا بني عبد المطلب ، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم فناولوه دلواً فشرب منه . لمسلم وأبي داود والنسائي .

وفي رواية : قال صلى الله عليه وسلم نحرت ها هنا ومنى كلها منحر ، انحروا في رحالكم ، ووقفت ها هنا وعرفة كلها موقف . ووقفت ها هنا والجمع كلها موقف .

عن ابن عباس : أن أسامة كان ردف النبي صلى الله عليه وسلم من عرفة إلى المزدلفة ، ثم أردف الفضل من المزدلفة إلى منى وكلاهما قال لم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يلبي حتى رمى جمرة العقبة . للستة إلا مالكا .

(عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رمى الجمرة التي تلي المنحر ومسجد منى رماها بسبع حصيات ويكبر كلما رمى بحصاة ثم تقدم أمامها فوقف مستقبلاً القبلة رافعاً يديه ويطيل الوقوف ، ثم يأتي الجمرة الثانية فيرميها

بسبع حصيات ، يكبر كلما رمى بحصاة ، ثم ينحرف ذات الشمال ، فيقف مستقبلاً القبلة رافعاً يديه يدعو ، ثم يأتي الجمرة التي عند العقبة ، فيرميها بسبع حصيات ولا يقف عندها . للبخاري والنسائي .

(عن عبد الرحمن بن زيد : رمى ابن مسعود جمرة العقبة من بطن الوادي بسبع حصيات ، يكبر مع كل حصاة ، فجعل البيت عن يساره ، ومنى عن يمينه ، فقيل له إن أناساً يرمونها من فوقها فقال هذا والذي لا إله غيره مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة) . للستة إلا مالكاً .

(عن ابن عباس : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم غداة العقبة وهو على راحلته هات ألقط لي فلقطت له حصيات من حصى الخزف فلما وضعتهن في يده قال بأمثال هؤلاء وإياكم والغلو في الدين ، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين) . للنسائي .

(عن جابر : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمي يوم النحر ضحى ، وأما بعد ذلك فبعد زوال الشمس) . للستة إلا مالكاً .

(عن أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى منى فاتى الجمرة فرماها ، ثم أتى منزله بمنى ونحر ، ثم قال للحلاق خذ ، وأشار إلى جانبه الأيمن ثم الأيسر ، ثم جعل يعطيه الناس) .

(عن علي : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تحلق المرأة رأسها ، وزاد رزين : في الحج والعمرة وقال إنما عليها التقصير) .

(عن ابن عمرو بن العاص : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف في حجة الوداع بمنى للناس يسألونه ، فجاءه رجل فقال : لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح قال إذبح ولا حرج فجاءه آخر فقال لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي قال إرم ولا حرج فما سئل يومئذ عن شيء قدم أو أخر إلا قال إفعل ولا حرج) . للستة إلا النسائي .

(وللشيخين : قال : حلقت قبل أن أرمي قال إرم ولا حرج وأتاه آخر فقال : إني ذبحت قبل أن أرمي فقال إرم ولا حرج وأتاه آخر فقال : إني أفضت إلى البيت قبل أن أرمي قال إرم ولا حرج) .

(عن ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم قيل له في الذبح والحلق والرمي والتقديم والتأخير فقال لا حرج) . لأبي داود والنسائي والشيخين بلفظهما .

(وفي رواية : رميت بعد ما أمسيت فقال لا حرج).

(وفي رواية : زرت قبل أن أرمي قال لا حرج).

(عن عمر : خطب الناس في عرفة فقال : إذا جئتم منى غداً فمن رمى الجمرة فقد حل له ما حرم على الحاج إلا النساء والطيب لا يمس أحد نساء ولا طيباً حتى يطوف بالبيت) لمالك .

(عن ابن عباس : قال إذا رمى الجمرة فقد حل له كل شيء إلا النساء قيل والطيب ؟ قال : أما أنا فقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتضمخ بالمسك أو طيب هوَ ؟) للنسائي .

(عن جابر : كنا نتمتع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعمرة فنذبح البقرة عن سبعة نشترك فيها) .

(عن مالك : بلغه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : بمنى هذا المنحر وكل منى منحر ، وقال : في العمرة هذا المنحر يعني المروة وكل فجاج مكة وطرقها منحر) .

(عن جابر : كنا لا نأكل من لحوم بدننا فوق ثلاث . فأرخص لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : كلوا وتزودوا) .

(وفي رواية : كنا نتزود لحم الهدي على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة) . للشيخين .

(عن علي : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقوم على بُدنه وأتصدق بلحمها وجلودها وأجلتها ولا أعطي الجزار منها وقال : نحن نعطيه من عندنا) . للشيخين وأبي داود .

(عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ قدم مكة وهو يشتكي فطاف على راحلته كلما أتى على الركن استلمه بمحجن فلما فرغ من طوافه أناخ وصلى ركعتين) .

(ولمسلم وأبي داوود عن جابر قال : طاف رسول الله ﷺ في حجة الوداع على راحلته بالبيت يستلم الحجر بمحجن وبين الصفا والمروة ليراه الناس وليشرف وليسألوه فإن الناس غشوه) .

(وروى البخاري عن ابن عباس قال : يا أيها الناس اسمعوا مني ما أقول لكم

وأسمعوني ما تقولون ولا تذهبوا فتقولوا قال ابن عباس . قال ابن عباس من طاف بالبيت فليطف من وراء الحجر ولا تقولوا الحطيم فإن الرجل في الجاهلية كان يحلف فيلقي سوطه أو نعله أو قوسه) .

(وروى البخاري عن ابن جريج : أخبرني عطاء أنْ مَنَعَ ابن هشام النساء الطواف مع الرجال قال : كيف يمنعهن وقد طاف نساء النبي ﷺ مع الرجال قلت أبعد الحجاب أو قبله ؟ قال : لقد أدركته بعد الحجاب قلت : كيف يخالطن الرجال ؟ قال : لم يكن يخالطن كانت عائشة تطوف حجزة من الرجال لا تخالطهم فقالت امرأة انطلقي نستلم يا أم المؤمنين قالت : انطلقي عني وأبت وكن يخرجن متنكرات بالليل فيطفن مع الرجال ...)

(وروى الإمام أحمد عن سعيد بن مالك قال : طفنا مع رسول الله ﷺ فمنا من طاف سبعا ، ومنا من طاف ثمانيا ، ومنا من طاف أكثر من ذلك فقال النبي ﷺ لا حرج).

(ولمالك والنسائي عن جابر قال : إن رسول الله ﷺ كان إذا نزل من الصفا مشى حتى إذا انتصبت قدماه في بطن الوادي سعى حتى يخرج منه) .

وبعد : هذا هو الأساس :

إن أساس الإسلام هذه الأركان الخمسة . بها يعرف إسلام الإنسان وبها يعرف إسلام الشعب ، وبها يعرف إسلام الحكم ، وبها يعرف إسلام الأمة ، وبدونها لا يقوم إسلام لا في نفس الفرد ولا في نفس الشعب ، ولا في نفس الحكم ، ولا في نفس الأمة .

فالإنسان الذي لا يشهد الشهادتين مؤديا مضمونهما ، مجتنبا نواقضهما ، مصليا لله بعدهما مزكيا صائما حاجا كيف يقوم الإسلام عنده أو به قياما صحيحا .

والشعب الذي لا يُربى على الإسلام لله بالشهادتين والصلاة والزكاة والصوم والحج ، لا يطمع منه أن يؤدي واجبات الإسلام الأخرى .

والحكم الذي لا يستسلم كل فرد لله فيه بهذه الأركان ، والذي لا يسعى جاهدا لإحيائها والتشجيع عليها ، أو الذي يقف حاجزا دونها . فلا يسمح بحج ، ويشجع على الفطر ، ولا يأخذ زكاة ويؤتيها ، ولا يبالي بصوم ، ويتبنى شعارات تناقض الشهادتين كيف يكون إسلاميا ، وكيف يطمع منه بأن يقيم الإسلام . ومن أفظع ما وقع فيه المسلمون من أوهام وأخطاء ، أنهم أوصلوا باختيارهم أحيانا إلى سدة الحكم ناسا من أبناء المسلمين لا يؤمنون بغيب ، ولا يقيمون صلاة ، ولا يؤتون زكاة ، ولا يصومون

ولا يحجون ، وهم يطمعون منهم أن يجعلوا الإسلام دين دولتهم الرسمي ، عقيدة ونظاما نصا وروحا ، إنه لا إسلام بلا مسلمين ، ولا مسلمون وأركان الإسلام مهدمة في نفوسهم .

والأمة التي تهدمت أركان الإسلام في أنفسها ، أمة لم يعد لها من الإسلام إلا اسمه .

واذا كانت المسألة هكذا ، فلا بد من أن يعيد المسلمون الحقيقيون النظر في كثير من الأمور ، ويجهدوا من أجلها ، فيقيموا أركان الاسلام في أنفسهم إقامة أجود ، ويتزنون بها الناس أكثر ، ويجهدون في الدعوة لقيامها أكثر الجهد ، إذ أن هذه المرتكزات لو قامت قياما صحيحا ، واستفيد من الحركية التي تتمخض عنها — في اجتماعات المسلمين لصلواتهم ، وفي مساجدهم وجمعهم ، وفي المال العظيم المتجمع عن طريق الزكاة ، وفي رمضان الذي هو شهر الانطلاق ، وفي الحج الذي هو التذكير العملي بالمنهج النظري والسياسي للإسلام — ، لصلح أمر المسلمين .

كما أن عليهم أن يجهدوا في تبيانها وتوضيحها ، وأن يؤكدوا أنها الميزان الذي يجب أن يزن به المسلمون إسلام الحاكمين والمحكومين وإسلام الحكم .

ولكن كما يجب التركيز على هذه الأركان الخمس من حيث مضمونها ، فيجب التركيز كذلك على أنها أركان الإسلام وأساسه ، وليست كل الإسلام ، بل الإسلام بناء يقوم على هذه الأركان ، فمهما كانت أهمية الركن ، فإنه لا يُستغنى به عن البناء ، فالتركيز على أهمية الركن ينبغي أن يرافقه التركيز على أنه ركن فحسب ، وأن هذا الركن ينبغي أن يقوم عليه بناؤه ، وأن المسلم بدون هذا يكون كمن بنى الأساس في أرض ثم أبقاه ولم يبن عليه ، فيكون هذا عجيبا : أساس قد عطل عن البناء عليه .

والفصول الثلاثة الآتية إنما تفصل موضوع البناء بعد الأركان فإلى الفصل الأول منها :

(المنهاجان الاجتماعي والأخلاقي في الإسلام) الذي جعلناه هو والباب الأول من الفصل الثالث ، الجزء الثاني من الأصل الثالث .

* * *

الفهرس

صفحة

صفحة

صدر للمؤلف

تحت عنوان : دراسات منهجية هادفة

- الأصل الأول : الله جلّ جلاله
- الأصل الثاني : الرسول ﷺ ـ جزءان
- الأصل الثالث : الاسلام ـ الجزء الأول

تحت الطبع

- الأصل الثالث : الاسلام ـ الجزء الثاني والثالث والرابع
- جند الله ثقافة وأخلاقاً